مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المَائِدَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المائدة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المائدة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

افْتُتِحَت سورة المائدة بنداء المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤)

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الكريم يأمر تبارك وتعالى عباده بالوفاء ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ وقد وردت كلمة العقود عامة، لتشمل جميع مفردات العقود بحسب أنواعها واختلاف درجاتها ومجالاتها، فاستوعبت مساحة دلالتها المقاصد المتنوعة التي ذهب إليها أهل التأويل من الصحابة وعلماء التفسير، فقال ابن عباس رضي الله عنهما عن العقود أنها: ما أحل وما حَرَّم وما فرض وما حد في القرآن كله، فلا تغدروا، ولا تنكثوا. وقال عبد الله بن عبيدة: العقود خمس: عُقدة الإيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف. وقال آخرون: أنها لأهل الكتاب بالوفاء بما أخذ عليهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل هي العقود التي كان قد تعاقد عليها أهل الجاهلية من الأحلاف والنصرة والمؤازرة[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هي عامة، وهو الصحيح، ونقل كذلك قول الزجاج بعموم ذلك، وأنه هو الصحيح[٢] وهذا الاختلاف لا تضارب بينه، فليس هو اختلاف تضاد، بل اختلاف تعاضد وتكامل، لأن كل قول لا يمنع من إضافة القول الآخر إليه. وهذا يفيد أن جميع تلك الدلالات قد استوعبها لفظ العقود، فجميعها مطلب ديني، مما يفيد أن عدم تقييد اللفظة بدلالة محددة قد أعطاها القدرة على استيعاب تلك المساحة من المعاني. فكان بناؤها اللفظي غاية في الإعجاز البياني. فهي العقود مع الله تعالى التي عقدها على عباده وألزمهم بها من الإيمان والعبادات والمعاملات، وكذلك العقود مع نبيه صلى الله عليه وسلم بطاعته واتباع سنته وعدم مخالفته، وكذلك العقود مع خلقه: في النكاح والبيوع والمعاهدات وغيرها من أنواع العقود.

ودلالة ﴿ أَوۡفُواْ ﴾ فعل أمر من الله تعالى يفيد وجوب الوفاء بما تعاقد به العبد مع غيره، سواء فيما كان لله تعالى بما شرع، أو بما كان مع عباده من المسلمين وغيرهم، بما يفيد حرمة العقود، وصيانتها من العبث والتلاعب، أو التراخي، أو استغلال ما قد يطرأ على أطراف العقد من ضعف أو قوة؛ أو بما يحدث بينهم من التآخي. فَيتمكن أحد اطرافه من عدم الوفاء به، أو من ضعف وهوان لحق الطرف الآخر، فيستغله بالنقض والتلاعب. ودلالة ﴿ أَوۡفُواْ ﴾ تستلزم الاستيفاء لكامل للعقد وبنوده وجوباً.

ومعنى ﴿ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ أي: العهود، والعقد هو: وصل الشيء بغيره. وهذا يفيد: أن من مقاصد شريعة الله تعالى الرحمة، والتي منها تشريع الوفاء بالعقود، إذ أن في تشريعها رحمة بالعباد؛ بما يحقق التآلف بينهم، ويمنع

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٥-١١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤)

التنازع وأسبابه، مما يُعلم المسلم أنَّ من واجبه السعي لتحقيق هذا المقصد في تعاملاته مع غيره، والتي من أخصها الوفاء بالعقود.

ثم قال عَزَّ وجل ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فاشتمل هذا البيان من الله تعالى على تقرير قاعدة في أصل بهيمة الأنعام، بأنها: الحل، أي: أن الأصل فيها الحل ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ ثم استثنى من عموم الأصل المخصوص من بهيمة الأنعام، وهو ما حدده سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ باستثناء ما نتلوه عليكم من المحرمات. ليدل ذلك على أن الأصل في الأنعام الحل، وهي: الإبل والبقر والغنم، واستثنى تبارك وتعالى ما تضمنه القرآن الكريم من استثناء ﴿ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ والتي منها ما جاء في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾

وفي دلالة ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم ﴾ ما يفيد عناية الله تعالى بالمؤمنين، إذ أشار بأنكم المقصودون بهذا الحل، كما يفيد الاستثناء ﴿ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أن المستثنى من الحل هو أيضاً لمصلحتكم، فطالما الحل لأجلكم ولأجل مصلحتكم، فإن ما تم استثناؤه فهو لمصلحتكم، من أجل إبعادكم عَمَّا يضركم. فالذي هداكم لِمَا ينفعكم، هو الذي يهديك لمعرفة ما يضركم، فيكون نهيه مصلحة للعباد، كما أن أمره مصلحة للعباد.

ومن الفوائد ما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام، فإنها تضمنت خمسة أحكام: الأول: الأمر بالوفاء بالعقود. والثاني: تحليل بهيمة الأنعام. والثالث: استثناء ما يلي بعد ذلك. والرابع: استثناء حال الإحرام فيما يُصاد. والخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم[١]

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ ﴾ أي: أُحل لكم بهيمة الأنعام غير مستحلي اصطيادها وأنتم حرم. والْحُرُم: المحرِمُون[٢] فلا يجوز لكم الصيد وأنتم في حال الإحرام بالحج أو العمرة. ثم تنتهي الآية الكريمة بِحُكْمٍ عظيم وقاعدة عظيمة جليلة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فقد حكم الله تعالى بأن الحكم له، وأنه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٣١)

يحكم ما يريد، بما يُلْزِم العبد الأخذ بما حكم تبارك وتعالى به؛ استسلاماً دون مناقشة، ولا مجادلة، وسواء أدرك الحكمة؛ أم لم يدركها. فهو سبحانه وتعالى يُوجِبُ ما أراد وجوبه، ويحل ما أراد تحليله، ويُحَرِّمُ ما أراد تحريمه.

وكذلك هي قاعدة عملية تغرس الإيمان والطاعة، فإذا راودت النفسُ صاحبها في شريعة الله تعالى بما لا يَحْسُن، قادها للشريعة بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ وإن عارضه معارض على حكم لله تعالى، أجابه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فيجعل عقله ونظرته واستسلامه منقاداً لشريعة لله تعالى، من خلال قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فهو الاستسلام المطلق لأحكام الله تبارك وتعالى.

ثم يتكرر النداء من الله تعالى للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

فقد بدأ الله تبارك وتعالى هذه الآية بصيغة النداء التي تحمل ما تم بيانه في الآية السابقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم تلى ذلك النداء نهياً عن تعدي معالم دينه، وحدوده التي حدها سبحانه وتعالى ﴿ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ وقد ذكر العلماء أقوالاً تفسيرية متعددة في ذلك، ولكنها متعاضدة وغير متعارضة، بل إنها تدور في مساحة المعنى. فأحدها: أنها مناسك الحج، والثاني: أنها ما حَرَّم الله تعالى في حال الإحرام، والثالث: دين الله كله، والرابع: حدود الله تعالى التي حدها، والخامس حَرَمُ الله، والسادس: الهدايا المشعرة لبيت الله الحرام، والسابع: أنها أعلام الحرم[1] وقال عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى: شعائر الله: جميع ما أمر به، ونهى عنه[2] وبالتالي فإن شمولية اللفظة أعطت شمولية الدلالة، لتستوعب الأجزاء المتعددة التي أشارت إليها الأقوال. والتي تجمعها: جميع ما أمر به، ونهى عنه سبحانه وتعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى التأويلات في ذلك: قول عطاء الذي ذكرناه من توجيهه معنى ذلك إلى: لا تحلوا حُرُمات الله، ولا تضيعوا فرائضه، لأن الشعائر جمع شعيرة ... فالشعائر المعالم من ذلك .... فكان معنى الكلام: لا تستحلوا أيها الذين آمنوا معالم الله. فيدخل في ذلك معالم الله كلها، في مناسك الحج من تحريم ما حرم الله إصابته فيها على الْمُحْرِمِ،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٣٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٧)

وتضييع ما نهى عن تضييعه فيها، وفيما حَرَّم من استحلال حُرُمات حَرَمِه، وغير ذلك من حدوده وفرائضه، وحلاله وحرامه، لأن كل ذلك من معالمه وشعائره التي جعلها أمارات بين الحق والباطل. وكذلك قال: إن الله جَلَّ ثناؤه نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده. وإحلالها نهياً عاماً من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء، فلم يجز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة بذلك كذلك.[١]

وقال السعدي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها. فالنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها، فهو يشمل النهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم[٢] فهي قاعدة عامة، شاملة قاطعة.

وجملة ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تفيد النهي عن إضفاء حكم التحليل على ما حرم الله تعالى، وأن الاستحلال لا يكون إلا بعد تحديد الشعائر التي حرمها تبارك وتعالى، مما يفيد أيضاً أهمية توكيد النهي بعد بيان الحكم وما يتعلق به من الاستثناء. وهي منهجية تعليمية في التربية والتعليم، وكذلك في بناء الأنظمة والأحكام، بل حتى في صياغة الأحكام المتعلقة بالمصالح المرسلة فيما يستجد من حاجات الناس التنظيمية.

ثم أعقب العموم مفردات التحريم فيما يخص الحرم والإحرام ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ فلا تستحلوا ما حرم عليكم في خصوص الشهر الحرام، فلا تنتهكوه بالقتال، ولا بأي نوع من أنواع ما حرم عليكم فيه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ اسم مفرد يدل على الجنس في جميع الأشهر الحرم[٣] وفيما يخص قتال أهل الشرك في الأشهر الْحُرُم، فقد ذكر الإمام ابن جرير وغيره: أنه أجمع الجميع على أن الله جَلَّ ثناؤه قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الْحُرُم وغيرها من شهور السنة كلّها[٤]

ومما نوهت عنه الآية الكريمة ما يُساق للبيت الحرام ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ والهدي عام لكل ما يُهدى للحرم ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ فلا تستحلوا ما يُهدى إلى بيت الله في الحج أو العمرة أو غيرها. فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، بل عظموه، ولا تتصرفوا فيه على غير مراد الله تعالى وأحكامه. ثم ذكر تبارك

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٨)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٥٠/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧/٦)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩/٨)

وتعالى نوعاً من الهدي ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ وهي التي يُجعل لها قلادة، كعلامةٍ أنها لله تعالى. وذلك إظهاراً وإعلاناً لشعائره سبحانه وتعالى.

ومن فوائد هذا البيان في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ ذِكْرُ الخاص بعد العام لتقريره وتأكيده؛ وبيان أهميته وخصوصيته، كما أن في وضع القلائد ما يفيد الإظهار والبيان والإعلان بخصوصية هذه المهداة، أنها لبيت الله الحرام، مما يزيد من إظهارها التحفيز للغير نحو الاقتداء بالفعل، ويمكن القياس على ذلك من أن في إظهار الصدقة والإعلان بها ممدوحة إذا كانت من أجل الاقتداء، وسلمت من الرياء. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن القلائد كل ما عُلِّق على أسنمة الهدايا وأعناقها، علامة أنه لله تعالى، وهي سنة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبقيت في الجاهلية، وأقرها الإسلام[١] وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى ذلك: لا تتركوا الإهداء للبيت الحرام، فإن فيه تعظيم شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها، لتتميز به عَمَّا عداها من الأنعام. وليُعلم أنها هدي إلى الكعبة، فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث فيمن يراها أن يأتي بمثلها، لأن من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه[٢]

ثم ذكر سبحانه وتعالى ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي: ولا تمنعوا القاصدين إلى بيت الله الحرام، ولا تستحلوا قتالهم، لأن من دخله كان آمناً. وتضمن النص القرآني علة مجيء القاصدين للبيت ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وفي هذا فوائد عظيمة جَمَّة: أنها بينت أن مقصدهم في أمرين: الأول: ابتغاء فضل الله تعالى، والثاني: رضوان الله عَزَّ وجل، وبالتالي يخرج من ذلك من كان مبتغاه عداء أو إساءة أو ظلماً، أو غير ذلك من المقاصد الفاسدة.

وكذلك من الفوائد: عموم لفظة الفضل ﴿فَضْلًا ﴾ ودخولها في الابتغاء ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ فيدخل في ذلك مع ابتغاء العبادة، ابتغاء التجارة. فجمع لفظ الفضل بين أداء العبادة وبين التجارة. فقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أي لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله، وراغباً في رضوانه، فلا تصدوه، ولا تمنعوه، ولا تهيجوه، قال مجاهد وعطاء وأبو العالية وغير واحد في قوله تعالى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨/٦-٢٩)

يعني بذلك التجارة[١] وأما الرضوان ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ فهو ابتغاء ما يترضون الله تعالى به في عبادتهم. وهذا يؤكد عناية منهج الله تعالى بالعمل والكسب، والسعي في الرزق، وتحقيق تبادل منافع التجارة. بل وحمايتها من كل ما يعطلها أو يمنعها. وجعلها من ضمن العبادة في حمايتها وحماية أهلها. ومن الفوائد أن في ذلك مدح وثناء على من يبتغي فضل الله تعالى ورضاه، حيث أن الله تعالى حَرَّم الاعتداء عليه، وأضفى عليه الحماية منه تبارك وتعالى. كما أن في ذلك عناية وحماية ومدحاً لمن يبتغي رضى الله تعالى بطاعته، وأن زيارة البيت هي ابتغاء لرضوان الله تعالى. وفيه بيان لمكانة البيت العتيق وعظمته عند الله تبارك وتعالى، إذ أَمَّن قاصديه، وأحاطهم بأحكام الحماية والرعاية.

ثم أعاد الله تعالى إلى المحرم ما كان عليه قبل الإحرام ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ فإذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم عنه وأنتم محرمين، لأن سبب الحكم قد زال بخروجكم من النسك. ليتأكد بذلك أن الله يحكم ما يريد. وأن على العبد أن يستسلم لمنهج الله تعالى.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ فلا يحملنكم بغض قوم بأن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا حكم الله فيهم، فتتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم[٢] فلا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل احد في كل أحد، في كل حال[٣] وهذا يفيد أن دين الله تعالى هو دين عدل وانضباط، وضبط للعقول والقلوب والميول والهوى، حتى في حال البغض لمن صدكم فيجب الالتزام بالعدل والطاعة لله تعالى.

ثم يأمر الله تعالى عباده بالتعاون وفق قاعدة ضابطة لمساحة التعاون في كل الأحوال، وفي جميع المجالات التي لا حصر لها، فقال عَزَّ وجل ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فالبر اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله تعالى، وحقوق الآدميين. وأما التقوى في هذا الموضع، فهي: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، من الأعمال الظاهرة والباطنة[٤] ثم وضع الله سبحانه وتعالى ضابطاً لحدود التعاون ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فهي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦/٢)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١/٨)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦/٢)
(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٥٢/١)

قاعدة شاملة لحدود التعاون، إذ أمر تبارك وتعالى بضابط التوقف عن التعاون والتناصر والتكاتف عندما يكون التعاون على إثم وعدوان ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فيجب أن لا يكون هناك تعاون في باب الإثم أو في باب العدوان ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى الإثم والعدوان: أن الإثم: المعاصي. والعدوان: التعدي في حدود الله تعالى[1] وكذلك يشمل ظلم الناس لأنها من التعدي، بل حتى ظلم الحيوان هو نوع من مفردات التعدي، وكذلك ظلم الناس فيما يحتاجونه كالظلال ونحوها.

ومن جليل الفوائد: دقة القاعدة في ضبط التعاون، دون تحديد لمفردات التعاون أو أفراده، وكذلك ضبط مجال عدم التعاون دون تحديد أفراده، لتستوعب بذلك جملة وتفصيلا لمفردات وأنواع وحالات لا حصر لها. وهذا من غزارة البلاغة البيانية في القرآن العظيم. ويمتد سعة الفائدة إلى الجانب العلمي والتعليمي في منهجية تحرير القواعد للأنظمة والتعليمات.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة عظيمة شريفة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فأمر الله تعالى عباده بتقواه التي تستلزم الخوف من مقامه وسلطانه، ثم عضد هذا الأمر ببيان شدة عقوبته لمن تجرأ على منهجه بالمخالفة. مما يفيد تعليمياً ودعوياً أهمية الموعظة في تمام البيان؛ بما يناسب الحال والمقام. وقد جاء الحث على التقوى بصيغة الأمر ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لتفيد وجوب الالتزام بها. ثم أوضح وبين عَزَّ وجل صفة عقابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فعقابه سبحانه وتعالى موصوف بالشدة، وقد سبق هذا الوصف التأكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ وفي هذا غاية الزجر بالوعيد المتحقق، كما يفيد أن في التقوى ما يتجنب به المسلم المعصية. ومن غزارة الأسلوب التحذيري، أنه تبارك وتعالى هدد وحذر بعقابه على وجه العموم، دون تحديد لنوع العقوبة، لتتحرك النفس بكل ما يمكن أن يكون عقوبة لها، إزاء ما تقترفه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٣٥)

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عباده بما حرمه عليهم في سياق قد استوفى كمال مراده تبارك وتعالى، فاشتمل أمر النهي على ﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ وهو ما مات من الحيوان حتم أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد. لما فيه من الدم المحتقن الضار للدين والبدن. وكذلك ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ أي: المسفوح، وهو الدم الذي يصب من البهيمة عند الذبح. وكذلك ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ وهذا يشمل جميع أجزائه، حتى الشحم[١] وكذلك حَرَّم عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وهو ما ذُبح فذُكر عليه غير اسم الله تعالى، فهو حرام؛ لأن الله تعالى أوجب ذكر اسمه عَزَّ وجل على ما يُذْبح. وهذا المذبوح بغير اسم الله تعالى حرام بالإجماع، وإنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً[٢] وكذلك ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ وهي التي تموت بالخنق، فهي محرمة ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ وهي التي تُضرب بشيء ثقيل فتموت ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ وهي التي تتردى من العلو إلى أسفل فتموت، كالتي تسقط من مرتفع كالجبل، أو تسقط في بئر ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ وهي البهيمة التي تنطحها أخرى ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أي ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد والثعلب والذئب. ثم استثنى تبارك وتعالى لعباده ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ وهو كل ما تم استدراكه من المذكورات وفيه حياة؛ ثم تمت تذكيته مما كان تحريمه بسبب الذكاة، وليس تحريمه لذاته كالخنزير.

ومن الفوائد البيانية أن الاستثناء يكون مصروفاً إلى ما تقدم من الكلام[٣] فوقع الاستثناء على ما سبق من المحرمات فيما كان تحريمه بسبب الذكاة، وليس تحريمه لذاته، كالخنزير. فكلمة الذكاة ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ خصت المستثنى المتعلق تحريمه بسبب الذكاة، وهذا من دقة البيان القرآني الكريم، واحترازاته المتناهية في الدقة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩/٢)

(٢) ينظر كتب الفقه التي استوفت مناقشة ذلك وبيانه.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٦)

ومن الفوائد: أن منهجية الدقة في الكتاب والسنة أورثت وغرست في علماء الدين دقة التحري، وعمق الفكر، حتى أصبحت سمة غالبة على منهجهم العلمي، حتى أنهم وصفوا ما تقع به الذكاة من الآلة: فإن الذي عليه الجمهور من العلماء هو: كل ما أفرى الأوداج وأنهر الدم، فهو من آلات الذكاة، ما خلا السن والعظم[١] وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم (ما أنهر الدم، وذُكِر اسم الله فكلوه، ما لم يكن سن ولا ظُفُر)[٢]

ومن المحرمات ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهي حجارة حول الكعبة، وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كانت العرب في الجاهلية يذبحون عندها، ويشرحون اللحم، ويضعونه على النصب، فنهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فُعِلَت عند النصب، حتى ولو ذُكِرَ اسم الله عليها عند الذبح، لما فيها من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم[٣] وكذلك النُّصُب: وهي الأوثان من الحجارة، تُجمع في الموضع من الأرض. فقد كان المشركون يقربون لها، وليست بأصنام. ويذبح عليها اهل الجاهلية، ويبدلونها إذا شاءوا بحجارة أعجب إليهم منها[٤]

ومن الفوائد الدقيقة أنه تم التنصيص على ما ذُبح على النصب، بالرغم من أنه سبق وأن ذُكر في الآية الكريمة ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لأن ما أُهل لغير الله تعالى شرك في النية، وهي نية صرف الشيء لغير الله تعالى، وهذه شرك في الأفعال، ارتبطت بشرك النية. والله تعالى أعلم، وهذه من الدقة في بيان المحظور.

ثم تلى ذلك من المحرمات ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ وهو طلب العلم والمعرفة عن ما قسم الله تعالى لعبده من الرزق والخير عن طريق القداح. وهو: طلب علم ما قُسم لكم، أو لم يُقسم بالأزلام. فقد كانوا في الجاهلية إذا أرادوا أن يخرجوا في سفر جعلوا قداحاً للخروج والجلوس، فإن وقع الخروج خرجوا، وإن وقع الجلوس جلسوا. فالأزلام هي القداح، ومفردها زلم[٥]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٧/٦)

(٢) البخاري (٤٦٤/٣) برقم (٥٥٤٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣/٢) ملخص

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٠/٨-٧١)

(٥) المرجع السابق (٧٢/٨-٧٣)

وهي عبارة عن قداح ثلاثة: على أحده مكتوب أفعل، وعلى الاخر لا تفعل، والثالث ليس عليه شيء. فيأخذ بما كُتب، بالفعل أو عدم الفعل، وإن كان الذي ليس عليه شيء، أعاد الاستقسام. فهو يطلب من هذه الأزلام أن تقسم له ما يجب عليه اتجاه ما يريد(١)

فحرم الله تعالى هذا الفعل السلوكي الذي يُسَلِّمُ فيه الإنسانُ فكره ونشاطه وذهابه وإيابه لقداح لا تفهم ولا تعقل، فحرر الله تبارك وتعالى هذه العقول من ذلك الصنيع، بأن أرشدهم إلى الدعاء عند الطلب أو الدفع، وبالاستخارة عند الحيرة والجهل عن مغبة الشيء.

ثم وصف تبارك وتعالى هذه المحرمات بما يستوجب تركها ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ وهو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته.

ثم انتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حال الكفار ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ فالآن انقطع طمع الأحزاب، وأهل الكفر والجحود من دينكم أيها المؤمنون، فانقطع الأمل ﴿مِن دِينِكُمْ ﴾ أي: من أن ترجعوا عن دينكم إلى دينهم أبداً(٢)

فابتدأ سياق بكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ ﴾ لتفيد الزمن الحاضر وما يتصل به، ولتفيد تغير الحال منذ نزول هذه الآية الكريمة، والتي نزلت يوم عرفة، في حجة الوداع، وذلك بعد دخول أفواج العرب في الإسلام. فمن اليوم حصل اليأس عند من بقي على كفره من أن يرجع المؤمنون عن دينهم، مما يفيد تيقنهم ويقينهم ببقاء هذا الدين، وأنه لا تفكير في إزالته وإبطاله، أو أن يغلبوه. ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ واليأس يفيد انقطاع الطمع فيما كانوا يأملون من تلاشي هذا الدين وانهزامه، وهي كلمة تفيد انقطاع الأمل والرجاء. وهذا من الإعجاز العقائدي الذي ثبت بقاؤه، إذ أنه منذ نزول هذه الآية والكفار في يأس من تلاشي هذا الدين، ومن رجوع أهله عنه. وسيكون ذلك إلى قيام الساعة، لأن كلام الله تعالى حق، وحاضر اليوم والماضي شاهد على ذلك، فسبحان من له الملك والحكم، فلا غالب لأمر وحكم الله تعالى. ويمكن استصحاب كلمة ﴿ٱلْيَوْمَ ﴾ لكل زمن، فتعطي تصويراً ليأس الذين كفروا في كل زمن من الأزمان، وفي كل مكان من الأمكنة، فإن يأسهم متتابع من أن ينخذل هذا الدين بتراجع أهله عنه، أو بضمور عدد الداخلين فيه.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٨/٨)

فهذه الحقيقة تستوجب منكم أيها المؤمنون الثقة وعدم الخوف منهم ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ فقد ظهر الدين وزال الخوف من الكفار، وانقلبوا مغلوبين مقهورين بعدما كانوا غالبين[١] فاحصروا الخشية لي ﴿وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ وأخلصوا النية لي. فلا تخافوهم أن يظهروا عليكم، فيقهروكم ويردونكم عن دينكم، ولكن خافوني إن أنتم خالفتم أمري، واجترأتم على معصيتي، وتعديتم حدودي أن أُحِلَّ بكم عقابي، وأنزل بكم عذابي[٢]

ومن دقة وجمال البيان القرآني الكريم أنه ورد بيان الأمر ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ بعد بيان وتقرير الواقع الذي أصبح عليه هذا الدين وأهله، وما سيكونون عليه منذ ذلك اليوم، وهو قوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ﴾ فهذه الحقيقة وهذا التقرير يوجب الامتثال للأمر ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ وهذا يعطي منهجية ترتيب الخطاب، بتقرير قاعدة الواقع وانتفاء الموانع أولاً، ثم يلحق به الأمر. فيستفاد من ذلك قاعدة التقرير ثم التوجيه، وهو أدعى وألزم للقبول. فالتقرير كان في حق حال الكفار من اليأس الذي يفيد انقطاع الأمل والرجاء ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ﴾ والتوجيه متعلق بما يجب والحال كما تم الحكم والتوضيح له.

ومن الفوائد أن الله تبارك وتعالى حصر الخشية من عباده في أن تكون منه وحده فقط، فيثبت بهذا أنه هو الذي أضعف عدوهم، وهو الذي أيسهم من أن ترجعوا عن دينكم، وأنه في حال عدم الخوف من مغبة معصيته، وتجاوز وتعدي حدوده يكون عذابه. وفي هذا غرس للقوة الإيمانية، وقوة الإرادة، وقوة التوكل، وتحقيق الشجاعة القلبية والعملية ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾

ثم انتقل السياق الكريم إلى بيان ما امتن الله تعالى به على عباده المؤمنين، من كمال واكتمال شرعه تبارك وتعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ فابتدأ البيان بكلمة ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ لتفيد الزمن الحاضر وما يتصل به، فاليوم هو يوم عرفة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في وقت نزول هذه الآية، القول الذي رُوى عن عمر بن الخطاب رضي الله

(١) الزمخشري، الكشاف (٦١٩/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٩/٨)

عنه: أنها نزلت يوم عرفة، يوم جمعة، لصحة سنده، ووهي أسانيد غيره[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية، أنها نزلت يوم عرفة، وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس وسمرة بن جندب رضي الله عنهم[٢]

فأخبر اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل على نبيه صلى الله عليه وسلم الدين يوم أُنزِلت هذه الآية، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أي حلالكم وحرامكم، فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام، وفي قوله تعالى ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ مِنَّتِي، وما امتن الله به على المؤمنين لا يُحصى، فأعزهم وخذل وأذل عدوهم، وفُتحت مكة، وهُدمت معالم الجاهلية، وحججتم، وكمل نزول شرعه، ولم يحج معكم مشرك ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ أي اخترته لكم، وهو الدين المرضي عنه لكم، فلا دين مرضي عنه سواه. وهذا يتضمن الاستسلام لأوامره تبارك وتعالى والانقياد لطاعته على ما شرع من حدود وفرائض ومعالم. فإن فرائض الله وحدوده قد اكتملت ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فلم ينزل بعد هذه الآية تحريم ولا تحليل. وعلى هذا يكون المعنى اليوم أكملت لكم شرائع دينكم[٣] وقد انتفى بهذا دخول المشركين البيت، وظهر عز هذا الدين، وذُل الشرك والمشركين. فالحمد لله على نعمه.

ومن دقائق البيان أن ورد إتمام الدين بلفظ الإكمال ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بينما وردت النعمة بلفظ الإتمام ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فالاكتمال يفيد أنه لم يعد يحتاج إلى زيادة، فقد استوفى الدين كامل التشريع، بما يفيد انتفاء النقص، واستيفاء كمال الوفاء، فمن زاد أو غَيَّر فقد خالف دين الله عَزَّ وجل. بينما وردت النعمة بلفظ الإتمام ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ لأن الإتمام يعني استيفاء جميع متطلبات الذين أنعم الله تعالى عليهم، ولا يمنع من الزيادة، فلم ينتفي بها التعاقب في زيادة النعمة. قال فاضل السامرائي: التمام نقيض النقص، والكمال الحالة المثلى، والكمال تمام وزيادة، فلا يُزاد عليه. أكملت لكم دينكم فلا يزاد عليه،

(١) المرجع السابق (٩١/٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٩/٢)

فهو استوفى الحالة المثلى. بينما النعمة تُزاد، والكمال لا يُزاد عليه[١] مما يبين دقة الإعجاز في دلالات الألفاظ. فسبحان من أظهر الإعجاز حتى في ألفاظ كتابه عَزَّ وجل.

ثم ينتقل السياق إلى ما اتصلت به الآية الكريمة من المحرمات ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فأباح الله تبارك وتعالى للمضطر بسبب ﴿ مَخۡمَصَةٍ ﴾ وهي المجاعة، من غير اسراف وميول للحرام وتعمد له، وهو معنى قوله تعالى ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ ﴾ والجَنَف: الميل. والإثم: الحرام. والحال هذه فإن الله تعالى لا يعاقبه، وإنما يغفر له ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ وهذه من رحمة الله تعالى، مما يفيد أن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الحياة.

ومن الفوائد في السياق أن الله تعالى نوه عن مغفرته ورحمته بصفاته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ وهذا من كمال رحمته، أن أعاد المخاطب إلى صفاته سبحانه وتعالى التي اتصف بها من المغفرة والرحم. وكذلك من الفوائد: أنه لم يقتصر على المغفرة فقط، وهو ما يرجوه المضطر، بل ذكر الرحمة أيضاً، لأن في إباحته للمضطر رحمة، وفي مغفرته رحمة. فسبحان من أعجز ببلاغة كلامه عباده.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤ ﴾

ابتدأت الآية الكريمة بالتنويه إلى أن هناك من سأل عن الحلال، فيستثنيه تبارك وتعالى مما حُرِّم عليهم من المحرمات التي وردت فيما سبق من هذه السورة المباركة. وفي هذا الاستهلال بالسؤال ما يشد الانتباه نحو الإجابة، فبين وأظهر السياق أهمية السؤال تربوياً وتعليمياً في شد الانتباه. كما يدل السؤال على عناية واهتمام وعناية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يرضي الله تعالى، فيسألون ليتبينوا حتى ينقادوا إلى مراد الله تعالى.

وهذا يفيد أن للمستفتي ولطالب العلم أن يسأل عما يحل وما يحرم ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡ ﴾ يقول الزمخشري رحمه الله تعالى: ماذا أُحِلَّ لهم من المطاعم، كأنهم حين تلى عليهم ما حرَّم عليهم من خبيثات المآكل، سألوا عَمَّا أحل لهم منها، فقال تعالى ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ أي ما ليس بخبيث منها، وهو

(١) من مقابلة مسجلة معه

كل ما لم يأت تحريمه في الكتاب أو السنة، أو قياس مجتهد[١] ودلالة كلمة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ استوعبت جميع أنواع الطيبات، وبالتالي كل ما هو حرام فليس بطيب. وكذلك تعني كلمة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ الذبائح الحلال الطيبة لهم. قال مقاتل رحمه الله تعالى: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق[٢]

قال ابن سعدي رحمه الله تعالى عن الطيبات: هي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن، ولا بالعقل. فدخل في ذلك جميع الحبوب، والثمار التي في القرى والبراري. ودخل في ذلك جميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع، والخبائث منها. ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث[٣]

وكذلك أحل الله تعالى ما تم تعليمه من الجوارح ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ والجوارح كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر. فيشترط أن تكون جوارح الصيد مُعَلَّمه ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ ويُشترط في أكل صيد الجوارح أن تكون مُكَلَّبه ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ وهي ما أُدب من الجوارح، وما تم ترويضه بالتأديب والتثقيف. ومن الفوائد أن اشتقاق ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من الكلب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب. فاشتق من لفظه لكثرته من جنسه[٤] أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها، أو أظفارها[٥] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي أُحل لكم الذبائح التي ذُكر اسم الله عليها؛ والطيبات من الرزق، وأُحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين والأئمة، وذكر كذلك أن: هناك من حرم صيد الكلب الأسود، لقوله صلى الله عليه وسلم[٦] (الكلب الأسود شيطان)[٧]

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦١٩/١-٦٢٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧/٢)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٥٦/١)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٦٢٠/١)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨/٢)

(٦) المرجع السابق (١٧/٢)

(٧) أحمد (٢٥٠/٣٥) برقم (٢١٣٢٣) وابن ماجه (١٩٩/٢) برقم (٩٥٢)

وسُميت جوارح: لأنها تجرح. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: سميت هذه الحيوانات التي يُصطاد بهن جوارح، من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جارح له أي: كاسب له[١] وكذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي: ما كسبتم. ويُقال: امرأة لا جارح لها، أي: لا كاسب لها. فالاجتراح بمعنى الاكتساب. ويُستفاد من حيث الدلالة اللغوية: أن معنى الجوارح باعتبار الكسب، وبما تكتسبه من الصيد. فهي جوارح بهذا المعنى، وكذلك هي جوارح باعتبار ما تقوم به وما قد تُحدثه من جراح للصيد. فالمعنيان متعلقان بها على أي وجه. وهذا من دقة اللغة واستيعابها للصفات المشتركة، وكذلك غزارة اللفظ في القرآن الكريم إذ اشتمل على كلتا الدلالتين من دون تناقض، بل جاء على وجه التعاضد في كل وجه تنظر إليه. وهذا من الإعجاز البلاغي في البيان القرآني الكريم.

ثم قال الله تعالى ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يعني تؤدبون الجوارح بتعليمها طلب الصيد لكم ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: بالعلم الذي علمكم الله به، ومنها أحكام الصيد، مثل: إذا أمسك الجارح الصيد فلا يأكل منه الجارح. فيدربه على ذلك، ولأن العلم الذي تعلمه الإنسان هو فضل من الله تعالى، فهو الذي علمكم ودلكم على استخدام الجوارح في الصيد، كما علمكم واشترط عليكم فيها التعليم والتأديب والترويض الذي يمنع الجوارح من مجاوزة أصول الصيد؛ كالخنق والأكل منه.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى[٢] وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه. فمتى كان الجارح مُعَلَّماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله تعالى عليه وقت ارساله حل الصيد وإن قتله بالاجماع[٣]

ثم يبين الله تعالى الإذن في الأكل مما أمسكت الجوارح ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي كلوا أيها الناسُ، مما أمسكت عليكم جوارحكم، ليفيد هذا أنها أمسكت الصيد لكم ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولم يمسك الجارح الصيد لنفسه، لأنه إذا أمسكه لنفسه لم يكن صيداً لصاحب الجارح. ومما يدل على أنه صاده لنفسه هو

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧/٢)

(٢) أي إذا دعاه لطعام أو أغراه استجاب. إذا أُشلي: أي: دعى. واستشلى: استجاب.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨/٢)

أكل الجارح من ذلك الصيد. وللعلماء تفصيل فقهي في ذلك، فيتم النظر للمزيد في كتب الفقه وكذلك كتب التفسير.

ومن دقة التوجيه الكريم في كلام رب العالمين دخول ﴿مِمَّآ﴾ في قوله تعالى ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ للتبعيض، إذا كانت الجوارح تُمسك على أصحابها ما أحل الله لهم لحومه، وحرَّم عليهم فرثه ودمَه، فقال جل ثناؤه: فكلوا مما أمسكت عليكم جوارحُكُم الطيبات التي أحلت لكم من لحومها، دون ما حرمت عليكم من خبائثه من الفرث والدم وما أشبه ذلك، مما لم أُطَيِّبْه لكم، فذلك معنى دخول ﴿مِمَّآ﴾ في ذلك[1]وهذه دقة بيانية للقرآن الكريم، ودقة في فهم النص، مما يبين أثر القرآن الكريم في تنقية الذهن وتدريبه وتعليمه على العملية العلمية والتعليمية، فأنجبت مدرسة القرآن الكريم أفذاذ العلماء.

ثم بين تبارك وتعالى شرط التسمية ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم (إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أدركته لم يَقتُل فاذبح، واذكر اسم الله عليه، وإن أدركته قد قَتَل ولم يأكل فكل، فقد أمسكه عليك. فإن وجدته قد أكل منه فلا تَطْعُم منه شيئاً، فإنما أمسك على نفسه، وإن خالط كلبك كلاباً فقتلن ولم يأكلن، فلا تأكل منه شيئاً، فإنك لا تدري أيها قتل) [2] ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه: التسمية عند ارسال الكلب والرمي بالسهم، باعتبار هذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور، أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السدي وغيره[3]

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة للمؤمنين، وذلك بحثهم على التقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فجاء الأمر بالتقوى على الإجمال باعتبار سياقها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وكذلك باعتبار مضمون الآية الكريمة. ليشمل الأمر بالتقوى ما يخص مضمون هذه الآية، وأيضاً عموم لزوم التقوى. فليس هناك ما يمنع أن تشتمل على ما في هذه الآية الكريمة وعلى غيرها من أوامر الله تعالى ونواهيه. وهذا من عظيم سياق البيان القرآني الكريم، فإن حملتها على القريب كان كذلك، وإن كانت مطلقة فهي تستوعب ذلك وغيره، فسبحان الله العظيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٧/٨)

(٢) النسائي، السنن (١٧٩/٧-١٨٠) برقم (٤٢٦٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠/٢)

ثم يبين سبحانه وتعالى قدرته على سرعة الحساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وسرعة الحساب من الله تعالى تفيد وتبين أن الله تعالى لا يحتاج إلى وقت حتى يجمع أعمال العباد، ثم ينظر فيها ويتأملها، ثم يقرر ما يستحقه كل فرد من الجزاء والثواب. بل إنه سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء إحاطة علم وقدرة ومكافأة، فاحذروا ممن هذه قدرته سبحانه وتعالى، بأن لا يتجرأ أحدٌ على مخالفة أمره ونهيه. ومن فوائد العلم والمعرفة بهذه القدرة العظيمة ما يغرس ويزرع الهيبة والمهابة في قلوب أهل الإيمان من مقام الله تعالى وقدرته وعظيم سلطانه، ومن يوم الحساب والجزاء. فهو بيان بليغ الأثر من الله جَلَّ جلاله لمن ألقى السمع واعتبر.

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥ ﴾

تبين هذه الآية الكريمة مزيداً من البيان لِمَا أَحَلَّ اللّهُ تعالى، فبدأت بتقرير التحليل العام لكل ما هو طيب ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ فاستوفت دلالة ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ جميع الأنواع والأصناف، فيخرج منها كل الخبائث التي ورد تحريمها في الكتاب والسنة، وكذلك ما تم القياس عليه مما حرم الله تعالى من الخبائث. ويفيد هذا أن ما حرمه الله تعالى ليس من الطيبات، بل فيه خُبث داخل فيه من أي وجه كان، سواء في أصله أو بما دخل عليه من تحويله؛ كالخمر والمسكرات، أو دخل عليه من الوسيلة والأسلوب، كالسرقة والقصب، وما ذُبح لغير الله تعالى، ونحو ذلك.

ومن الفوائد: التكرار في هذه الآية. فقد تكرر فيها ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ وتكرر ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ ﴾ وكذلك ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ليفيد التأكيد، كما أن جميعها جاء في بيان بديع من غير تكرار في السياق. فكلمة ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ تكررت ثلاث مرات في سياق بياني بديع، لا تكرار له في السياق الواحد؛ وإنما تكرار للكلمة التي أفادت التأكيد والبيان، فالسياق الأول هو: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ﴾ والسياق الثاني: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ والسياق الثالث: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ وتكررت الطيبات في قوله تعالى ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ والنص الثاني: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ فالأول: أمر تعليم بما أُحل لهم، والثاني: بيان تعليم، وتقعيد قاعدة بأن الأصل في الطيبات هو الحل.

ثم يبين الله تعالى حكم طعام أهل الكتاب ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي ذبائح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أُوتوا التوراة والإنجيل، وأُنزل عليهم، فدانوا بهما أو بأحدهما ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي حلال لكم أكله، دون ذبائح سائر أهل الشرك[١] والطَّعام اسم لما يؤكل، والذبائح منه، وهو هنا خاص بالذبائح عند كثير من أهل العلم بالتفسير والتأويل. وأما ما حرم علينا من طعامهم فليس داخل في عموم الخطاب[٢]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى نقلاً عن طائفة من الصحابة والعلماء: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مُجْمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله. وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه[٣]

ثم بين تبارك وتعالى أن طعام المسلمين حلال لأهل الكتاب ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فلكم أن تُطعموهم من ذبائحكم، كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة[٤] ومن فوائد ذلك أن الخطاب موجه للمسلمين وليس لهم من بيان عدم الإثم في إطعامهم من طعامكم، فيحل لكم ذلك. فلا يمتنع عليكم كونهم لم يؤمنوا بدينكم أن تُطعموهم من طعامكم. خاصة وأنهم يخالطون المسلمين ويجاورونهم في المدينة، وهذا يفيد التعايش مالم يحصل منهم ما يوجب مقاطعتهم. فهم لا ينتفعون ولا يحتاجون للحكم بأكل طعام المؤمنين؛ طالما أنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم. فينصرف الخطاب للمؤمنين.

ثم يبين الله تعالى ما أُحِل من النكاح ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: أُحل لكم نكاح الحرائر، العفائف من النساء المؤمنات، ومن الفوائد أنه ذكر هذا توطئة لما بعدها، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أُحل لكم نكاح الحرائر العفائف من نساء أهل الكتاب، الذين هم اليهود والنصارى. وبهذا يحرم نكاح المشركات، وغير العفائف من الفاجرات والزناة. وللعلماء الفقهاء بيان فقهي في تفاصيل ذلك.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢٩/٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥١/٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢١/٢)

(٤) المرجع السابق (٢٢/٢)

ويستفاد من ذلك رحابة المنهج الإسلامي في استيعاب ما يمكن أن تكون عليه الحياة الاجتماعية للمسلمين في البلاد المختلفة التي قد يستلزم الأمر مخالطة أهل الكتاب والتعايش معهم. فاستوعبت ذلك بما يؤكد عمق دين الله تعالى في معالجة قضايا المسلمين أينما كانوا.

ثم حدد تبارك الله تعالى ضوابط ذلك النكاح ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ فالأول من الضوابط: المهر ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهو المهر، فيُعَد شرطاً لصحة النكاح، وفي إضافة الأجور لهن ما يفيد أن المهر حق للزوجة، وملك لها، إلا أن تعطي منه غيرها. والضابط الثاني للنكاح: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي أعفاء غير مرتكبي للزنى، محصنين بحفظكم لفروجكم عن الزنا ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير زانين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل محصناً عفيفاً. ولهذا قال ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن[١] وهذا هو الضابط الثالث.

وهذا يفيد قدر ودقة عناية منهج الله تعالى بواقع الحال للزوج وللزوجة، وأهمية النية في النكاح، مما يدل على عناية الإسلام بأحوال الناس، وضبط العلاقة بين الرجل والمرأة، حتى وإن كانت من أهل الكتاب، فإن النكاح قائم على ركائز الإسلام واعتباراته. وأن الله تبارك وتعالى عالج الأمور وحفظ الحقوق بهذا التشريع. فلم يبخس للكتابية حقاً في النكاح. فعالج حالة المؤمن عند رغبته، وأن يكون عفيفاً بهذا الزواج، كما حفظ حق الكتابية في المهر، وألا يكون مسافحاً لها، ولا يتخذها عشيقة، بل زوجة في نيته وعشرته لها.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فمن كفر بما يجب الإيمان به، فقد حبط عمله، فيصبح حظه في الآخرة إن مات على كفره من الخاسرين، الذين خسروا ثواب الله وجناته، فخسروا أنفسهم وأهليهم بما حل عليهم من العذاب المقيم. وهذا يفيد أن الإيمان هو الركيزة الأولى في الإسلام، وأن العمل بلا إيمان لا قيمة له، لأنه عمل مقترن بالكفر. وأن الكفر بعد الإيمان يحبط العمل ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فالآية الكريمة أثبتت خسارة وحبوط العمل، ولا يُحبط العمل إلا بعد وجوده، فيخسر كل ما قدم إن مات على الكفر. كما يفيد ذلك أن إحصان المؤمن للكتابية لا يخرجها من الكفر. وبالتالي فإن إباحة الزواج بالكتابيات لا يعني رضى الله

(١) المرجع السابق (٢٢/٢)

عنهن، لأنهن يكفرن برسالة نبي الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ويجب على المؤمن أن يؤمن بجواز نكاح المسلم للكتابية، ولا ينكر على من فعل ذلك. ويفيد ذلك كذلك أن لله عَزَّ وجل أن يُشَرِّع ما يشاء، وأن الله حكيم عظيم في شرعه وتشريعه. وأن الله رؤف رحيم بإباحة ذلك وتشريعه للمؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

ابتدأ تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بياء النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الامتثال لما نودوا له وهي الطهارة للصلاة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ ويفيد هذا الأمر وجوب الطهارة للصلاة، ويدل على عظيم قدر الصلاة، إذ أوجب الطهارة للقيام بها. فإذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طُهْرِ الصلاة، وهو الوضوء، فاستوفوا ما بينه تبارك وتعالى في الآية من الوضوء. فالأصل في حال الإنسان أنه على غير وضوء، لما يعتريه من نواقض الوضوء. فيلزمه الطهارة للصلاة، كشرط للقيام لها.

وفي قوله تعالى ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ما يدل على وجوب النية، لأن القيام لها مقترن بالنية، فلم يقم لغيرها، بل قام لها، حتى وإن فعل شيئاً أثناء قيامه لها، فلا ينصرف إلا لها على أصل القيام. وتم التعبير لها بلفظ القيام ﴿قُمۡتُمۡ ﴾ لبيان منزلتها وعظمتها، ففي اختيار اللفظة ما يدل على المقصد ولمعنى ﴿قُمۡتُمۡ ﴾ كما يفيد هذا في شرط نية الوضوء، من أن المصلي قام يتوضأ من أجل الصلاة وليس لغير ذلك كالنظافة العامة، أو للاستبراد، بل للطهارة المعلومة بالكيفية المخصوصة. وهذا دليل على شرط الطهارة للصلاة.

وجاء لفظ الصلاة مطلقاً ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ لتشمل جميع أنواع الصلوات: المفروضة والتطوع. وكذلك أفادت الترتيب في الوضوء ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾ فالوجه أولاً، ثم الأيدي، ثم المسح على الرأس، ثم غسل الرجلين إلى الكعبين. ثم هناك تفصيل لكيفية الوضوء، قد أوضحه وأبانه صلى الله عليه وسلم بفعله وقوله، كغسل الكفين، والمضمضة والاستنشاق، ومسح الأذنين، مما يؤكد العلاقة الترابطية بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فإن الله تبارك بحكمته جعل التفصيل الجزئي للوضوء والطهارة في السنة النبوية. ليدرك المؤمن علاقة الترابط والتلازم بينهما. وبالتالي فإن في هذا حجة وقوة للسنة النبوية، ورداً على كل من يفصل بين كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يُوضح ويبين تبارك وتعالى حال من أجنب ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ فأمر من حصلت له الجنابة أن يغتسل إذا قام إلى الصلاة. وقد بينت السنة النبوية كيفية طهارة الْجُنُب. ثم قال تعالى ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾ فبين جَلَّ جلاله حال من لم يجد الماء، أو تعذر عليه استعماله لبرد، أو جراح من المرضى والمسافرين، ومن جامع النساء، أو أحدث؛ بأن يتيمم إذا قام إلى الصلاة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال الجُنب تنصيصاً مرتين ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ فهذا في حالة وجود الماء، ثم ذكره حال تعذر الماء ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾ والصعيد هو وجه الأرض، واشترط له أن يكون طيباً ﴿صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾ وهو الطاهر النظيف، غير النجس ولا القذر، فإنه هو يقوم مقام الماء.

ثم بين سبحانه وتعالى كيفية التيمم ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ أي: فاضربوا بأيديكم الصعيد، فامسحوا بما علق بأيديكم من الصعيد على وجوهكم وأيديكم.

ثم بين الله عَزَّ وجل رحمته بهذا التخفيف ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ فهو لا يريد بكم التضييق والعسر، بل أراد رفع الحرج، فَسَهَّل عليكم ما يرفع الحدث، ويسر لكم الطهارة بالصعيد الطيب، فلم يُعسِّر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، فجعله يقوم مقام الماء. ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ فإن مراد ربكم مما أمركم به هو أن يطهركم بما فرض عليكم من الوضوء من الإحداث، وبالغسل من الجنابة، وبالتيمم عند فقد الماء، فتنظفوا وتطهروا بها لأجسامكم، وما يلحقها من تكفير الذنوب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: بأن يتم نعمته عليكم بإباحة التيمم لكم، فيصبح الصعيد الطيب طهوراً لكم، وذلك رخصة منه لكم، مع سائر نعمه التي أنعم بها عليكم أيها المؤمنون. لعلكم تشكرون إنعام ربكم عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرحمة والرأفة والتسهيل والسماحة. مما يفيد سماحة هذا الدين القويم، وأن الله تعالى ما جعل فيه من حرج ولا عسر.

ومن الفوائد أن دلالة جملة ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تفيد أن الله تعالى أتم بشريعة الإسلام كمال إنعامه وفضله على خلقه، ابتداء من الإيجاد والخلق والهداية، وبما أعطاهم من القدرات الذاتية، وما أوجده وسخره لهم من مخلوقاته: من السماء والأرض والليل والنهار والشجر والدواب، وما عملته الأيدي، وطرحه الفكر، وذلك كله بتسخيره وهدايته سبحانه وتعالى، وغير ذلك من الإنعام الذي لا تحده العقول، ولا تحصيه المحابر والأقلام، ولا العادين من الخلق.

ثم حث المولى سبحانه وتعالى عباده على أن يشكروه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فمنفعة هذا الشكر عائدة للعبد، فلا نفع لله تعالى فيه، فهو الغني عن عباده، وعن أفعالهم وأقوالهم.

وفي دلالة ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ توجيه كريم بأسلوب الحث والترغيب بما هو مطلوب منهم تجاه هذه النِّعَم، والتي منها نعمة الطهارة ورخصة التيمم. كما أن في صيغة هذا الأسلوب ما يعطي بالقياس عليه أهميته في المجال الدعوي والتربوي، لما له من تأثير في النفس البشرية، كمن يقول لابنه: لعلك تأخذ بهذا بعد أن وفرته لك من غير عناء ولا مشقة منك. فهو يختلف عن الأمر المباشر من حيث التفاعل معه والتأثير. كما أن لعل تفيد التوقع، فتعطي أن المتوقع منكم بعد هذا الإنعام أن تشكروا الله تعالى. وهي تفيد التعليل، فهذا الإنعام يعلل لكم وجوب الشكر، وصرفه للمُنْعِم سبحانه وتعالى الذي أنعم عليكم بذلك. وهي تفيد الترجي، أي ترجي العبد ثواب شكره لله تعالى.

ثم يأتي ارتباط تمام هذه الآية بالتي بعدها من التذكير بالنعم، ليتحقق المزيد من الشكر والثناء على لله تعالى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فابتدأت هذه الآية الكريمة بالتذكير بعموم نعم الله تعالى، ليسترجع العبد عظيم وتنوع إنعام الله تعالى عليه، فيتحقق الشكر منه للخالق المنعم سبحانه وتعالى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقد نسب الله عَزَّ وجل النعمة والإنعام له، تذكيراً للعباد بكريم فضله جَلَّ جلاه. كما خصهم بالتعيين، بدلالة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ التي أفادت أنكم أنتم أيها العباد المخصوصون بهذا الإنعام. وقد أفادت دلالة ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ الأمر باستدامة التذكر، وعدم النسيان أو التغافل والانشغال بالنعمة عمن أنعم بها.

وفي تَذَكُّر النعمة ما يدفع المرء إلى التواضع وعدم الغرور بما تفضل الله تعالى به عليه من النعم. وفيه ما يدفعه إلى أن ينسب النعمة لخالقه الذي أنعم عليه بما أنعم. وهذا يربي النفس على عدم التعاظم على الغير، لأن الذي أنعم هو الله تعالى. وهذا يشمل جميع النعم، ابتداء من الإيجاد والهداية، وما خلق لهم من مخلوقاته، وما هداهم إليه من الفكر والكسب وسُبُل العيش والحياة، وغيرها من النعم التي لا تحصى ولا تُعد ولا تُحد.

كما شمل أمر التَّذَكُّر التنويه بالمواثيق، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ فيا أيها المؤمنون بالعقود التي عقدتموها لله على أنفسكم، وهو عهده الذي عاهدكم به، فاذكروا نعمته عليكم في ذلك. ويذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوالاً أربعة في معنى الميثاق ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أنه إقرار كل مؤمن بما آمن به. وأنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى من بني آدم حين أخرجهم من ظهر أبيهم. وأنه ما وثَّق على المؤمنين على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام من أمره بالوفاء بما أقروا به من الإيمان، وأنه الميثاق الذي أخذ من الصحابة على السمع والطاعة في بيعة العقبة وبيعة الرضوان.(١) قال القرطبي رحمه الله تعالى: والذي عليه الجمهور من المفسرين كابن عباس والسُّدّي هو العهد والميثاق الذي جرى لهم مع النبي صلى الله عليه وسلم على السمع في المنشط والمكره، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ كما جرى ليلة العقبة، وتحت الشجرة، وأضافه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٤٨)

تعالى إلى نفسه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[١] وبهذا فإنه لا يمنع أن يدخل في هذا الميثاق إقرار كل مؤمن بما آمن به، فيستوفي بذلك الوجه العام والمخصوص من الأوجه المتعلقة بسبب النزول، فكلها تدخل في المواثيق التي واثق بها المؤمنون ربهم تبارك وتعالى. والله تعالى أعلم، وهذا من سعة دلالة النص لأوجه المعاني المتوافقة، وهي غزارة بيانية كريمة.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى بلزوم التقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التي تستوجب أداء ما استوثقهم به، والتي تمثل العلاقة بين نص عموم الأمر، وبين الأمر بالتقوى، ثم بعد الأمر بالتقوى نوه سبحانه وتعالى بصفة من صفاته العظيمة وهي العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وخص علمه بما في صدور عباده لعمق مكنون ما فيها، والذي لا يعلمه إلا صاحبه. ليبين دقة وعمق علم الله سبحانه وتعالى بما يخفى على غيره من المخاليق، والذي لا يخفى عليه شيء منه تبارك وتعالى.

ومن الفوائد كذلك: استجابة الصحابة بالسمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما حصل من ميثاق. وقد أضاف تبارك وتعالى عملية المواثقة إلى نفسه ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ وفي ذلك تشريف وتكريم لهذا الميثاق، ولمن عاهد وواثق من الصحابة رضي الله عنهم، وكذلك فيه تشريف لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي حصلت المبايعة معه عليه الصلاة والسلام. فمواثقة النبي صلى الله عليه وسلم هي مواثقة مع الله تعالى، لأنه رسوله الذي أرسله إلى عباده عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإنه يدخل في ذلك كل المواثيق التي واثق ويواثق بها المؤمنون ربهم تبارك وتعالى، فيكون ذلك شرف لهم بهذا الميثاق الذي واثقوا به ربهم تبارك وتعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٦)

ابتدأ التوجيه الكريم بنداء خطابي من الله تعالى لعباده المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يا من آمنتم وصدقتم بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ كونوا قائمين بالحق إخلاصاً لربكم الذي آمنتم به سبحانه وتعالى ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ شهداء بالعدل. فلا يحمِلَنَّكم بغض قوم على الجور والحيف، بعدم العدل معهم، فالتزموا العدل.

وقد تكرر الخطاب في هذه الآية الكريمة والتي تليها، وما سبق بصيغة النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ وكذلك بصفة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بما يبين ويُظهر منزلة الإيمان، ومنزلة المؤمنين عند ربهم عَزَّ وجل. فيا من آمنتم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم به، يجب عليكم أن تكونوا قائمين بالحق، وشهادة الحق؛ إخلاصاً لله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ فأقيموا العدل والحق إخلاصاً لله تعالى، لينتفي به الرياء والمجاملة، والحيف، والاستقواء والاستهواء، لأنها جميعاً تتنافى مع إحقاق الحق وشهادة الحق، مما يفيد أن استمرار إقامة الحق لا يكون إلا في الإخلاص له تبارك وتعالى. ودلالة ﴿كُونُوا۟ ﴾ تفيد الاستمرارية والمداومة، بما يؤكد ويفيد وجوب الالتصاق بأداء الحق والعدل، حتى يصبح العدل سجية، فيُوجِب لكم ذلك الاستمرار صفة الالتزام التي أُمِرتُم بها، وهي القسط.

كما أن دلالة لفظة ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ تفيد المبالغة في تحري إقامة الحق والعدل، أي قائمين بالعدل، فأنتم مأمورون بالمبالغة في تحري إقامة العدل ﴿لِلَّهِ ﴾ تعالى، وذلك إخلاصاً وخوفاً وتعظيماً لأمره تبارك وتعالى، وطمعاً في ثوابه. لينتفي به الرياء والمجاملة والحيف والاستقواء، أو الاستهواء في إقامة القسط ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: بالعدل وليس بالجور. وهذا يوجب شهادة العدل، حتى إذا شهد فلا يشهد إلا على الحق والعدل، وإذا شهد فيشهد بالحق والعدل، ليُثْبِتَه بقوة شهادتِه ونُصحِه.

فهذا المقطع من استهلال الآية الكريمة يدل على أهمية تحري العدل، وأهمية الصبر على أدائه، ومقاومة النفس على التزامه وعدم الحيف عنه، وأن يكون الإخلاص لله تعالى هو المرتكز في إقامته، وكذلك أن يكون على منهج الله تعالى ومراده، وأن يبذل الوسع والجهد في تحريه، حتى يكون صفة دائمة في سلوك المؤمن عند حكمه وعند شهادته. إخلاصاً لله تعالى، وليس لأي علة غير ذلك الإخلاص لله تعالى.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين إلى العدل حتى مع الذين لهم بغض في القلوب، مما يفيد تحريم الظلم حتى مع من تبغضه لأي سبب من الأسباب، لأن النهي يفيد التحريم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فلا يمنعكم كُره قوم على أن ألا تعدلوا معهم. ودلالة ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ بمعنى لا يحملنكم، ودلالتها تعطي معناً عميقاً، كما قال الإمام القرطبي رحمه الله: أنها بمعنى: لا يُدخلنكم في الجرم[١] فأعطت اللفظة دلالة زائدة في بيان النهي، فلا يحملنكم ويؤدي بكم الْبُغْض إلى أن تُدْخِلُوا أنفسكم في الجرم الذي يُجَرِّمُكُم عند الله تعالى. وهذا من عمق البيان البلاغي في دلالة اللفظة. فهي أبلغ في هذا السياق من لفظة لا يحملنكم.

ثم يبين الله تعالى الدافع إلى الجور وعدم العدل الذي يجب أن يحذره المؤمن وهو ﴿شَنَـَٔانُ﴾ وهو الكراهية والبغض. وهذا يستدعي ويُوجب على المسلم أن يتحكم في عواطفه، ولا يسترسل معها في هواها، مما يربي ويغرس في سلوك المؤمن القدرة والمنهجية على ضبط وإدارة التصرفات؛ إذا ما التزم بنهج الإسلام، فهو يقوي إرادة المسلم وعزيمته على الحق قبولاً وأداء، فيعطف نفسه على إحقاق الحق، مع من يبغضهم، فكيف بمن انتفى عنهم البغض، وليتساوى تحقيق العدل حتى مع من تحقق عليهم البغض، ومع من لم يتحقق فيهم البغض، فهم في العدل سواء، بل ويُعَمّق هذا المنهج لدى المؤمن الحق والطاعة لله تعالى، ويُكْسِبُه محبة غيره له، وخاصة الكافرين، مما يحفزهم ذلك نحو محبة الإسلام واعتناقه، لما يرون فيه من العدل مع وجود دواعي الجور، فجميع مفردات وأنواع ودرجات الشنآن يلزمها التنحية أمام العدل.

وبالرغم من كره النفس لمن تكره إلا أن الله تعالى أمر بالعدل في الشهادة، وفي إعطاء الحق، لأن الذي يمنع من الجور والحيف وعدم القسط هو الخوف من الله تعالى؛ الذي أمر بالعدل وإرغام النفس على ذلك؛ حتى مع من تُبْغِضُهُ النفس. ويفيد هذا أن كفر الكافرين لا يُجيز للمؤمنين عدم العدل معهم، سواء كانوا أفراداً، أو جماعات. فكفرهم لا يمنع العدل معهم، بل يجب إقامته.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عما يتعلق بالكفار من العدل في القتال: وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن الْمُثْلَة بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغَمُّونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بِمُثْلَة قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم[٢] وهذا يدل على مكارم أخلاق الإسلام، وأنه يقضي بالعدل حتى مع أعداء الله تعالى من الكافرين. ولو عرف الكفار هذه المكارم لما تواروا عن الدخول في الإسلام.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٣/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٣/٦)

إن مغالبة الشنآن عن قوة ودوافع البغضاء والكراهية والعداوة لا يضمنها ويحققها في سلوك الإنسان إلا الإيمان بعد توفيق الله تعالى، مما يبين أن قوة الإيمان هي الغالبة والقائدة إلى الحق بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه، وأن من رُزِق الإيمان فقد رزق خيراً عظيماً.

والمقصود بالقوم في الآية الكريمة هم الكفار[١] ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ وإذا كان هذا حال العدل مع الكافرين، فإنه من باب أولى أن يكون واجب التحقق في حق المؤمنين ممن بينهم عداوة وبغضاء، وكيف إذا كان الشنآن منتفي بينهم، فليس بينهم شحناء ولا عداوة ولا بغضاء، وإنما أطماع الدنيا، أو حُب الاستعلاء، أو رغبة الاستحواذ على حق غيره بحيلة، أو لفقد دليل الأحقية أو التملك. وفي هذا تعليم للمؤمنين بأن لا يجعلوا للضغائن مكاناً في مساحة العدل، وهذا الهدي الرباني هو الذي يتحقق به الخير في كل نواحي وميادين الحياة، سواء كان في الأسرة أو مع رفاق العمل، أو بين الرئيس والمرؤوس، أو في ساحات القتال، فإنها قاعدة إذا انبسط سلطانها في الحياة تحقق العدل وانتصر الحق، وعم الوفاق والاتفاق. وهذا يبين أن هذا الدين هو دين عظيم في كل شيء. اللهم لك الحمد على هذا الدين العظيم، اللهم توفنا عليه وأنت راض عنَّا برحمتك وفضلك يا رب العالمين.

وكلمة العدل تكررت مرتين: الأولى في النهي عن عدم العدل: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ والثانية: عند الأمر بتحقيقه ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ وفي هذا تأكيد لقيمته، وتأكيد لتحقيقه، ثم عضد سبحانه وتعالى الأمر بمحفز التقوى؛ الذي هو مطمع كل مؤمن في أن يحققه ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فعدلكم هو الأقرب لتحقيق التقوى في نفوسكم، وهو الكاشف لمقدار تقواكم، مما يفيد أن عدم العدل أبعد عن التقوى، ومُبعِدٌ عنها، مما يفيد أن تحقيق العدل هو قياس لتقوى المؤمن. وأن الحيف وعدم العدل مؤشر على ضعف التقوى.

ثم يأمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن من اتقى الله خافه وهاب مقامه، وأنفذ أمره؛ واجتنب ما نهى عنه، لأن التقوى مخافة الله باتقاء عقابه الذي يوجب الطاعة، فيلتزم العدل الذي امر الله تعالى به. ثم ينتهي التوجيه الكريم لهذه الآية العظيمة بلفت النظر والانتباه إلى صفة من صفات الله تعالى الموجبة للخوف منه وتحقيق العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فإن ربكم يعلم أعمالكم، ولا يخفى عليه منها شيء. ودلالة معنى ﴿خَبِيرُۢ﴾ تفيد عمق العلم ببواطن الأمور، فهو عليم خبير بأعمالكم،

---

(١) السيوطي، تفسير الجلالين (١٠٨)

فلا يخفى عليه شيء منها تبارك وتعالى، مما يستوجب الحذر، ومراعاة قدر معرفتكم بهذه الصفة الكريمة له سبحانه وتعالى. وهذا العلم من الله تعالى يفيد الإحصاء الذي يتبعه الجزاء والوفاء، للمحسن بما أحسن، وللمسيء بما أساء. وأما من حيث الأسلوب فإن السياق القرآني الكريم يفيد أهمية التذكير بما يوجب الامتثال، لأن فيه استحثاث وتذكير بلوازم الامتثال والطاعة.

ثم يأتي الترغيب في الطاعة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: أن الذين آمنوا بالله عَزَّ وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، وحققوا ذلك بالعمل، فإن لهم من الله تعالى وعد حق وصدق بالمغفرة ومحو ذنوبهم، والتجاوز عن مجازاتهم بما يستحقون، بل يزيدهم بالثواب العظيم على إيمانهم وما فعلوا من الصالحات.

ومن البلاغة البيانية: الإجمال للمطلوب منهم بأمرين: الأول: الإيمان، والثاني: عمل الصالحات. وكلمة ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ جمعت أركان الإيمان كلها، وكلمة ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ استوفت التطبيق والأداء لدين الله تعالى.

فإن دلالة ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ جمعت جميع الواجبات والمستحبات، وهذه غزارة بيانية في دلالة ألفاظ القرآن الكريم. كما يؤكد ويبين أن هذا الدين هو إيمان وعمل، وأن أعماله كلها قد اتصفت بالصلاح، فليس فيه شيء خارج عن الصلاح، وبالتالي فمن عمل به فهو من الصالحين.

وفي المقابل: فإن الذين كفروا بهذا الدين، وكذبوا بما جاءهم من الدلائل والبراهين الدالة عليه، فإن لهم عذاب الجحيم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فجمع استصحاب الجحيم جميع من كفر وكذب بآيات الله تعالى، التي هي أدلته وبراهينه وحجته على خلقه، الدالة على وحدانية الله عَزَّ في علاه. فإن الكفر يدل على الجحود، وهو أعم من التكذيب، والتكذيب يدل على النكران للأدلة الواضحة، الموجبة للإيمان والتصديق، فالتكذيب رد للحق بعد علمه. ويعطي النص دلالة الجمع بين عموم الكفر وخصوص التكذيب، الذي هو وجه من أوجه الكفر ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فصفة الكفر والتكذيب تفيد التأكيد وتفصيل البيان، مما يدل على التمعن والتوغل في الكفر.

ويفيد معنى ﴿ أَصْحَٰبُ ﴾ على المصاحبة والملازمة لعذاب النار بالخلود؛ وعدم الخروج. كما تدل على أنهم استصحبوا النار بكفرهم وتكذيبهم، فأصبحوا مصاحبين للجحيم، ومعنى ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ النار شديدة التأجج، فسميت بالجحيم: لعظمتها واشتداد تأججها. ويستنتج من جزاء كل فريق بما يستحق على عدله سبحانه وتعالى بين من آمن وبين من كفر.

ثم يتكرر الله عَزَّ وجل الخطاب بصيغة النداء للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ فيُذَكِّرُ اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين بنعمة كف أيدي الكافرين عنهم ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ وفي هذا تصوير وبيان لحال كيد الكافرين بأنهم أرادوا ورتبوا وأعدوا واستعدوا ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ وأنهم بسطوا أيديهم بما يبين العزم والتهيؤ المؤكد على مَد الأيدي إليكم بالقتل، ولكن لم يفعلوا، لأن الله تعالى كيف أيديهم ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ بأن منعهم مما أرادوا. ومَنْعُ الله تعالى يكون بأسباب قد لا يعلمها إلا الله تعالى، فقد يكون بما يقذفه في قلب العدو من الخوف، أو بما يتوجس من ردة الفعل، أو بما يستكثره في قلبه وبصره من كثرة قوة المؤمنين، أو بغير ذلك مما يمنع اللهُ تعالى به شرهم وكيدهم، فإن لله تعالى جنود السماوات والأرض.

وأشار القرآن الكريم في مد الأذى إلى اليد، فكنى بها لأنها تمثل الإنسان بكمال قوته وقدرته، التي تمثلت في إرادة القتال، وذلك باعتبار أنها الأداة الأظهر التي يتحقق بها الأذى العملي، وهذه من البلاغة البيانية، وليتبين بأن أذاهم الذي هَمُّوا به، وتأهبوا لإيقاعه هو أذى بدني قتالي لا قولي ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ وفي نفس الوقت كف اللهُ هذه الأيدي أن تمتد بأذى التعدي والبطش إليكم ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى في معنى بسط اليد: مدّها إلى المبطوش به، يُقال: فلان بسيط الباع، ومديد الباع، ويقال: بسط إليه لسانه إذا شتمه، وبسط إليه يده إذا بطش به[1]

ثم يأمر سبحانه وتعالى عباده بأمرين: التقوى، والتوكل عليه سبحانه وتعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ مما يفيد ويُظهر أهمية التقوى وأهمية التوكل في تحقيق الخير ودفع الشر. لأن في التقوى طاعة لله تعالى وامتثال، وفي التوكل اعتماد وتفويض واستعانة بقوة الله تعالى وقدرته. وكذلك تبرئة من الاعتماد على الذات، أو القوة أو الكثرة. فالتقوى والتوكل ركنان أساسيان لحياة المسلم، ولقوته ونصرته وفوزه.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٢٩/١)

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

بعد أن وجَّه الله تبارك وتعالى المؤمنين بما يلزم من الوفاء بالعقود، وبعهده وميثاقه، وأداء الحق والشهادة بالقسط، وما ذَكَّرهُم به تبارك وتعالى من إنعامه عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وهدايته لهم بالحق وكمال التشريع. انتقل البيان القرآني الكريم إلى ما كان من حال بني إسرائيل، ليكون ذلك عظة وعبرة. وليكون بياناً وإيضاحاً لأخلاقهم وغدرهم. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: يقول الله عَزَّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا تستعظموا أمر الذين هَمُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود، بما هَمُّوا به لكم، ولا أمر الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإن ذلك من أخلاق أوائلهم وأسلافهم(١)

فقد بين الحق تبارك وتعالى أنه قد أخذ على بني إسرائيل الميثاق ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقد أخذ الله ميثاقهم بأن يُخْلِصُوا له العبادة، ولا يعبدوا غيره(٢) وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا الأمر بعظيم البيان، حيث أن دخول ﴿وَلَقَدْ﴾ على الجملة يفيد التحقق، ودخول اللام عليها يفيد التأكيد. وهذه غزارة بيانية توثيقة في تأكيد أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وأنه ميثاق عظيم بالتأكيد والتحقق. كما يفيد دخول ﴿وَلَقَدْ﴾ على عظمة هذا الميثاق. وجاء في التفسير: أنه لما توجه موسى عليه السلام لمقاتلة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٥١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٦٢٩)

الجبابرة، أُمر بأن يقيم نقباء، أي عرفاء، فَمِن كل سبط نقيب[١] ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ والنقيب هو القائم على أمور المجموعة أو الجماعة، ومن فوائد دلالة كلمة ﴿نَقِيبًا﴾ أن النقيب هو القائم بأمورهم، الذي يُنَقِّب عنها وعن مصالحهم فيها، وهو شاهد القوم وضمينهم، وهم الأمناء على قومهم[٢] وهذا يفيد أهمية التفويض والتنظيم والترتيب وتوزيع المسؤوليات، وأن دين الله تعالى مبني على إقامة الأسباب الموجبة لتحقيق الأهداف، والتي كان منها: إقامة النقباء أو العرفاء على كل سبط. كما تفيد صفة وواجبات النقباء: أهمية الاختيار، وبيان المهام والمسؤوليات.

وأوضح وبين الله تعالى سبيل الحصول على معيته ونصرته وتوفيقه لبني إسرائيل، فقال عَزَّ وجل ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فابتدأت الآية الكريمة بأقوى ما يرجوا الإنسان ويأمل من النصرة والقوة والتوفيق والمعية، وهي معية الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ والتي تعني وتفيد: أنه لا غالب لهم، لأن الله معهم، ولن يضيق عليهم أمر، لأن الله معهم، ولن يحزنهم أمر، لأن الله معهم، فمعية الله تعالى تعني التوفيق والسداد والنصرة.

ومن الفوائد كذلك حُسن الابتداء بما يناسب رجاء المُخَاطَب ورغبته، إذ بدأ الله تعالى توجيهه بما يحبون، وبما يحفزهم لما أمرهم به، من معيته ونصرته. ثم بين لهم تبارك وتعالى شرط ذلك، بأن يلزموا ما أمرهم به عَزَّ في علاه، وأول ذلك إقامة الصلاة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ويفيد تقديم الصلاة على غيرها؛ والاستهلال والابتداء بها في بنود الميثاق الذي أُخذ عليهم، على أهميتها ومنزلتها من بين ما أُمِرُوا به، وكذلك يدل على وجود عبادة الصلاة الخاصة بهم لله تعالى. ثم ذكر عَزَّ وجل: أمر الزكاة ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي تعطونها لمن أُمرتُم بإعطائها لهم. ثم ذكر الإيمان بالرسل جميعاً ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: صدقتم بما أتاكم به رُسُلي من شرائع الدين ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم وأطعتموهم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أمر الإنفاق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: الإنفاق في سبيله سبحانه وتعالى، وذلك ابتغاء مرضاته، لأن الله تعالى ربط الإقراض به ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ فقد نسب

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/٦)

المولى سبحانه وتعالى الإقراض له: تعظيماً له ولفعله ولعظيم ثوابه، وبياناً أن تكون نية هذا الإقراض له سبحانه وتعالى، وخالصة لوجهه الكريم، وليس لغير ذلك. وأيضاً أن يتصف هذا الإقراض بالإحسان ﴿قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي: طيبة بها نفوسكم، خالصة لله تعالى، وهي صفة شاملة لكل ما يجب ولكل ما يستحب. فهذه أعمدة وركائز تحقيق معية الله تعالى ونصرته، وتوفيقه، وتسديده لهم، وللعبد، وللأمة وللمجموع، وللجماعة؛ إذا أقاموها وأدوها مع ما يجب من حققوها.

فإذا التزمتم بأداء هذه الأوامر يتحقق لكم من الله تعالى تكفير الذنوب، ودخول الجنة ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وتكفير السيئات: أي محو الذنوب وسترها، فلا يؤاخذكم بها. وكذلك يتحقق في الآخرة دخول الجنة التي من أوصافها: كثرة الأنهار التي تجري فيها. فيتحقق لهم في الآخرة غفران الذنوب ودخول الجنة، وأما في الدنيا فتتحقق لهم معيته سبحانه وتعالى فيما يقصدونه في الدنيا ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ﴾ وذلك بنصرته وتوفيقه وتسديده لهم.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى حال من خالف الميثاق ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فمن كفر بما واثق عليه الله تعالى؛ فإنه قد عدل عن الهدى إلى الضلال، وترك الطاعة وأخذ بالمعصية، فيكون قد خالف طريق الفلاح والنجاة والفوز بعد هذا البيان. وهذا يفيد أن النجاة والنصرة في الدنيا والآخرة تتحقق بلزوم مواثيق الله تعالى، وأنها المنجية في الدنيا والآخرة.

وتعطي دلالة كلمة ﴿ضَلَّ ﴾ من قوله تعالى ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ تدل على العدول عن الهداية بعد وضوحها، حتى تاه في ظلمات الكفر والمعصية، وكلمة ﴿سَوَآءَ ﴾ بمعنى: العدل الوسط، وهو الذي لا إفراط ولا تفريط فيه، مما يبين أن ما أمر الله تعالى به؛ هو الأمر العدل، الذي لا عوج فيه، ولا غلو ولا تهاون فيه، ولا تعجيز ولا صعوبة فيه. ودلالة كلمة ﴿ٱلسَّبِيلِ ﴾ بمعنى: الطريق. فيصبح من خالف ما أمر الله تعالى به؛ قد ترك الطريق العدل الذي لا عوج فيه، وسلك عنه طريق المتاهة الذي يحتار الإنسان في كيف الخروج منه، ولا توصله تلك المتاهة إلى خير، بل تصل به إلى الشر في الدنيا والآخرة، فيعيش في متاهة لا نهاية لها من الضلال، ثم في الآخرة إلى سوء المصير. وهذا تصوير بليغ في البيان والإيضاح.

ثم بين تبارك وتعالى ما حل بهم من العقوبة لَمَّا خالفوا الميثاق ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ فلعنهم الله تعالى بسبب نقضهم الميثاق، وهو الطرد والإبعاد عن الرحمة، فأبعدهم الله تعالى عن الحق، وطردهم عن الهدى[١] ومن الفوائد أن **(ما)** في كلمة ﴿ فَبِمَا ﴾ تفيد التوكيد، فهي مؤكدة للكلام، بمعنى تمكنه في النفس، من جهة حُسن النظم، ومن جهة تكثيره للتوكيد[٢] فيؤكد الله تبارك وتعالى تمعنهم في الكذب، وحرصهم على نقض الميثاق بالتعمد إلى درجة التحسين في نظم الكلام وتكثيره، بحيث يُوهِمُون غيرهم بأهمية ما افتروا عل الله تعالى من الكذب، مما يبين إصرارهم وتعمدهم نقض الميثاق، فكان الجزاء مناسباً لفعلهم. وهذا يفيد أهمية الحرص على طاعة الله تعالى، والحذر من مخالفة مراد الله تعالى، ومن تزيين المخالفة بأي وسيلة كانت، مع وجوب الخوف من عواقب المعصية، فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد والعصمة والعفو والعافية.

ومن عقوبة الله تعالى لهم، قوله عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ أي: انعدمت الليونة منها، فليس فيها ليونة تجعلها تقبل الموعظة، بل استحوذت عليها القسوة والغلظة والصلابة، فلا تعي خيراً، ولا تقبله، وبالتالي لا تفعله، وقال تعالى في وصفهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ أي: يتأولون كلام الله تعالى على غير تأويله ومراده. وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: جعل الله تعالى قلوب هؤلاء الذين نقضوا الميثاق من بني إسرائيل قاسية، منزوع الخير منها، مرفوع عنها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون بما جاءهم من عند الله تعالى، ونتيجة لنزع الله تعالى من قلوبهم التوفيق والإيمان يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام. فيبدلونه ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزل الله جَلَّ وعزَّ، ثم يقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى[٣] وهذا التحريف له ارتباط وثيق بقسوة القلب، إذ وصل بهم الحال من القسوة إلى درجة الافتراء والكذب على الله تعالى. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن تحريفهم لكلام الله تعالى: بيان لقسوة قلوبهم، لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه[٤] ففسدت

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٧٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٢٥١)

(٤) الزمخشري، الكشاف (١/٦٣٠)

أفهامهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراد الله سبحانه وتعالى[١]

وهذا يفيد أن البعد عن الله تعالى، وعدم الالتزام بمواثيقه عَزَّ وجل يُقَسِّي القلب، حتى يتجرأ على تحريف كلام الله تعالى ومراده الشرعي، فيؤله ويحرفه من الحق إلى الباطل، بزعم أن ما حرَّفه هو الحق والصواب، ويُكَذِّب كلام الله تعالى ويصده ويزوره، فيزداد بفعله هذا هلاكاً على هلاكه. مما يجب الحذر من مسلك بني إسرائيل فيما قصه وبينه سبحانه وتعالى، فإن بيانه تبارك وتعالى موعظة لنا وحجة علينا.

ومن صفات حالهم قوله تعالى ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي تركوا العمل به رغبة عنه، فتركوا عُرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل الله تعالى العمل إلا بها، فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة[٢]وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه؛ عقوبة منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يُوفَّقُوا للقيام بما أُمروا به[٣]

وفي هذا البيان موعظة وتحذيراً من سلوك مسلك هؤلاء الذين نقضوا الميثاق، فعاقبهم الله تعالى بما بين وأوضح تبارك وتعالى.

ومن الفوائد البيانية: أن النسيان هنا شمل دلالة الترك، ودلالة الضياع والفقدان، فالترك منهم، وفقدانه عقوبة من الله تعالى بسبب ما كان منهم من الترك المتعمد. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: النسيان هاهنا: الترك عن عمد. ومعنى الحظ: النصيب. وبالتالي فقد تركوا نصيبهم من الميثاق المأخوذ عليهم[٤] وسمى الله تعالى ما ذُكِّروا به حظاً لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية[٥] فقد تركوا ما أُوصوا وأُمروا به. وهذا يدل على أهمية المحافظة على عُرى الدين والتمسك بها، والاجتهاد في تحقيقها، والقيام بها على أكمل وجه، والخوف والحذر من عقاب الله تعالى. ومن الفوائد كذلك: أن النسيان قد يكون عقوبة.

ويبين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حال بني إسرائيل في المكر ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: خيانتهم لله تعالى ولعباده

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥/٢)

(٢) المرجع السابق (٣٥/٢)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٦٨/١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٢/٢)

(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٦٩/١)

المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم: كتمهم الحق عن من يعظهم ويُحسن فيهم الظن، وابقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة، وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم. فكل من لم يقم بما أمر الله تعالى به، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يُوفَّق للصواب، ونسيان حظا مما ذُكِّر به. وأنه لا بد أن يُبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية[١] وكلمة ﴿ خَآئِنَةٍ ﴾ بمعنى الخيانة، وهي تفيد المبالغة، مثل علَّامة ونسَّابة[٢]

فيخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم: بأنه لا تزال ترى منهم المكر والغدر، وهذا يفيد أن واقعهم اليوم هو واقع ما كان من أسلافهم التي بينها الله تعالى، مما يفيد توارثهم مسلك الخداع.

ثم من إنصاف الله تعالى وعدله أن استثنى منهم من لم يتصف بتلك الصفاة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ بما يفيد أن الكثرة هم أهل الانحراف، والقليل منهم على الطاعة. وهذا يؤكد منهجية العدل، وأهمية إقامته، حتى مع الأعداء. ثم من كريم تعامل الإسلام أن أمر الله تبارك وتعالى بالعفو والصفح عنهم ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا أمر من الله عَزَّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء الذين هَمُّوا أن يبسطوا أيديهم إليك من اليهود، فاعف عن هؤلاء واصفح عن جرمهم[٣] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف، وجَمْعٌ على الحق، ولعل الله يهديهم. ولهذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٤] لأن في الإحسان استحثاث للقلوب والعقول إلى التأمل والتفكر، والانقياد للحق والخير. فالإحسان في حق المخلوقين: بذل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ومنه العفو عن المسيء.

وفي ارتباط محبة الله تعالى للمحسن الذي مَدَّ إحسانه إلى من تعدى عليه بالأذى؛ ما يدل على نهج الإسلام في مقابلة الإساءة بالحسنة، والصبر على ذلك، وما يتطلب من مدافعة النفس في ذلك، فكيف بالإحسان على من لم يصدر منه أذى، وكيف بالإحسان لمن أحسن. فإنها منهجية تدل على عظمة هذا الدين، وعلى رحمة الله تعالى بعباده، وأن هداهم إلى هذا الدين القويم.

---

(١) المرجع السابق (٤٦٨/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٧/٦)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٥/٨)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥/٢)

والعفو قاعدة سلوكية جليلة، يتغذى بها المسلم في معالجة علاقاته، فإذا أساء إليه أحد تذكر قول الله تعالى ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وإن حدثته نفسه بإساءة لأحد، تذكر قوله تعالى ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وإن أحسن إليه أحد، تذكر محبة الله تعالى للمحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فيقابل ذلك بما يحبه الله تعالى ويرضاه من مكافأة المحسن بالإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ويعفو عَمَّن أساء إليه، وإن قَصَّرَ أحد في حقه، قابل ذلك بالإحسان إليه، لأن الله تعالى يحب المحسنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وإن رأى غيره على أضداد من ذلك وعظه بقوله تعالى ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ ﴾ وإن رأى منه ما يُضاد الإحسان نصحه ووعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فيجد المسلم أنها قاعدة سلوكية عظيمة، يترفع بها في درجات مكارم الأخلاق التي يحبها الله تعالى ويأمر بها.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

ومن عدل الله تعالى في بيانه وحكمه أن قال عَزَّ وجل ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ فخص بعضاً منهم دون بعض، فليس جميع اتباع المسيح كذلك، ولكن من ادعوا بما لم يعلموا ويعملوا من الحق، لأن ﴿وَمِنَ ﴾ تفيد التبعيض. قال الحسن: إنما قال ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ ولم يقل من النصارى، ليدل على أنهم ليسوا على منهاج النصارى حقيقة[1] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وفي قولهم ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ ولم يقل: من النصارى، دليل على أنهم ابتدعوا النصرانية وتسَمّوا بها[2] وهذه من دقة الإيضاح البياني في القرآن الكريم، ومن عدله في الحكم والبيان.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٣/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٦)

فتبين هذه الآية الكريمة حال وبهتان الذين ادَّعوا لأنفسهم أنهم نصارى ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ فَقِسْمٌ من الذين ادَّعوا أنهم نصارى، وأنهم مُتَابِعُون للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ليسوا كذلك، ذلك أن الله تعالى أخذ عليهم العهود والمواثيق ﴿ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ ﴾ بأن يتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وينصرونه ويؤازرونه، ويقتفون أثره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله تعالى إلى الأرض، ولكنهم خالفوا العهود والمواثيق مثل اليهود ﴿ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾[1] فنسوا كتاب الله تعالى بين أظهرهم. فألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء لنقضهم العهد والميثاق ﴿ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ وستبقى هذه العداوة بينهم إلى يوم القيامة، كجزاء لهم في الدنيا، فينشغلوا فيما بينهم بالتباغض والاغراء الذي يدفعهم إلى التناحر.

وتفيد دلالة لفظة ﴿ فَأَغۡرَيۡنَا ﴾ معنى: عملية التهييج، بأن ألصق الله تعالى بهم هذه الصفة عقوبة لهم، فتسلط بعضهم على بعض بالإغراء. وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: الإغراء تسليط بعضهم على بعض. وقيل الإغراء: التحريش. ﴿ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾ أي البغض. أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما، وعن السدي وقتادة: بعضهم لبعض عدو. وقيل أشار إلى افتراق النصارى خاصة لأنهم أقرب مذكور، أي كَفَّرَ بعضهم بعضا[2] وإن كان السياق يدل على أنه لأقرب مذكور وهم النصارى، فكذلك يصح ويستوعب اليهود، فيكون هذا الحال، هو حال كل من يسلك مسلكهم.

وأما في الآخرة، فقال الله تبارك وتعالى مهدداً لهم ﴿ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ فهذا تهديد ووعيد للنصارى على كذبهم، وما افتروه على الله تعالى من الصاحبة والولد، فتعالى الله عَمَّا قالوا علواً كبيرا. ففي هذا تذكير بما سيكون عليه الحال يوم تُوفَّى كل نفس ما كسبت، فحمل هذا البيان تهديداً ووعيداً لهم، وكذلك فيه بيان لواقع الحال يوم القيامة، حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الخطاب.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥/٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٦)

وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾

بدأت الآية الكريمة بنداء أهل الكتاب ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وفي هذا الأسلوب الخطابي شد الانتباه للمُنَادَى. كما أن في هذا الخطاب شُمُولية النداء، لليهود والنصارى، لأن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ اسم جنس. فناداهم الله تعالى بما انتسبوا إليه، وفي هذا بيان لهم بأن عليكم حجة من الله تعالى مما أنزل على أنبيائه: عيسى وموسى من التوراة والإنجيل. فلا يسعكم الخروج عَمَّا جاءكم في الكتاب، فأنتم أهل معرفة بما أُنزِل عليكم.

وقد جاء تسميتهم بأهل الكتاب لاعتبار ما نزل عليهم من التوراة والإنجيل، لا باعتبار اتِّبَاعِهم. والمقصود بهم من كان في عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم أتباع من سبقهم من أهل الملة. فخاطبهم تبارك وتعالى بأجمل الألقاب التي تُذَكِّرُهُم بواجبهم تجاه ما أُنزل فيهم من التوراة والإنجيل، وهذا النداء يلزمهم بما يعرفون من الحق الذي عندهم عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنه سبحانه وتعالى ناداهم بما يرون من أنهم ينتسبون للكتاب، لا بما هم عليه من مخالفتهم للكتاب، من إخفاء بعضه ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهذا النداء ليخبرهم سبحانه وتعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من أنكم أيضاً مقصودون برسالته ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ فبعد مناداتهم بما انتسبوا إليه، يقول لهم عَزَّ وجل ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ فأوضح وبين لهم تبارك أن الذي جاءكم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ ثم بين لهم مضمون الحجة النبوية ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ وهذه حجة عظيمة الدلالة وقوية البرهان، إذ يبين لكم هذا الرسول الأمي: الكثير مما تخفونه من الكتاب. فيكشف لهم سرائر ما أخفوا من مضمون كتبهم، والتي لا يعرف حقيقتها إلا الخواص من الأحبار والرهبان. وهذا يفيد قوة حجة وبرهان القرآن لهم ولغيرهم من غير ملتهم، إذ يكشف الله تعالى بهذا القرآن خفايا ما أخفوا، فيكون حجة وبرهاناً لنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يبين لهم سرائر ما أخفوا. فيكون هذا النداء حجة عليهم، ووعظاً لهم بالتي هي أحسن.

وتفيد دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ كشف عظيم ما أخفوه من حيث كثرته ومحتواه، وهذا الكثير الذي سوف يبينه لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو كل ما أخفيتم، بل كثير منه، مع ترك غيره مما أخفيتم، فيعفو الله تعالى عن بيانه وإظهاره ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وهذا دليل وحجة عليهم من أن هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين. فاتبعوه ولا تخالفوه.

فإن مما أخفوه هو ما يتعلق بالإيمان به صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم. وقصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، فإنهم كانوا يخفونها[١] وغير ذلك. ثم إن في هذا البيان لتلك الحقائق التي لا يعلمها إلا خواصهم دليل وحجة عليهم من أن هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والذي قد تضمنته كُتُبُهم التي نزلت على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام. وكذلك في هذا حجة على غيرهم من غير ملتهم، من أن الله تعالى كشف أسرار أهل الكتاب، مما أخفوا. مما يثبت به لهم نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى شأن أمرين عظيمين، الأول: شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ والثاني: شأن القرآن الكريم ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ فذكر الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم بصفة كل منهما. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: يعني بالنور محمداً صلى الله عليه وسلم، الذي أنار الله به لحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبين به الحق، ومن إنارته للحق بيانه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب. والأمر الثاني: هو القرآن الكريم ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم؛ من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٢]

ثم أوضح وبيَّن تبارك وتعالى مكنون ومحتوى القرآن الكريم، وما يُوصِل إليه هذا القرآن المبين. فقال جَلَّ جلاله ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ فيهتدي بهذا القرآن الكريم من آمن به، واتبع مضمونه الذي رضيه الله تعالى لعباده، ويرضى به عن من اتبعه، وبالتالي يصلون به إلى طريق السلامة؛ الذي يجنبهم العذاب

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٤/٨)

والشقاء. فيُسَلِّمَهُم من ذلك، فيخرجون به من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام وهديه ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فيرشدهم ويسددهم إلى الطريق المستقيم الذي هو دين الله تعالى ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الذي هو الإسلام، وسماه تبارك وتعالى ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لأنه لا عِوج فيه، فيصلون به إلى جنات النعيم.

ومن جليل الفوائد: أن الله تعالى نسب الهداية له ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ ﴾ بعد الأخذ بالأسباب من المخلوق، التي هي الإيمان والقبول بهذا الدين الذي جاء في كتاب الله تعالى ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ ﴾ ويتحقق لمن اتبعه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وهي الطرق المحققة للسلامة والنجاة، وكلمة ﴿سُبُلَ ﴾ تدل على الجمع، فإن السلام يتحقق بمجموعة تلك السُبُل، التي هي مجموعة شرائع الدين، مما يفيد أن النجاة في اتباع جميع أفراد ومفردات هذا الدين، فليس الأمر خاضع لاختيار بعضه وترك بعضه. قال السدي رحمه الله تعالى عن دلالة كلمة سُبُله: دينه الذي شرعه[1] والدين هو مجموعة من الشرائع المتكاملة: عقيدة وعبادة ومعاملات. وهي موصلة للسلامة.

ومن دقائق البيان هو ورود ﴿سُبُلَ ﴾ بصيغة الجمع، لتستوعب مجموعة شرائع الدين، بينما ورد ﴿ٱلسَّلَٰمِ ﴾ مفرداً لإفادة أنه واحد، ولا يناله إلا من اتبع سُبُلَهُ. وقد تتضمنت دلالة ﴿ٱلسَّلَٰمِ ﴾ السلامة والأمن والاستقامة، فيتحقق لمن أخذ بهذا الدين مضامين السلامة في الدنيا والآخرة.

ومن الفوائد أن الله تعالى نسب عملية إخراجهم من الظلمات إلى النور إليه ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ليعلم العبد أن الله تعالى هو المتصرف، ثم أكد ذلك بقوله تبارك وتعالى ﴿بِإِذْنِهِۦ ﴾ فلا يحدث في هذا الكون من تصريف وتصرف إلا بإذنه جَلَّ جلاله ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ وكذلك نسب سبحانه وتعالى تحقق النتيجة إليه؛ التي هي الهداية ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فهو الذي يهدي من اتبع رضوانه سُبُل السلام، ويهديه إلى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٥٥)

الصراط المستقيم. وفي نسبة الهداية إليه سبحانه وتعالى ما يؤكد ويبين أن الْمُلْكَ والتصرف له وحده سبحانه وتعالى.

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ
شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ
مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾
وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ
مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا
مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾

يبين الله تعالى كُفْرَ مَن قال من النصارى إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ولغيرهم ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ وهذا سؤال استفهامي تقريري، يتقرر به عجزهم وكذبهم وافترائهم. فعليكم أن تُبينوا إن كان هناك أحدٌ يستطيع أن يمنع قضاء الله وقدره إن أراد أن يُهلك عيسى ابن مريم وأمه، بل ومَن في الأرض جميعاً، بما فيه من ادعى ذلك بهتاناً وزورا. فهو سؤال تقريري بأنه لا يوجد من يمنع قضاء الله تعالى وإهلاكه لمن يريد، وأيضاً سؤال تحذيري، بأن يحذَرُوا هذا الاعتقاد، وكذلك سؤال تعجيزي وتنبيه، من أنه لا أحد يستطيع، وفيه كذلك حصر القوة والملك والتفويض له سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يستطيع أن يمنع إرادته، فإن إرادته عَزَّ وجل مطلقة، فيتأكد لهم بذلك أن قولهم افتراء محض.

وفي دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾ بيان عجز المخلوق عن أن يملك شيئاً لم يُمَكّنهُ اللهُ تعالى منه. فَمَنْ يملك من مُلْكِ الله شيئاً يستطيع أن يدفع ويمنع به ما يريد الله تعالى. فلا قدرة للمخلوق أن يمنع أو يُحَصِّن أو يتحصن عن مراد وقدر الله تعالى وقدرته. وبالتالي فإن المسيح عليه السلام لو كان هو الله لدفع عن نفسه وعن غيره ما ينزل به أو بغيره. فهو مخلوق عاجز عن ذلك. والخالق لا يعجزه

شيء، فسبحان الله عَمَّا يقولون علواً كبيرا. فلو أهلكه اللهُ تعالى، وأهلك أمه مريم، فمن يستطيع أن يمنع ذلك الهلاك.

ومن القوة البلاغية والإعجازية أن سياق الآية الكريمة جاء بأسلوب الاستفهام، الذي يشتد له الانتباه، فَيُبْطِل لهم ولغيرهم هذا الادعاء، مع استثارة الذهن للفكر والتفكر في فهم وحساب القدرة وامتناعها على أي من الخلق، وانحصارها في قدرته المطلقة تبارك وتعالى. مما يؤكد عظمة بلاغة القرآن الكريم في البيان الذي تقوم به الحجة والمحجة، وتندحر به الأكاذيب والأباطيل.

ثم بعد هذا التقرير الاستفهامي يأتي التقرير بملكية السماوات والأرض أنها لله تعالى وحده لا شريك له، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالذي يملك السماوات والأرض وما بينهما لا يمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق المتصرف، بل إنه كما قال تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي هذا بيان لقدرته المطلقة، بأنه سبحانه وتعالى يخلق ما يريد من الإنشاء والتكوين، من حال العدم إلى حال الوجود، فهو قادر على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي هذا تقرير القدرة مع عدم استحالة ما يريد، فلا يعجزه الإنشاء من العدم، لأن كل مخلوقاته بدأت من العدم إلى الوجود. وفي هذا اثبات القدرة المطلقة لله تعالى وحده لا شريك له، ومن ذلك أن خلق عيسى من أم بلا أب.

وقد جمع قوله عَزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ جميع الخلق بأكمله. وتضمنت دلالة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾ كمال التحكم، بدأ من الإيجاد والتكوين والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما حملت وما حوت، وما فوقها، وقد جمعت كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميع ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده، مما غاب عنه، فما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما لا يراه كالملائكة، وما يحسه الإنسان ولا يراه كالرياح والهواء، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، لقصور حواسهم عنه، وأما دلالة كلمة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، وما يخرج منها، وما يُستخرج منها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأكدت دلالة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما يراه الإنسان ومما لا يراه، ومما يحسه ولا يراه كالهواء.

ومن دقائق البيان: أن كل شيء ارتفع عن الأرض فقد سما، فهو داخل في السماء، إلا أن الله تعالى خص ما بين السماء والأرض بالذكر ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ للفت الانتباه بالتخصيص. فخص تلك الأجرام بالذكر لما فيها من عجائب قدرته، فقد استقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، كما ارتفعت عن الأرض فلم تعتمد عليها، كالسحاب، والكواكب، والشمس، والقمر، والهواء الحار، والهواء البارد. فإنها متعلقة بين السماء والأرض. فذلك عظمة في الخلق، وعظمة في التدبير والإبداع، وعظمة في أسلوب التعليم، فسبحان الله تعالى الذي سيرها بين السماء والأرض بقدرته، وعظيم إبداعه.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من افتراء طائفة من اليهود والنصارى، بقولهم على الله الكذب ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض من أهل الكتاب، فكلّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلَّمهم عليه الصلاة والسلام، ودعاهم إلى الله تعالى، وحذَّرَهم نقمته، فقالوا: ما تُخوفُنا يا محمد، نحن والله أبناءُ الله وأحباؤه[1] فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مُقروّن أنه مُعَذّبُكم، وذلك أن اليهود قالت: إن الله معذبنا أربعين يوماً، عدد الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يُخرجنا جميعاً منها[2] وبعد هذا السؤال يأتي التقرير عن حقيقتهم، فقال الله تعالى ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فإنكم مثل غيركم من الناس، فما زدتم عن بقية البشر بشيء، وأما ما يخص المغفرة ووقوع العذاب فعائد لمشيئته تبارك وتعالى ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فيغفر لمن شاء ممن جاء بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء ممن جاء بالأسباب الموجبة للعذاب.

ثم بين الله تبارك وتعالى سعة وعظمة ملكه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الاخرة، فيجازيكم بأعمالكم[3] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهو الذي يؤول ويرجع إليه أمر العباد في الآخرة، فمصيرهم عائد إليه. وجملة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تحمل الوعيد، والتهديد، وتحمل البيان النذير، من أن المصير إليه، وطالما أن المصير

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٩/٨)

(٢) المرجع السابق (٢٧١/٨)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٧٢/١)

إليه فإنه يلزم الإنسان طاعته والانقياد لأمره، خاصة وأن هذا البيان جاء ملتصقاً بعظمة ملك الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

ثم يتكرر النداء لأهل الكتاب من الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فيناديهم تبارك وتعالى بما انتسبوا إليه، وبما هو حجة عليهم، بالرغم من أنهم قد أخفوا منه الكثير كما سبق أن بينه الله تعالى من الآيات السابقات في هذه السورة. فخاطبهم جَلَّ جلاله بما يعيدهم للحق الذي تضمنه الكتاب، وبما يعزز لديهم الرجوع للحق. مما يفيد أهمية مخاطبة المخالف بلين الكلام، لعله يعود ويرجع عن المخالفة إلى الحق والصواب. فكيف بمخاطبة من ليس مخالفاً، فإنه أحق بطيب الخطاب وجمال الكلام. وهذا من لطفه ورحمته تبارك وتعالى، إذ يناديهم ويعلمهم، ويعظهم، ويحذرهم. ولكن أكثر الناس يلبسهم العناد والاستكبار والحسد.

ثم بعد هذا النداء من الله سبحانه وتعالى تأتي مخاطبتهم بالحقيقة التي يعرفونها ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ وهو نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ يوضح لكم أعلام الهدى، ويُرشِدُكُم إلى دين الله تعالى، بعد انقطاع وسكون من الرُسُل، فيبين لكم الحق والهدى الذي يرضاه ربكم لعباده. وقيل هذه الفترة خمسمائة وستون سنة، بين عيسى عليه السلام وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[1] وقيل غير ذلك.

فجاء هذا النبي الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا تقولوا ما جاءنا مبشر ولا منذر ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ فتنقطع حجتكم من عدم ارسال الرسول. قال ابن عباس: قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أن محمداً رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته، فقالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بعده من بشير ولا نذير، فنزلت الآية ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قدير على إرسال من شاء من خلقه، وقيل: قدير على إنجاز ما بَشَّر به، وأنذر منه[2] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها، أي: وأنا القادر على كل شيء، أقدر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني. فاتقوا عقابي على معصيتكم إياي، وتكذيبكم رسولي، فإني أنا الذي لا يعجزه شيء أراده، ولا يفوته شيء طلَبه[3] فقوله تعالى

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٢٧٤-٢٧٥)

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٨١)

(3) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٢٧٦)

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ شامل لكل شيء بلا استثناء، سواء كان فيما هو خاص بسياق الآية والموضوع أو غيره. فمبناها دال على كمال القدرة التامة الشاملة لله سبحانه وتعالى، فاستوعبت المخصوص العموم بكافته. فسبحان من أعجز بيانه عباده.

ومن الفوائد أن في قوله تعالى ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ احتراز من الحجج؛ بعد أن بدلوا وأخفوا وكذبوا على الله تعالى، فيحتج اللاحق بأخطاء السابق، وفي هذا بيان أن واقعهم قد امتلأ بالتحريف حتى أصبح اللاحق في أمس الحاجة إلى من يعيدهم إلى دين الله تعالى ومراده. ثم حفظ الله سبحانه وتعالى دين خاتم الأنبياء بحفظه، فحفظ كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة، فلم يسعهم إلا اتباع هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم. بل ولا يسع أحد من الثقلين إلا هذا الدين العظيم.

وفي قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ما يفيد أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم متضمنة للبشارة لمن أطاعه، والنذارة لمن عصاه. فقامت الحجة على كل أحد بهذه الرسالة العظيمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان موعظة موسى عليه الصلاة والسلام لقومه بما أنعم الله تعالى به عليهم من إنعامه وفضله جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي

هذا البيان تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بما يجده من اليهود، وفيه كذلك تذكير وبيان لحال أسلاف قوم موسى من التمرد عليه، وكذلك هو حال أتباعهم فإنهم يفعلون مع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمثل ما فعل أسلافهم بموسى عليه الصلاة والسلام، وفي هذا تحذير وتذكير وموعظة لهم، وكشف حقيقتهم للمؤمنين. كما أن في ذلك دروساً وعِبَر.

فابتدأ موسى عليه الصلاة والسلام قومه بالنداء ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ لِمَا في النداء من شد الانتباه، ولِمَا له من الدلالة على أهمية ما ناداهم إليه. وقد خاطبهم موسى عليه السلام بانتسابه إليهم ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وفي مناداتهم بنوع الصلة التي تربطهم به ما يبين الحرص والشفقة عليهم، وأنه جزء منهم، فيرجو لهم من الخير ما يرجو لنفسه، ويخاف عليهم من السوء ما يخافه على نفسه. مما يفيد لطف نبي الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام وحرصه على قومه، وعلى أداء الرسالة بأكمل ما تكون طاعة لله عَزَّ وجل، وهي صفة أنبياء الله تعالى ورُسُلِه عليهم الصلاة والسلام، مما يبين ويؤكد أهمية لطف الخطاب، ولطف النداء، وتحسس الألفاظ والعبارات ذات الأثر، وعدم التعالي على المخاطب، لأن في التعالي ما يدفع إلى النفرة والنفور عن الخطاب ومضمونه، بل وعن القائم به. فمراعاة الأحوال النفسية، والطبيعة البشرية لها أثرها، ولها مكانتها في منهج الله تعالى.

ثم ابتدأ تذكيره عليه الصلاة والسلام لهم بنعمة الله تعالى ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي شاملة جامعة لجميع النعم، وإن كانت دلالة ﴿نِعۡمَةَ﴾ مفردة؛ إلا أنها تعم الجميع، فهي تُقال للكثير والقليل، إلا أنها تفيد الجنس، فتكون أعم وأشمل لجميع النعم، لأنه يتعذر عَدَّها لكثرتها، وذكر النعمة يستوجب الشكر، والشكر يستوجب الامتثال للمنعم فيما يأمر وينهى، فكيف وهذا المنعم هو الخالق الذي تفضل عليهم بعظيم النعم ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ جاء في التفسير: أن الله تعالى امتن عليهم بأن جعل الأنبياء فيهم، مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم، لكثرة مَن بعثه من الأنبياء منهم[1] وهي نعمة من أجل النعم لعدة أوجه، منها الاختصاص، فخصكم بأنبياء منكم، وتكاثر الأنبياء عليكم، وهذا فضل من الله تعالى عظيم، وكذلك في إرسال الرُّسُل إليهم نعمة جليلة، وكون الرُّسُل للهداية الدينية والدنيوية؛ وموصلة لسعادة الآخرة، فهذه نعمة كبيرة أخرى، وأن من أطاع الرسول دخل الجنة، وهذا فوز عظيم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: كلما هَلَكَ نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده[2]

(1) الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٦)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٨)

ومن النعم التي ذكرها لهم ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي تملكون أمركم، لا يغلبكم عليه غالب، بعد أن كنتم مملوكين لفرعون، فأنقذكم الله تعالى منه بالغرق، فأنتم مُلوكاً بهذا الوجه. وقال السُّدي: مَلَكَ كل واحد منهم نفسه وأهله وماله[١] وكانت بنو إسرائيل تَعُدَّ الرجلَ منهم مَلِكاً إذا كان له بيت، وامرأة، وخادم. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه لرجل سأله: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. فقال: ألك مسكنٌ تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك[٢] وهذا يبين ما كانوا عليه من النعمة العظيمة التي منحهم الله تعالى. فمن دقائق البيان القرآني أن صفة الْمُلْك في سياق قوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ استوعبت جميع نِعم المعاش، ورغد العيش وكثرة التَّمَلُّك.

ومن فوائد السياق القرآني الكريم أن الله تعالى نسب ذلك الإنعام إليه، فهو الذي وفقهم لذلك، وهو الذي منحهم تلك النبوة، والمنزلة العظيمة، والمكانة الرفيعة، فإذا نسبها الإنسان لنفسه وجهده، معتقداً أن الأسباب التي اتخذها هي الفاعلة بذاتها فقد أخطأ خطأً فادحاً في حق الله تعالى، فإن الذي جعل الأنبياء فيهم هو الله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ وكذلك نسب الله تعالى تمليكهم، وتحقيق الملك فيهم له عَزَّ وجل ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ فهو الذي منحهم النعمة حتى أصبحوا بها بمنزلة الملوك. مما يفيد أهمية معرفة ذلك، وأن معرفتها والإيمان بها تربي في الإنسان شُكر المنعم بالطاعة والإذعان له، والتماس رضاه في كل الحياة والتصرفات. وكذلك أن ينسب المؤمن جميع النِّعَم للهِ تعالى، فيقول: أعطاني الله، ووفقني الله، وبتوفيق، وبفضل الله حصلت على كذا، ومثل ذلك.

وكذلك من فوائد دقة البيان هو فرق الاستخدام بين ﴿جَعَلَ فِيكُمْ﴾ وبين ﴿وَجَعَلَكُم﴾ فدخول حرف الجر **(في)** من كلمة ﴿فِيكُمْ﴾ تفيد الظرفية، أي لكم لا لغيركم. فالأنبياء في بني إسرائيل لبني إسرائيل، فكلمة جعل فيكم، أي منكم، ليس كلكم، إذ أنه لا يمكن أن يكونوا كلهم أنبياء، في حين أنه لو كانت (جعل منكم) لأفادت التبعيض والاتصال: أي هم منكم لكم ولغيركم. أي الأنبياء منكم لكم، وكذلك لغيركم. وهذه من دقة الدلالة البيانية في القرآن الكريم، فكان إعجازاً في دقة دلالته البيانية.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٢/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٨/٨-٢٧٩)

وكذلك هناك فرق آخر في كلمة ﴿ وَجَعَلَكُم ﴾ إذ تفيد (كم) الجميع، فجميعكم اتصف بحقيقة الملك، ومدلولها من سعة الامتلاك. وحرية التصرف فيما تملكون، فتملكون زمام أنفسكم، بعد أن كنتم في أيدي غيركم، فأنقذكم منهم. وهذه دقة متناهية، وعميقة في دلالة الوصف المقصود، بحيث لا يعتريها مفهوم غير المفهوم الحقيقي لمراد الله تعالى.

ثم بين عَزَّ وجل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام فيض خصوصية الإنعام ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فخصهم في ذلك الزمان بما لم يخص غيرهم به من جليل العطاء، فقيل عن العطاء الذي خصهم الله تعالى به هو: المن والسلوى، والغمام والحجر[١] وفلق البحر، وإغراق العدو وتظليل الغمام[٢] فكانوا لزمانهم مخصوصون بما خصهم الله تعالى به، وإلا فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير الأمم، وأفضل عند الله تعالى، وأكمل شريعة وأقوم منهجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة وأدوم عزاً[٣] قال تعالى في سورة آل عمران عن وصف هذه الأمة ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾

ثم أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي ادخلوا الأرض المطهرة المباركة، وقد قدِمُوا من بلاد مصر؛ حين أهلك الله عدوهم فرعون. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الأرض المقدسة: أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر، لإجماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالإخبار على ذلك[٤] وقيل هي بيت المقدس تحديداً. ومعنى ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي التي وعدكم الله بها. فاختار الله تعالى لهم الأرض المباركة المطهرة التي وعدهم بها، وهي بيت المقدس وما حوله. وهذا من جليل العطاء لهم من الله تبارك وتعالى، وقد كرر موسى النداء لهم بلفظ الانتماء ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ وهذا من مزيد التلطف في مخاطبتهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٢/٨)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٣٤/١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩/٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٦/٨)

وقد نهاهم موسى عليه الصلاة والسلام عن الارتداد عن ذلك ﴿ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فلا تنقلبوا عن طاعة الله تعالى إلى معصيته، فتعودوا بالخسارة. وكلمة ﴿ تَرْتَدُّواْ ﴾ تفيد النكوص بعد الإقدام، والرجوع بعد القبول، والانكفاف بعد المضي، لتعبر عن الوصف الذي يُحَذِّرهم وينهاهم عن مخالفة الواقع الذي دخلوا فيه، والْتَزَمُوا فيه بالطاعة ولزومها. كما أن التعبير عن الرجوع والانكفاف بلفظة الأدبار؛ ما يدل على الرجوع إلى الوراء بأسوأ حال ﴿ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾ ثم كانت دلالة ﴿ فَتَنقَلِبُواْ ﴾ بياناً لضخامة التَّغَيُّر المضاد للحالة التي كانوا عليها من الامتثال. وقد جاءت كلمة ﴿ خَٰسِرِينَ ﴾ عامة، لتشمل الخيبة والهلكة، ولتعم خسارة النفس، وخسارة طاعة الله تعالى، وخسارة الفوز في الدنيا والآخرة، وخسارة منافع الإقدام؛ وما يتبعه من النصر، وخسارة الارتداد. وهذا من عظيم البيان القرآني الكريم. وذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أنه: استوجب القوم الخسارة، بتركهم إذن ما فرض الله عليهم من وجهين: أحدهما: تضييع فرض الجهاد، الذي فرضه الله عليهم. والثاني: مخالفتهم أمر الله تعالى في تركهم دخول الأرض[١]

فذكر قوم موسى لموسى عليه الصلاة والسلام صفة هؤلاء القوم الذين أُمروا أن يدخلوا أرضهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ وكلمة ﴿ جَبَّارِينَ ﴾ تعني أنهم اتصفوا بصفة القوة والتعاظم والإجبار، وذلك بإكراه غيرهم على ما يريدون، والجبَّار من الناس هو العاتي، والمتعاظم في نفسه، والممتنع على غيره. فنظروا للأسباب والموانع، ولم ينظروا لمن بيده الأسباب سبحانه وتعالى، فقالوا ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ فاشترطوا لدخولها خروج هؤلاء الجبارين. وهذا من باب تقديم العقل والأسباب على الشرع، مما يدل على ضعف اليقين، فالمؤمن يجب عليه تقديم الأمر الشرعي على الأسباب العقلية، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام قَدَّمَ الأمر الشرعي على العقلي والعاطفي في أصعب المواقف، عندما أمره الله تعالى بذبح ابنه إسماعيل، فامتثل، وامتثل كذلك إسماعيل عليه الصلاة والسلام، بل إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تولى هذا الأمر العصيب بنفسه. ولم يمتنع بعلة عاطفة الأبوة. ففداه الله بكبش لَمَّا تَلَّ إبراهيمُ ابنه إسماعيل ليذبحه. مما يدل على أن الإنسان قد يبتلى بأمر، فعليه أن يلتزم شريعة الله تعالى فيه.

فالعلم اليقيني بأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء هو القوة التي يتقوى بها المؤمن، وكذلك أن الله تعالى له جنود السماوات والأرض، فالرعب جند من جند الله تعالى، وكذلك انحراف البصر وتَغَيُّر حقيقة الرؤية البصرية هي جند من جنود الله تعالى، فقد يجعل الله تعالى رؤية العدو للمؤمن على غير

---

(١) المرجع السابق (٢٨٨/٨)

حقيقتها، فيرى فيه الكثرة والقوة والسطوة، فتُخَارُ قُواه. فسبحان من يعز من يشاء، ويذل من يشاء بحكمته وقدرته.

ثم جاء رجلان من أهل اليقين والإيمان الصادق؛ ناصحين بني اسرائيل ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فبينت الآية الكريمة أهمية النصيحة، التي تولاها الرجلان، وكذلك بينت الآية الكريمة صفة الرجلين، فأولها ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي: يخافون بطش قومهم الجبارين إن علموا بإيمانهم. وقال بعض علماء التفسير: أي يخافون الله تعالى[1] أي أنهما من بني إسرائيل، ولكنهما على خلاف قومهم، فإنهم يخافون الله تعالى. وقدَّمَا خوفهما من الله تعالى على خوفهم من مواجهة العدو. ولا يمنع أنه اجتمعت فيهما الخوف من الله تعالى فأطاعوه، وكذلك الخوف من بطش قومهم الجبارين إن علموا بإيمانهم، وهذه من غزارة سياق موقع ﴿ يَخَافُونَ ﴾ من الآية الكريمة، فعطاء الدلالتين والمعنيين يدلان على عمق البيان القرآني في استيفاء المراد بأقل الألفاظ بياناً، وأغزرها دلالة وتوضيحاً.

فلما تراجع بنو إسرائيل عن طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام؛ حَرَّضهم هذان الرجلان اللذان عليهما من الله نعمة عظيمة، وهي الصفة الثانية من صفة الرجلين ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ وهذه النعمة هي الإسلام، وقيل: هي الصلاح والفضل واليقين، وقيل: الهدى، وقيل: الخوف[2] ولا يمنع أن تكون جميعها، لأن دلالة جملة ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ جاءت شاملة عامة، ومستوفية لجميع نِعَم الله تعالى، فاستوعبت بذلك دلالات الإنعام كلها، وهذا من غزارة البيان القرآني الكريم، الذي تستوفي اللفظة فيه كامل المراد المقصود بيانه.

وللمزيد من فائدة هذه الدلالة: أن هناك خائفاً، وهناك مَخُوف منه، فالخائف متعلق بخوف الرجلين من الله تعالى، ومن الجبارين، ويتعلق بخوف بني إسرائيل من القوم الجبارين، والْمَخُوف منه متعلق بالخوف من الله تعالى، وأيضاً متعلق بالقوم الجبارين. وبالتالي اجتمعت خمس دلالات من الخوف. الأولى: خوف الرجلين من الله تعالى. والثاني: خوف الرجلين من قومهما. والثالث: خوف بني إسرائيل من القوم الجبارين، والرابع: الخوف من عقاب الله تعالى، والخامس: صفة القوم الجبارين، أنهم ممن يُخَاف منهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٦٠)

ومن فوائد أوجه الدلالات: في حال قراءة كلمة ﴿يَخَافُونَ﴾ بالضم، أي بضم الياء؛ أنه يجوز أنهما من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون، وهما رجلان منهم ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ قد أنعم الله تعالى عليهما بالإيمان فآمنا، فقال الرجلان لقوم موسى: إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها، فلا تخافوهم وازحفوا عليهم، فإنكم غالبوهم(١) وسواء كانت على هذا المعنى، أو المعنى السابق، فإنه ليس ثمة ما يمنع من اجتماع الدلالتين فيها، بأنه لَمَّا أنعم اللهُ عليهما بالإيمان؛ أصبحا يخافا الله تبارك وتعالى، ويخافا من قومهم الجبارين الذين يخافهم بنو إسرائيل، لتستوعب دلالة الوجهين، وهذه من الغزارة البيانية البلاغية للقرآن الكريم.

فنصحا هذان الرجلان بني إسرائيل بما هم موقنون به من الغلبة والانتصار على القوم الجبارين، فنصحوهم بدخول باب بلدة الجبارين ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مما يدل على قوة إيمانهم، وصلاحهم، وفضلهم، ويقينهم بنصر الله تعالى، كما يدل ذلك على هدايتهم في أنفسهم، وهدايتهم لغيرهم بالنصح، وخوفهم من معصيتهم لله تعالى، وهذا يتناسب مع عموم دلالة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ من الإيمان والهداية واليقين، والمعرفة بسنن الله تعالى. فنصحوا بني اسرائيل بالدخول على الجبارين، وتغليب اليقين بالنتيجة من أنهم سيغلبون القوم الجبارين وينتصرون عليهم. فهذه المنهجية الإيمانية التي يلزم أن يكون عليها بنوا إسرائيل حتى يغلبوا القوم الجبارين، وهي كذلك منهجية لازمة لكل مؤمن في أن يكون كذلك.

وفي قولهم ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ ما يدل على نعمة اليقين، بأن مضمون طاعة الله تعالى فيما أمرهم به على لسان رسوله موسى عليه الصلاة والسلام تحقيق النصر والظفر بالجبارين. وأن من لوازم ذلك التوكل على الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وفي قولهم هذا، ما يفيد أن من ثمار قوة الإيمان، وعلاماته ودلالته هو التوكل على الله تعالى، التي تُوجِب الإقدام على مواجهة الجبارين بطاعة الله تعالى. وهذا يفيد أن العلاقة بين التوكل والإيمان هي علاقة ثمرة ونتيجة، فكلما قوي الإيمان زاد التوكل على الله تعالى، وقوي القلب، وزادت الشجاعة القلبية التي يواجه بها المؤمن الموانع والفواجع والمواجع والخوف. كما يفيد هذا أن الإيمان شرط لحصول التوكل، وأن من فقد أو ضعف إيمانه ضعف توكله، وبالتالي فإن التوكل من علامات الإيمان.

وقال الزمخشري رحمه الله تعالى عن كيف علم الرجلان أنهم غالبون: أنه من جهة اخبار موسى بذلك ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقيل من جهة غلبة الظن، وما تبينا من عادة الله في نصرة رُسُلِهِ، وما عهدا من

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٣٤/١)

صُنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة.[1] فهي دلالات متظافرة ومتوافقة، ولا تعارض فيها. مما يبين قوة رحابة السياق الكريم.

وفي قولهم ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ ﴾ أي: باب قرية الجبارين. فإذا دخلتم عليهم سوف يتحقق لكم الغلبة والنصر والظفر بهم ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ﴾ وفي هذا ما يدل على التوكل، والأخذ بالأسباب، والجزم والتجاسر على ملاقاة العدو، وأنه بمجرد الدخول ستحصل الهزيمة لهم، بما يؤكد أيضاً سرعة الغلبة، فمجرد الأخذ بالأسباب، سيتحقق النصر. مما يفيد أن المؤمن يُحسن الظن بالله تعالى، وهو سائر في مرضاته عَزَّ وجل.

ثم بين الله تعالى رد بني إسرائيل على نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، وأسلوب ردهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فابتدر بنو إسرائيل خطابهم لنبيهم بالنداء المجرد ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ للفت الانتباه، وشده نحو بيانهم، وامتناعهم، ولم يتأدبوا في الخطاب، بأن قالوا يا نبي الله، بل بالاسم المجرد. ثم أعلنوا امتناعهم القطعي ﴿ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ أي: لن ندخل هذه الأرض المقدسة قطعاً مُؤَكَّداً ﴿ أَبَدٗا ﴾ فنفوا دخولهم في المستقبل على وجه التأكيد، طالما هؤلاء الجبارين فيها ﴿ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ وفي هذا استثناء حالة خروج الجبارين منها بدون قتال منهم، مما يبين استحالة استجابتهم لنبيهم موسى عليه السلام.

ثم أكدوا امتناعهم عن المقاتلة ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فأكدوا الامتناع من وجهين، الأول: القاء مسؤولية المقاتلة على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى الله تبارك وتعالى ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ ﴾ وهذه جرأة على الله تعالى، وعلى كليمه موسى عليه السلام، وهو من قبيح الرد، إذ امتنعوا عن طاعة الله تبارك وتعالى وطاعة نبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، فنكسوا عن الجهاد بالامتناع عنه. والوجه الثاني هو: تأكيد الامتناع بقولهم ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ ففي ذلك حُكم تأكيدي بأنهم لن يبرحوا هذا المكان، ولن يغادره مع رسولهم لدخول هذه القرية. ومن سوء أدبهم أن خاطبوا رسول الله بما يفيد ترفعهم وتعاليهم عن ربوبية لله تعالى لهم؛ وإثباتها وحصرها لموسى عليه السلام ﴿ فَٱذۡهَبۡ

(١) المرجع السابق (٦٣٥/١)

أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ فكأنه رَبُّ موسى فقط. إذ لم يقولوا: اذهب أنت وربنا فقاتلا. مما يفيد قوة التعنت والتَّجَبُّر.

ولَمَّا رأى موسى عليه الصلاة والسلام عناد قومه، ومخالفتهم له بالتمرد على طاعته، شكى ورفع الأمر إلى الله تبارك وتعالى، متضرعا له عَزَّ في علاه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ فبدأ بنداء المستغيث الشاكي، الذي يبث إلى ربه سبحانه وتعالى حُزنه وألمه وشكواه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي ﴾ فهي شكوى وحسرة، إذ لم تعد هناك سلطة مقبولة من قومه له، وانتفى زمام الطاعة منهم، وانحصر زمام الأمر والطاعة في نفسه وأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام، فلم تعد هناك قوة من الأسباب تسانده لينصر بها دين الله تعالى إلا قوة الله عَزَّ وجل.

ثم بعد بيان واقع الحال، جاء الطلب والسؤال من موسى عليه السلام ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ وهذا سؤال دعاء يفيد الطلب، ويفيد الحكم والفصل في أمر معصية قومه له بما يستحقون، وفيه كذلك الدعاء عليهم بما يستحقون إزاء معصيتهم لأمر الله تعالى، ولأمر رسوله عليه السلام، ولذلك سماهم بالقوم الفاسقين ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ وكلمة ﴿ فَٱفۡرُقۡ ﴾ تفيد طلب الفصل والحكم، قال الإمام الزمخشري: بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم، ولذلك وصل به قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ على وجه التسبيب، أو فباعد بيننا وبينهم، وخلصنا من صحبتهم[1] ومن دقائق الفوائد: أنه كان يقول لهم موسى عليه الصلاة والسلام متلطفاً حين يدعوهم للاستجابة لله تعالى: يا قومي ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ﴾ فلما فسقوا استبعد نفسه منهم، ومما كان يجمعه بهم، فسماهم قوماً، بعد أن كان يقول لهم ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ وأضاف لهم الفسق بما يستحقون من الوصف ﴿ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ ليتبين أن الانتماء ينتهي بانتهاء وحدة الدين، كما قال الله تعالى في سورة هود لنوح عليه الصلاة والسلام في أمر علاقته بابنه بعد أن نأى بنفسه عن دين الله تعالى ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾

---

(١) المرجع السابق (٦٣٦/١)

ثم حكم الله تعالى عليهم بما يستحقون ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فاستجاب الله تعالى لرسوله موسى عليه الصلاة والسلام، بأن حكم عليهم بتحريم دخول بيت المقدس ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فلن يتمكنوا من دخولها مدة أربعين سنة، وهم يتيهون في الأرض، فلا يهتدون فيها إلى مخرج، لأن جملة ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ تفيد عدم الاهتداء فيها إلى طريق ومسلك يسلكونه للخروج، والوصول لبغيتهم ومرادهم، فالأرض التيه؛ هي: المفازة التي يتحير فيها من كان فيها، فيكون سيره على غير هدى، فإذا سار انتهى به مسيره إلى غير غاية ومنتهى. فبين الله تعالى أنهم ماكثون فيها أربعين سنة ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وقد جاء في التفسير: فوقعوا في التيه، يسيرون دائماً؛ لا يهتدون للخروج منه. وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء، تحمل معهم على دابة. فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً، تجري لكل شِعْبٍ عين. وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله تعالى بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، وشُرعت لهم الأحكام(١)

وقد أيد الله تعالى دعاء موسى عليه الصلاة والسلام بتسميتهم بالقوم الفاسقين ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وكذلك فيها تسلية لموسى عليه السلام، بأن لا يأسف ولا يحزن عليهم فيما حصل منهم، وفيما حكم عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكوصهم ونكولهم عن الطاعة فيما أُمروا به من الجهاد، بالرغم مما شاهدوه من فعل الله تعالى بعدوهم فرعون من العذاب، ومن النكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون. ومع هذا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه. فسماهم الله ورسوله موسى بالقوم الفاسقين(٢) والفسق هو الخروج عن حِجْرِ الشرع، وذلك من قولهم فَسَقَ الرُّطَبُ إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل وبالكثير من الذنوب، وأكثر ما يُقال: لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به ثم أخل بجميع احكامه أو ببعضه(٣)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١-٤٢)

(٢) المرجع السابق (٢/٤٣)

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٨٠)

وقد أمر الله تعالى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بأن لا يحزن عليهم، ولا يأسف لنكوصهم، فمثلهم لا يستحقون منك الحزن عليهم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مما يفيد المسلم في تعامله الدعوي والتربوي والإرشادي، أن يبذل الوسع والجهد، فإن لم يتحقق فلا يبتئس ولا يحزن ولا يأسف، بل يمضي قدماً نحو مبتغاه وأهدافه. وألا يستوقفه ذلك، لأن الحزن والأسف عاملان محبطان للإرادة. فالمطلوب من المؤمن الأخذ بالأسباب، والتوفيق بيد الله تعالى.

ومن الفوائد أن في تسميتهم بالقوم الفاسقين بيان لما تحمله صفة الفسق من الخروج عن حجر الشرع، وهو أعم من الكفر. والفسق يقع بالقليل وبالكثير من الذنوب. ولكن تُعُورِف فيما كان كثيراً، وأكثر ما يُقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخلَّ بجميع أحكامه، أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق، فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة[1] وبالتالي فإن صفة الفسق في حقهم من جهة التزامهم وإقرارهم بالشرع، وإخلالهم به عِنوة، ومعاندتهم لله تعالى ولرسوله. فهم خارجين عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وعني بقوله﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان بالله وبه إلى الكفر بالله وبه[2]

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

انتقل السياق القرآني الكريم إلى ذكر قصة هابيل وقابيل، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها، التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود، كظلم ابن آدم لأخيه. والمعنى: إن همَّ هؤلاء بالفتك بك يا محمد؛ فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل[3] وبالتالي لا تبتئس، فقد جرى قبل ذلك مثله. مما يفيد أن للتذكير بالأحداث وتشابهها تخفيف عن النفس، واستجماع خبرة، ودروس ومواعظ، يتقوى به الفكر، وتتقوى بها العزيمة.

---

(١) المرجع السابق (٣٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٦/٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٨/٦)

وابتدأت الآية الكريمة بأمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتلو قصة ابني آدم على هؤلاء اليهود الذين همُّوا أن يبسطوا أيديهم إليكم. اتلو عليهم عاقبة الظلم والمكر الذي تمثل في قتل قابيل لأخيه هابيل ظلماً وحسداً. والذي قصه الله تعالى بالحق الواضح الجلي. وفي هذا تنويه وتحذير من مغبة الحسد والبطر والغدر والشر، وفيه كذلك أهمية أخذ العبرة من الأحداث، ففيها دروس وعبر من الله تعالى لعباده، وأنها تمثل الواقع المؤثر، والعبرة الناطقة، التي تُوجب الاستقامة.

وقد وصف الله تعالى خبر ابني آدم بصفة: الحق ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ وهو الواضح الجلي؛ الذي لا لبس فيه، ولا وهم، ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة، فهو الحق تماماً وكمالاً ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا ﴾ والقربان: اسم ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، من نسيكة، أو صدقة. فكل من قابيل وهابيل تقربا إلى الله تعالى بصدقة. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ ﴾ فتقبل الله تعالى قربة أحدهم، وهو هابيل، ولم يتقبل الله تعالى ما قربه قابيل. جاء في التفسير أنه لم يتقبل من قابيل لأنه قدم شرَّ ماله، وقدم هابيل خَيرَ ماله(١) وهذا يدل على أهمية العناية بما يتقرب العبد به لله تعالى، وأن يجتهد في القربة إلى الله تعالى بأحسن الموجود وأجوده. كما يفيد أن الصدقة لله تعالى قد لا تُقبل إذا شابها مانع من الموانع. لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما دار بين الأخوين من خطاب وحوار، وهما ابني آدم عليه السلام: قابيل وهابيل. فالذي لم تُقْبَل صدقته أو قربانه توعد أخاه الآخر بالقتل ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ ﴾ وهنا ملحظ بياني عظيم، إذا استغنى السياق عن ذكر القائل ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ ﴾ وكذلك الْمَقُول له، اكتفاء بدلالة الحدث عن إعادة التفصيل، وهذه بلاغة بيانية عظيمة من الاستغناء عن مزيد الألفاظ والعبارات التي لا طائل من التفصيل والبيان فيها، وكذلك هو بيان بلاغي من حيث تركيب السياق، الذي دل على المراد بالاستغناء عن مزيد الألفاظ، فكان إعجازاً بيانياً.

فرد أخوه عليه بعلة وسبب قبول الله تعالى لقربانه ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فبين له أن قاعدة القبول هي من المتقين، ومما يفيد أن غير المتقين لا يقبل اللهُ تعالى منهم. وكذلك تفيد دلالتها أن علة وسبب القتل منك لي منتفية، إذ لم يكن مني لك شيء يستوجب ذلك، لأنه من المتقين في تعامله مع أخيه، وأن علة عدم قبول قربانك من نفسك، لانتفاء التقوى، فكن من المتقين. في حين أن الله تعالى تقبل ما تقربت

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٧/٨)

به إليه لوجود التقوى، فكأنه يقول: فلما تقتلني بغير حق. فلست بالذي منع عنك قبول ما تقربت به. فالذي منعها عنك هو عملك؛ الذي انتفت فيه التقوى منك. فأنت سبب جنايتك وحظك.

وهذا دليل على توفيق الله تعالى لهابيل، بأن خاطب أخاه بالحق المتصل بالتقوى. مما يفيد أهمية الرد في الحوار بما يعيد الآخر إلى صوابه، كما يفيد العلاقة الوطيدة بين قبول الصدقة وبين التقوى، وأنها سبب لقبول الصدقة من الله تعالى، لأن التقوى تشمل الخوف من الله تعالى مع الطمع في رضاه، فتدفع المتقي إلى الإحسان في الصدقة، من حيث النوع والمقدار والعلة، وغير ذلك من أوجه الكمال. كما أن في هذا ما يوضح أن أخاه لم تكن فيه التقوى التي تجعله يُقَدِّم الكمال مما تقرب به إلى الله تعالى، مما يؤكد أن انتفاء أو نقص التقوى يؤدي إلى انتفاء الكمال أو نقصه، بحسب ما يختلج في القلب من التقوى. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن المتقين: الذين اتقوا الله، وخافوه بأداء ما كلفهم من فرائضه، واجتناب ما نهاهم عنه من معاصيه. وقد قال جماعة من أهل التأويل: المتقون في هذا الموضع الذين اتقوا الشرك[١] وقال الإمام القرطبي نقلاً عن ابن عطية رحمهما الله تعالى: المراد بالتقوى هنا: اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تَصْدُق فيها نيته مقبولة، وأما المتقي الشرك والمعاصي فله الدرجات العليا من القبول والختم بالرحمة[٢]

ومن جمال الأسلوب البياني الاكتفاء بقول الذي تقبل الله منه قربانه؛ دونما التنويه عنه، اكتفاء بدلالة النص ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فعرف القارئ للآية أن هذا القول هو للذي تقبل الله منه قربانه، وعرف كذلك علة القبول، وعلة عدم القبول بسياق مستغني عما زاد من الكلام، وهذا إعجاز بياني، يستدعي تذوق جمال كلام علام الغيوب. فمن البيان البلاغي الاستغناء عن زوائد الكلام ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فلم يسم الذي قال ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ إذ جعل تحديده مستوضحاً من السياق دون تسميته، وهو الذي لم تُقبل صدقته أو قربانه. وهذا من دقة البيان البلاغي للقرآن الكريم، إذ استوفى النص كمال المفهوم بإيجاز بلاغي مبين.

ثم يستمر هابيل الذي تقبل الله منه قربانه في البيان والإيضاح لموقفه مما عزم عليه أخوه قابيل ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ فلئن قصدت قتلي، فلن أقابله بمثل قصدك. وهنا تظهر دوافع الحسد، مع الافتقار للتقوى، وكذلك أثر دوافع وموانع التقوى في السلوك، وضبطها وحجبها لصاحبها من اغتراف ما لا يجوز. مما يبين أن افتقار الإنسان للتقوى مع وجود الحسد أو غيره يدفع الإنسان لعمل

---

(١) المرجع السابق (٣٢٧/٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٩/٦)

ما بدا له، دون اكتراث للعواقب. بينما التقوى تضبط سلوك صاحبها، وتمنعه من هوى النفس إذا جال في الخاطر ما يدفع لعمل السوء، بدليل تعليل هابيل لأخيه قابيل؛ من أن امتناعه من المعاملة بالمثل هو خوفه من الله تعالى ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالخوف من الله تعالى نتيجة التقوى، وثمرة من ثمارها، فجعله صابراً محتسباً أمام إرادة أخيه، فامتنع عن مبادرته ومسابقته بالقتل قبل أن يقتله.

وفي قوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيان لما هو عليه من التقوى، وكذلك فيه تحذير ونصح لأخيه، بأن يخاف الله تعالى فيه، كما هو خائف من الله تعالى في بسط يده لقتله. حيث أردف هذا بقوله ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فبين له المزيد من موانع المماثلة في إرادة القتل ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي: تتحمل إثم قتلي، وإثم معصيتك لله تعالى. فقتل النفس إثم، ومعصية الله بفعل ما حَرَّم الله تعالى إثم آخر. فأمامه إثمين: الأول: ﴿تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾ وهو إثم مقتله. والثاني: ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ فشملت المعصية الثانية: معصيته لله تعالى، وغيرها من الآثام. وهذه من غزارة الدلالة المستوعبة لذلك. ورجح الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي، والثانية: إثمه بغير قتله، وذلك معصيته لله جَلَّ ثناؤه في أعمال سواه. وإنما قلنا ذلك لإجماع أهل التأويل عليه[1] قال القرطبي: قال أكثر العلماء: إن المعنى: ترجع بإثم قتلي؛ وإثمك الذي عملته قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة أكثر المفسرين[2]

ومن دقة إمعان أهل العلم في دلالة النص عن قوله تعالى ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنه سُئل أبو الحسن بن كَيسان: كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه، وأن يدخل النار؟ فقال: إنما وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل[3] ويمكن القول أنه أراد أن يحذره بأسلوب المقارنة المفضية إلى النتيجة الخاسرة، فإن كنت تريد قتلي، فلا أريد قتلك، لأن قتلك لي يجعلك تبوء بالإثم. فإن أردتَ ذلك، فلا أريد أن أبوء بالإثم والظلم، فأكون من أصحاب النار، والذي سيكون مصيرك إن فعلت. هذا والله تعالى أعلم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣٢/٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩١/٦)

(٣) المرجع السابق (٩١/٦)

ثم بين النتيجة لهذا الإثم ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ فصاحب هذا العمل مصيره مصاحبة النار. وكلمة ﴿ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ تدل على الملازمة، فتكون من سكان النار وأهلها المصاحبين لها بالخلود ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ فهذا جزاء كل ظالم، وأن القتل بغياً هو من الظلم، وأن صاحبه ظالم لغيره، وظالم لنفسه بمعصيته لله تعالى، والجرأة على حدوده.

وهذا يدل على أهمية الموعظة، وأن الموعُوظ قد يمتثل ويتأثر، وقد لا يبالي، فيكابر. وهذا يبين إشفاقه على أخيه من أن يبوء بالإثم، فيكون من أصحاب النار.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يبين تبارك وتعالى في هذا السياق ما حصل من اعتداء أخيه عليه، عندما لم يتعظ بما وعظه به من جزاء القتل إن قتله، وأن موقفه هو عدم المعاملة بالمثل من المسابقة إلى قتله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فبينت الآية الكريمة العلاقة بينه وبين نفسه في تنفيذ أمره، من عملية المطاوعة والملاينة لإرادته، فشجعته نفسه وزينت له شره وهواه. قال الزمخشري رحمه الله عن دلالة ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾: فوسَّعَتْهُ له، ويَسَّرَتهُ[1] فسولت وسهلت نفسه عليه الأمر؛ وشجعته، وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل له[2] وقد جاء في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من شر النفس (أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان الرجيم)[3] لما للنفس من الشر وإرادته، وفعله، فوجب الاستعاذة

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٣٩/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩١/٦)

(٣) أبو داود، السنن (١٩٥/٥) برقم (٥٠٦٧)

من شرها، والعمل بما يمنعها من ذلك، وهو لزوم التقوى التي تتحقق بعد توفيق الله عَزَّ وجل بالإيمان وعمل الصالحات.

ثم بينت الآية الكريمة واقع حاله بعد أن قتل أخيه ﴿ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ فحصلت له خسارة الدنيا والآخرة. وتبين كلمة ﴿ فَأَصۡبَحَ ﴾ أنه كان من قبل ذلك في سعة من أمره، وبعد أن قتل أخيه أصبح من ضمن الخاسرين، الذين خسروا الدنيا والآخرة. فليس هو وحده بل هناك خاسرين آخرين، فكان هو ضمن هؤلاء. مما يستثير وجدان المؤمن نحو الحذر من الأفعال التي تجر خسارة الدنيا والآخرة.

ثم بين الحق تبارك وتعالى ما حصل له من حيرة في شأن جثة أخيه، فماذا هو صانع بها، ولكن الله تعالى رحيم وعظيم في تدبيره وتعليمه ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾ فمن رحمة الله تعالى أن بعث طائر الغراب ينبش الأرض بمنقاره ورجليه، ليدفن غراباً ميتاً، حتى يتعلم منه كيف ينبش الأرض ليواري ﴿ سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾ أي: جيفة أخيه، أو عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من الجسد، وذلك بدفنه في الأرض. والسوءة: الفضيحة لقبحها. وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى أن السوءة هنا: ذاته كلها لكونها ميتة[1] ويبين جهله بدفن أخيه أنه أول مقتول من بني آدم، فلم تسبق له المعرفة بدفن الميت في التراب.

وأمام هذا الموقف من فعل الغراب، نطق القاتل بكلمة التحسر ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ التي تفيد التحسر والتَّحَزُّن، وهو الشعور بالهول، والشعور بقلة الفهم أمام الغراب، حيث شعر بعجز علمه وفهمه، وقصور إدراكه أمام جثة أخيه، ليتعلم من هذا الطائر الصغير كيف يواري جثة أخيه ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾ وهذا يفيد خطورة الحسد، وقصور الفهم، وأن العلم يؤتيه الله تعالى من يشاء، وكذلك أهمية التواضع في العلم، فقد تتعلم ممن هو أقل منك علماً، فإن العلم لله تعالى، يؤتيه من يشاء من عباده وخلقه. وهنا حصلت الندامة التي كانت نتيجة الحسرة ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ وهذا يفيد أن عاقبة المعصية خسارة وندامة وحسرة. نسأل الله تعالى العافية بفضله وتوفيقه وهدايته.

وهذا الموقف يفيد حصول الندم ساعة لا ينفع الندم، وأن واجب الإنسان أن يفكر في العواقب، ويسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن الشعور بعجز الفهم، وعجز الإرادة الصالحة عندما يراها أمامه فيمن هو

(1) الشوكاني، فتح القدير (٣٢/٢)

دونه وأقل منه ترسم في قلبه حسرة وندامة، فيرى غيره أقدر منه في الفهم والإرادة مع ما كان لديه من نعمة الفكر والقدرة، إذ كانت قدرته على التفكير حاضرة لديه، وقدرته على الامتناع عن قتل أخيه بين يديه، وقدرة الاهتداء وأن الامتناع عن فعل السوء بموعظة أخيه له وافية وكافية لديه، وكذا حُسن تعامل أخيه معه مُوجبة لردعه عن إرادة الشر والسوء بأخيه.

ثم بين سبحانه وتعالى تشريعه في القتل، وفي الإبقاء على الحياة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فتصدرت الآية الكريمة ببيان علة التشريع البياني لمن اقترف القتل، ولمن احترم النفس وحفظ حقها في الحياة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فإنه نتيجة لقتل أحد ابني آدم أخاه، فقد فرضنا على بني إسرائيل هذا البيان في القتل. وهذا يستثير النفس بأن هذه الجريرة عظيمة عند الله تعالى، إذ مِنْ أَجْلِهَا شَرَعَ البيان فيها بقوله تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا﴾ بما يُوجِب على الإنسان أن يستعظمها في قلبه، ويستعظم اقترافها، وأن يبتعد ويتجنب ذلك إلا بموجبه.

فكتب الله تبارك وتعالى في كتبه السماوية التي نزلت على أنبياء بني إسرائيل ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فمن قتل نفساً بغير مُوجِب لها فكأنما قتل الناس جميعاً، وفي هذا تعظيم لشأن النفس، إذ أن قتلها يعادل قتل الناس جميعا، فأوضحت وبينت الآية الكريمة علة القتل الظالم بأنه بغير حق يُوجب القتل، وهو ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: قتلها ظلماً؛ وكذلك من غير مُوجِب بأن كان بسبب فساده ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغير فساد جناه ليستحق به القتل، فلم يكن منها فساد في الأرض يستوجب القتل. فتكون العلة الأولى: أن تكون قد قتلت نفساً فَتُقْتَل قصاصاً، والعلة الثانية: حصول الفساد في الأرض بما يستوجب قتلها. فمن قتلها بغير هذين الموجبين ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فمن قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، فلا فرق عنده بين نفس

ونفس ﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا ﴾ أي: استعظمها وحَرَّمَ قتلها، واعتقد أن ذلك حرام لا يجوز، فقد سَلِمَ الناس كلهم منه، فالكف عن قتلها هو إحياء لها. فجعل الله تعالى استعظام قتلها، والبقاء عليها من الاعتداء، فكأنما أحيا الناس جميعاً. لأن الناس قد سلموا منه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قتل نفساً واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً. وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً. وقال مجاهد في معنى ﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا ﴾ أي: من أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة. وقال الحسن البصري لمن سأله هل هذه الآية لنا كما هي لبني إسرائيل؟ قال: أي. والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل. وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا[١] وهذه الأقوال من العلماء في دلالة الآية الكريمة قد تظافرت فوائدها ومعطياتها في تناسق وتعاضد لا تضارب بينها، فأعطت المقصد الخاص، والمقصد العام الذي تستوفي به الآية عناية الله تعالى بهذه النفس، وسُبُلِ حفظها، لما لها من حق الوجود حتى يتوفاها الله تعالى؛ ما لم تقتل أو تفسد في الأرض.

ومن الفوائد العظيمة أن إيقاع الفساد في الأرض يستوجب قتل الفاسد، لما يقوم به من إهلاك الأرض، وتنقيص حياة الناس، فإن شريعة دين الله تعالى تستوجب لضمان الحياة البشرية ما يعينها على حفظ الحياة، لا أن تُسلب النفس البريئة حياتها ظلماً وفساداً، أو أن يفسد عليها غيرها معيشتها، وأمنها، واستقرارها. ويُستفاد كذلك أهمية إصلاح وحفظ ما تستقيم به الحياة، وأن من ساهم في إصلاحها، فقد ساهم في إحياء الناس، ومَنَعَ عنهم ما يفسد حياتهم. فكان منه أسباب المنع، وأسباب الإحياء، فالمنع يكون بتجنيب المجتمع دوافع الهلاك، وأما الإحياء فيكون بالمساهمة في الحفظ والإصلاح؛ الموجب للحياة. فاستوعبت دلالة ﴿ أَحۡيَاهَا ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ استوعبت جميع ما يحقق استمرار الحياة، وتجنيبها ما يحقق الهلاك، مثل: الإنقاذ من الغرق، والهدم، والحريق، ومن الجوع، وهذا من عظيم فوائد دلالات القرآن الكريم.

وكذلك من عظيم دلالات الآية الكريمة هو: التهويل التحذيري من قتلها، وتعظيم وتشجيع الإبقاء عليها، وبذل الخير لها؛ بما ينجيها من أسباب الهلاك، ويدفع عنها الشر، وما يؤذيها ويهلكها.

ثم بين تبارك وتعالى امتنانه على بني إسرائيل بما بعث لهم من الرُّسُل، ومع ذلك لم ينتفعوا بما جاءهم من فضل الله تعالى عليهم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩/٢)

بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ فقد جاءتهم الرُّسُل بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة، فلم يستجيبوا لما جاءهم من الحق، وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها[١] ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ ثم إن كثيراً منهم بعد أن جاءتهم الرُّسُل يعملون بالمعاصي، ويخالفون أمر الله تعالى، ومحادُّون لله ولِرُسُلِهِ باتباعهم أهواءهم، واختلافهم على أنبيائهم، وهذا هو إسرافهم في الأرض[٢]

والإسراف هو: مجاوزة الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله تعالى فهو سرف، وسُمّي قوم لوط مسرفين من حيث أنهم تعدوا وتجاوزا النساء إلى إتيان الرجال.[٣] وهذا يدل على أن الإسراف مجاوزة الحد بالتعدي في القتل والمعصية وغيرها، وليس مقتصرا على ما أُشْتُهِر بأنه في المطعم والمشرب والملبس.

ومن عدل الله تعالى أنه لم يذمهم أجمعين بل أكثرهم ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ وهذا يفيد أهمية العدل في الحكم، وأن لا يجرمَنَّ المرء شنآن أحدٍ فلا يذكر له إلا الخزي والعيوب، بل يلزمه العدل عند التقويم والحكم على الغير.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وفي تجانس بديع مع ما قبله ينتقل السياق القرآني الكريم إلى جزاء من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض بالفساد ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾

---

(١) المرجع السابق (٢/٥٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٣٥٩)

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٣٠)

فهناك ترابط وتجانس بين ما جاء في هذه الآية الكريمة عن جزاء من حارب الله ورسوله. وبين ما حصل من ابني آدم، وكذلك ما بين الحكم فيمن قتل نفساً بغير نفس، ومن عَظَّمَ جُرْمَ قتل النفس؛ وحفظها من القتل؛ وأسهم في إحيائها بِسُبل الإحياء.

فتناولت الآية الكريمة وصفاً للجرم الذي استوعب أصناف الفساد الذي يستحق به هذه العقوبة المغلظة. فالمحاربون لله ولرسوله هم الذين يُبَارِزُنه بالعداوة، فأفسدوا في الأرض بالكفر، وأخذ الأموال، وإخافة السُّبُل. والمشهور أن هذه الآية في أحكام قُطَّاع الطرق؛ الذين يَعْرِضُون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويُخِيفونهم[١] وسماهم الله تعالى محاربين له تشبيهاً بالمحاربين حقيقة، لأن المخالف محارب؛ وإن لم يحارب، فيكون المعنى: يخالفون الله ورسوله بالمعاصي. ويشمل المعنى أنهم يحاربون أولياء الله، وأولياء رسوله صلى الله عليه وسلم، قال سعيد بن جبير: أراد بالمحاربة لله ولرسوله: الكفر بعد الإسلام، وقال مجاهد: أراد بها الشرك[٢] وجميع تلك الدلالات تجتمع في المعنى، لأن مفردات دلالتها يدخل ضمن المضادة والمخالفة، لتستوعب جميع تلك المفاهيم. فهي جامعة لتلك الدلالات من غير تعارض بينها. وأما معنى ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ﴾ فإن الفساد يشمل القتل والجرح، وأخذ الأموال، وإخافة السبيل.

فجزاء هؤلاء هو ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ) فهذا هو الجزاء الذي يستحقه من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادا. وللعلماء اختلاف في تطبيق تلك الأحكام بحسب الجرم، وقد فَصَّلُوا فيها تفصيلاً بيناً، يُنظر إليه في مواطنه من كتب التفسير والفقه.

وقال العلماء أنها نزلت في المشركين. فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، ولا تُحَرِّز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض؛ أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدروا عليه، لم يمنعه ذلك أن يُقام عليه الحد الذي أصاب[٣]

وهذه العقوبات تفيد عناية الله تعالى بعباده في تحقيق الأمن لهم، بما يكفل للناس سلامة حياتهم في أسفارهم، وتنقلاتهم، وتجارتهم، وحفظ أموالهم، وأنفسهم، وما تستقيم به الحياة؛ من الأمن الذي هو أساس في حياة ومعاش الناس وتجارتهم. وأن العقوبات الصارمة هي التي تُخيف المجرم المفسد، فتردعه عن العبث في

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٧٩/١-٤٨٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٠/٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠/٢)

الأرض بالفساد، وعن محاربة الله ورسوله. ومن فوائد ذلك: أن الحياة لا تستقيم بالفوضى، وأنه لا سبيل لإقامة تلك الحدود إلا بحاكم، فوجب إقامة الدولة الحاكمة بشريعة الله تعالى، ووجب حفظ الدولة، وتحريم الإطاحة بها، لما يترتب على ذلك من الفوضى، ومن تعطيل تطبيق الحدود، فيسعى الفاسدون في فسادهم. كما يفيد هذا الجزاء الرادع أن شريعة الله تعالى قد تكفلت بحفظ التجارة، وأنها من الأعمال النافعة التي حماها الإسلام، وحث عليها، وأن هذا الدين بهذا التشريع العظيم هو دينٌ حق من الله تعالى، إذ استوعبت تفاصيله ما تقوم به حياة البشر.

وهذه الحدود المغلظة خزي في الدنيا للمحاربين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، من المفسدين في الأرض، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والخزي في الدنيا يمثل الانكسار والذل، بما حصل لهم من العقوبة الجسدية، والعقوبة النفسية التي يجدها في نفسه من الحسرة، والتشهير بفعله المخزي، وبما عُوقِب به من عقاب بين الناس. وأما في الآخرة فقد توعدهم الله تعالى، حيث قال عَزَّ وجل ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن لهم من الله عَزَّ وجل عذاب قد اتصف بالعظمة في شدته وقوته. مما يلزم الحذر من ذلك بطاعته تبار وتعالى.

ثم استثنى جَلَّ جلاله التائبين من قَبْلِ القدرة على تطبيق الحدود عليهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأخبر سبحانه وتعالى سقوط حقه عَزَّ وجل عنهم بقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأما القصاص وحقوق الآدميين فلا يسقط. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: هذا الاستثناء في المحاربين المشركين إذا تابوا من شركهم، وحربهم وفسادهم، وآمنوا قبل القدرة عليهم، فلا سبيل عليهم فيما أصابوا من مال أو دم، وهذا لا خلاف فيه. فأما المحاربون المسلمون، فاختلفوا فيهم، ومذهب أصحابنا: أن حدود الله تسقط عنهم من انحتام القتل والصلب والقطع والنفي. فأما حقوق الآدميين من الجراح، والأموال، فلا تسقطها التوبة، وهذا قول الشافعي[1] وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الادمي ايضاً، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم. فإن كان المحارب مسلماً فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل، وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب بعد القدرة عليه لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٧١)

ظاهرة، وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه من باب أولى[١]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾

ابتدأ تبارك وتعالى مخاطبته للمؤمنين بياء النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب السمع والاستماع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، وأخذه بعزم وأهمية وجدية، كما تضمن النداء التسمية للمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ التي هي أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك يحمل هذا النداء في دلالته التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة، ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به. فيا أيها الذين صدَّقوا الله تعالى ورسوله فيما أخبرهم به، ووعدهم بالثواب لمن أطاعه، وتوعد بالعقاب لمن عصاه، يلزمكم استيفاء ما يأمركم به.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي هذا النداء الامتثال لما نودوا له، وهي التقوى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بأن يتخذوا الوسيلة التي يتوصلون بها إلى تحصيل المقصود ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ وكذلك تحصيل الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فتضمن النداء ثلاث توجيهات عظيمة من الله تعالى لعباده المؤمنين: الأولى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وهي الامتثال لله تعالى خوفا وطمعا. والمطلب الثاني: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ فاطلبوا ما تتقربون به إليه سبحانه وتعالى، والثالث: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٨١)

وجاهدوا أعداء الدين إخلاصاً لله تعالى، ودلالة ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ تبين جانب المتابعة في كل ما يتعلق بالجهاد، وجانب الإخلاص له، بأن يكون ذلك ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ وليس لغير ذلك من المقاصد المتنوعة، وهذا توجيه دقيق في ربط الجهاد بمراد الله تعالى، وليس بالمقاصد الأخرى للإنسان. وقال العلَّامة ابن سعدي رحمه الله تعالى في الجهاد: ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقرِّبة إليه الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين، بالمال والنفس والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجلّ الطاعات، وأفضل القربات. ولأن من قام به فهو على القيام بغيره أحرى وأولى(١)

ومن الفوائد أن ترتيب تلك المطالب يبين أن بعضها طريق وسبيل لبعض، فالتقوى سبيل المؤمنين للبحث عن الوسيلة التي يتحصلون بها على ما يتوصلون به إلى طاعته ورضاه سبحانه وتعالى. ثم ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ التي لا يتحراها العبد ويلزمها إلا إذا كانت التقوى قد أخذت مكانها في قلبه. وإذا اجتمعت التقوى وابتغاء ما يتوصل به إلى إرضاء الله تعالى، لم يستصعب الجهاد ببذل النفس في سبيل الله تعالى.

ثم بين تبارك وتعالى ثمرت محصلة تلك الطاعة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فإنه باتباعكم لما أمركم ربكم به، فإنكم تحصلون به على الفوز والنجاح والظفر بجناته، واتقاء عذابه. وهو الفلاح الحقيقي الذي يبتعد به المسلم عن مواطن العذاب، والنجاة من ذلك، ثم الحصول على سعادة الآخرة بدخول الجنة. ومن فوائد السياق أن لفظة: **(لعل)** تفيد الرجاء والإشفاق من المخاطبين، ليرجوا ويشفقوا على تحصيل الفلاح، وأما من الله تعالى فتفيد التعليل للمؤمنين بحصول الفلاح إذا لزموا ما أمرهم به. وتعطي معنى التحقق في تحصيل الفلاح من ربكم لكم، لأنه لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، فهو المتفرد بكمال المنع والعطاء، إذ الملك ملكه سبحانه وتعالى، يتصرف فيه كيف يشاء.

ثم يبين الله تبارك وتعالى حال الكُفَّار يوم القيامة، فيما يصيبهم من الحسرة والندامة على ضياعهم للطاعة، وصدودهم عن الإيمان وطاعة الأنبياء والمرسلين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وفي هذا البيان زجر للكافرين، وتحذير للأحياء منهم، وترغيب للمسلمين في الامتثال لأوامر الله تعالى ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ فلو امتلكوا جميع ما هو موجود في الأرض ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ وهو ما

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٨١/١)

يستحيل عليهم، ولكن ليفيد تهويل وتعظيم يوم القيامة، فلو كان لهم ذلك ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلن يُقبَل منهم فيما لو امتلكوه ليقدموه، مع استحالة تحققه وتمكنهم من ذلك، مما يفيد تحقق وتأكد وقوع العذاب عليهم بما كفروا ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ فلن يُقبل منهم ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو عذاب موجع مؤلم. وفي هذا البيان تحذير من الله سبحانه وتعالى للكافرين من الاستمرار في كفرهم، كما أن في هذا البيان ترغيب للمسلم في طاعة الله تعالى، والحذر من الكفر، وتحفيز لإيثار الآخرة على الدنيا، فيزدادوا بذلك ثباتاً، وتصوراً لعظيم العقاب الذي يَتَعَذَّر فيه الفداء، وأنه من المستحيلات للكافرين يوم القيامة، مهما بلغ الفداء لو استطاعوا، وما هم بقادرين عليه.

ثم بين الله تعالى مُنَاهم ومُرَادهم يوم القيامة، وهو الخروج فقط من النَّار ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ يتمنون الخروج من عذاب النار. وأما حُكم الله تعالى إزاء مرادهم هو ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فإن الخروج منها ممتنع ومتعذر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ فعذابهم لا خروج لهم منه، بل هو مقيم دائم مستمر لا يتوقف. ودلالة ﴿مُقِيمٌ﴾ تفيد الدائم غير المنقطع.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ثم حال الكافرين، أوضح عَزَّ وجَل حال وجزاء السارق والسارقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد حكم الله تعالى على السارق والسارقة بقطع اليد، وقد فَصَّل العلماء فيما يتعلق بحد السرقة التي يجب فيها القطع، وموضع قطع اليد، وذلك في كتب التفسير، وكتب الفقه. وهذا القطع هو جزاء التعدي، وأخذ ما لا يجوز أخذه من أملاك غيرهم ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ فالسارق هو الذي أكسب نفسه حق غيره بغير وجه، فأكسب نفسه كذلك تبعات سرقته، وهي قطع اليد، فوقع الجزاء

على اليد التي أخذت، ليكون في ذلك تأديب للسارق، وزجر تأديبي لمن يفكر في سرقة شيئاً من أملاك الناس. وتطبيق هذا الحد يحقق الأمن والاستقرار الاجتماعي، فيأمن الناس على ممتلكاتهم من أولئك الذين تُسول لهم أنفسهم الاعتداء على حقوق الغير. وكلما كان العقاب صارماً؛ كان أثره على النفس أقوى ردعاً وزجراً وتأديباً. وهذا الحكم هو تنكيل من الله تعالى بالسارق ﴿ نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عقوبة من الله تعالى على السرَّاق.

ثم بين الله تعالى صفتين من صفاته العظيمة المتوافقتين مع حُكمِهِ عَزَّ وجل، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ فهو عزيز في انتقامه ممن يعصيه، ومنهما السارق والسارقة، وكذلك هو حكيم سبحانه وتعالى في حكمه فيهم، وقضائه عليهم، فهو حكيم إذ حكم فيهم بالقطع، وليس بغيره. فتبارك الله تعالى في حكمه وحكمته وفي شرعه وأمره ونهيه.

ومن الفوائد: أن الله تعالى ذكر علة الحكم ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ فهذا الجزاء لقاء عملية القيام بسرقة حق الغير، وأيضاً ﴿ نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عقوبة صادرة من الله تعالى، وليس لأحد فيها حق الامتناع عن التطبيق والتنفيذ. وكلمة ﴿ نَكَٰلٗا ﴾ تفيد علة الحكم؛ بما يجعله يرتدع، ويجعله عبرة لغيره، فهي عقوبة للسارق الفاعل، وترهيب لغيره، وعبرة. وذلك لقوة الردع الذي يتحقق به الأمن. حيث اشتمل البيان الكريم على ما يبين هول السرقة وهول عقوبتها، إضافة إلى كونها عقوبة من الله تعالى ﴿ نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وفي إضافتها له سبحانه وتعالى ما يبين حجم الترهيب، والتهويل، والزجر، لكونها من العزيز الحكيم، فإن الذي صدرت منه العقوبة له صفة العزة والحكمة فيما يقضي ويحكم، سبحانه وتعالى.

ثم بين جَلَّ جلاله حُكْمُهُ فيمن تاب ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فتضمنت الآية الكريمة متطلبات التوبة من الله عَزَّ وجل على من اقترف جُرْم السرقة، بأن يحصل منه أمرين: الأول: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ ﴾ فيتوب من سرقته. والثاني: ﴿ وَأَصۡلَحَ ﴾ وهي متضمنة لتعديل وإصلاح السلوك، بالامتناع عن السرقة، وامتثال أمر الله تعالى بطاعته واحترام ما حَرَّم الله من أموال وممتلكات الغير. فتضمن الشرط الأول الإصلاح القلبي، بالندم والعزم على عدم العودة لذلك، وتضمن الشرط الثاني: الجانب العملي التطبيقي، بأن يحمل نفسه على الامتثال لله تعالى. فإن فعل ذلك ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ ﴾ فيتوب الله سبحانه وتعالى عليه فيما بينه وبين السارق، فيغفر له ذنبه، ويستره. وأما أموال الناس، وممتلكاتهم فيلزم ويجب ردها، لأنها حقوق للغير، فيقاضونه بها يوم القيامة؛ ما

لم يردها لهم. ثم بين سبحانه وتعالى صفتين من صفاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ربكم أيها الناس متصف بالمغفرة والرحمة، فبادروا إليه بالتوبة والطاعة، يغفر لكم ذنوبكم، ويتكفلكم برحمته. ومغفرته وصفحه، ورحمته التي غفر بها لمن تاب وأصلح، وفي هذا تشجيع وترغيب للتوبة والصلاح، كما يفيد ذلك أهمية قبول التائب، والعائد عن معصيته، واحتوائه، ونسيان ما مضى منه، والتغافل عن معصيته.

ومن دقة تناسق آيات الله تعالى، أن خلاف نظم الآية الكريمة، لا تستسيغه عقول أولي الألباب، ولا توافق عليه، قال الأصمعي: قرأت هذه الآية ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإلى جنبي أعرابي، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً. فقال الأعرابي: كلامُ مَنْ هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم. فقال: ليس هذا من كلام الله. فتنبهت، فقلت: والله عزيز حكيم. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عَزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[١]

ثم توجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاستهلت الآية الكريمة هذا الخطاب بسؤال استفهامي تقريري ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ فيشتد به الانتباه لما بعده من تقرير قد استقر عند النبي صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو في حد ذاته سؤال استنكاري لبني إسرائيل، حيث أن السياق في شأنهم، مع تقرير العلم بأن له الملك والحكم، فله ملك السموات والأرض، وله الحكم، فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ألم يحصل لكم من العلم أن الله تعالى له ملك السموات والأرض؟ فيكون لسان حال الْمُخَاطب هو: بلى علمنا يا الله بأنَّ لك مُلك السماوات والأرض. فيكون التقرير هو: إذاً فإن مَن له ملك السماوات والأرض يحكم ما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلربكم كمال القدرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله عن هذه الآية: خطاب له صلى الله عليه وسلم، والْمَعْنِيُّ به

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٧٤)

من ذكرت من فِرَقِ بني إسرائيل؛ الذين كانوا بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما حولها[١] وفي هذا ترهيب لمن يتجرأ على دين الله تعالى، وبشارة بالمغفرة لمن أطاع الله تعالى، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم. وبيان لكمال قدرته على كل شيء يريده عَزَّ في علاه. فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء أبداً. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك نصره لكم على أعدائكم، وتمكينكم بالفتوحات والمغانم، وفي كل شأن من شؤونكم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته تبارك وتعالى، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا نداء خطابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ فهو خطاب بصيغة النداء. وكذلك هو مناداة للرسول صلى الله عليه وسلم بصفة الرسالة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وفي هذا تعظيم لما أُرسل به، وتعظيم لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كان هذا النداء من الله تبارك وتعالى رحمة بالنبي صلى الله عليه وسلم على شدة حزنه على من لم يؤمن من أهل الكتاب الذين كانوا في المدينة وما حولها. مما يبين ويكشف ما كان يحمله صلى الله عليه وسلم في قلبه من الحرص على خروج الناس من الكفر الذي عاقبته العذاب، إلى الإيمان الذي ثوابه جنات النعيم. فيقول له جَلَّ جلاله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١٢/٨)

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ ودلالة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ تفيد شدة الإسراع في تبني الكفر، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، والهروب عن طاعة الله تعالى، وعن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن كفرهم هذا على سبيل السرعة في التكذيب والمواجهة، مما يبين شدة الكفر، الذي محمله تقديم الأهواء الذاتية على ما يعرفون من الإسلام.

فلا يحزنك مسارعة من سارع في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولكن قلوبهم خاوية من الإيمان، وهم المنافقون، وكذلك ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم اليهود.

وهذا يفيد المؤمن: في أهمية الحريص على هداية الناس كما هو منهجه صلى الله عليه وسلم، وألا يحزن مَنْ بذل الجهد لهم، ولم يؤمنوا، أو لم يهتدوا، أو لم يستجيبوا، ليعلم أن المطلوب منه هو العمل والاجتهاد في بذل الأسباب، وأما تحقيق الهداية فلا يملكها الإنسان للإنسان.

ثم بين الله تعالى مواصفاتهم العملية ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ فأول صفاتهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ ودلالة ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ تفيد المبالغة في عملية الاستماع، وتحري الكذب والإنصات له، وتتبعه وعدم دفعه، كما يفيد هذا أن الاستماع للكذب عملية مقصودة، بالرغم من معرفتهم بأنه كذب، فهؤلاء المنافقون واليهود يتقصون ويتقصدون استماع الكذب، مع استجابتهم وتفاعلهم معه، مما يبين أنهم يعلمون الكذب ويفترونه، وينشطون له وبه، ويستأنسون لاستماعه. وجاء في معنى ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ سماعون منك ليكذبوا عليك، وأيضاً بمعنى: قائلون له. أي قائلون للكذب، وكذلك بمعنى: الذي بدلوه في توراتهم، وبمعنى: قابلون له[1] فيقبلونه ولا يردونه، ومن يقبل الكذب لا يمنع أن تجتمع فيه جميع تلك المعاني والدلالات، ليتبين استيعاب السياق البياني لأوجه استعمال الكذب. فيستوفي جميع ذلك فيهم، كما هو متوافق مع حالهم من الكذب على الله تعالى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء؛ كلهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ أي مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل: المراد: أنهم يستمعون الكلام ويُنهُونَه لقوم آخرين ممن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٧٦)

لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[1] ومعنى ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ من بعد أن وضع الله تعالى كل شيء في مكانه وموضعه الذي يستحقه من البيان والأحكام. قال الزجاج رحمه الله تعالى: أي: من بعد أن وضعه الله تعالى مواضعه، فأحل حلاله وحرَّم حرامه[2] فاشتمل المعنى على أمرين: أحدهما: أنهم يستمعون فيك ما يقوله من لا يحضر مجلسك من أعدائك. والثاني: يستمعون هؤلاء الذين يحضرون مجلسك، ثم يؤولون ويبدلون كلامك من بعد ما عقلوه وعرفوه، وينقلونه محرفاً لقوم امتنعوا عن أن يأتوا إليك من الأعداء المبغضين. ولا يمتنع أن تكون هذه الصفتين معنيتين في الآية الكريمة، لأوجه التأويل فيها، مما يفيد أن في البيان القرآني الكريم عمق في احتواء المقاصد المراد بيانها بأقل الألفاظ والتراكيب الكلامية، ليظهر الإعجاز البياني والبلاغي في كلام رب العالمين. فهؤلاء حرفوا ما أُنْزِلَ عليهم، فكيف لا يحرفون ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجملة ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ تبين أنهم يتقصدون التحريف، وليس نابع عن سوء فهم، بل تقصداً وتعمداً، لأنهم عرفوا مواضعه وحقيقته، ثم يقولون ما بينه سبحانه وتعالى ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ وهذا البيان في رجل وامرأة من أشرافهم ارتكبا فاحشة الزنا، وكانوا قد بدلوا ما نزل فيهم من رجم المحصن إلى الجلد والتحميم، وهو تسويد الوجه، فقالوا: نذهب إليه، أي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن حكم بما حكمنا فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، فيكون نبي من أنبياء الله حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك[3] ودلالة قوله تعالى ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ تفيد التحذير من الأخذ بما لا يريدونه إن لم يأتيهم بما يوافق ما بدلوا من الحكم. فهم يريدون الحكم بما تهوى نُفُوسُهم لا بما حكم الله تعالى لهم به في كتبه السماوية. وهذا يفيد أن منهج الاستعاضة عن أحكام الله تعالى بغيره هو منهج المنحرفين من أهل الكتاب.

ثم يبين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين إرادته في الكافرين ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾ فإن من يُرد الله تعالى إضلاله بسبب تماديه في الكفر ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فلن تملك من ربك ما تدفعه به عنهم. فقد حكم الله عَزَّ وجل عليهم بأنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٧٧)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠) وغيره من كتب التفسير.

عن كفرهم للسابق من غضبه عليهم عَزَّ في علاه، وأنه غير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرعهم إلى ما جعلته سبباً لهلاكهم، واستحقاقهم وعيدي، ومعنى الفتنة في هذا الموضع: الضلالة عن قصد السبيل. فمن يرد الله يا محمد مَرْجِعَه بضلالته عن سبيل الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذاً مما أراد الله به من الحِيرة والضلالة، فلا تُشْعر نفسك الحزن على ما فاتك من اهتدائه للحق[١] فجزاؤهم أن أبعدهم الله تعالى عن الهداية. وهذا يفيد أهمية الحذر من مجاهرة ومعاندة الله تعالى، فقد يعاقبه العزيز الحكيم بعدم انتفاعه بالمواعظ، فلا يملك أحدٌ من خلقه اسداء الخير له، مهما كان الحرص، ولذلك يجب أن يستقيم المسلم ويحرص على الامتثال؛ ويسأل الله تعالى الثبات، وحُسن الخاتمة. فحتى حِرْص الرسول الله صلى الله عليه وسلم على إسلامهم لم ينتفعوا به، مع تلطفه وحكمته التي منحها الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.

ثم بين تبارك وتعالى تأكيد إرادته بهم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ فهؤلاء لم يرد الله تعالى أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر والشرك إلى نور الإسلام وهديه، بل أراد لهم الخزي في الدنيا؛ والعذاب في الآخرة ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فإن لهم عذاب قد اتصف بالعظمة من شدته وهوله، أجارنا الله تعالى والمسلمين من عذابه برحمته وكرمه.

والخزي، هو: الذل والهوان، بفضيحتهم حين أنكروا الرجم، حيث أُحضرت التوراة فوجد فيها الرجم، وقيل كذلك خزيهم في الدنيا هو أخذ الجزية، وأما خزي المنافقين فَبِهَتْكِ سترهم، وإطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على كفرهم[٢] وأما في الآخرة فقال تعالى ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فلهم عذاب قد اتصف بالعظمة من شدته وهوله، أجارنا الله تعالى والمسلمين من عذابه برحمته وكرمه.

ثم بين الله تبارك وتعالى المزيد عن مسلكهم ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾

وتكرار كلمة ﴿سَمَّـٰعُونَ﴾ يفيد التأكيد، والتفخيم، والتَّكثير، وبيان مبالغتهم في سماع الكذب، فهؤلاء سمَّاعون لقول الباطل والكذب، وما يقولون لبعضهم البعض من تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك من صفاتهم أنهم ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ فهم يأكلون الحرام بكثرة، فكلمة ﴿أَكَّـٰلُونَ﴾ تفيد التكثير والمبالغة في اكلهم الحرام، نتيجة عدم تورعهم، وعدم خوفهم من الله تعالى. وكلمة السحت تفيد: كل كسب لا يحل، فتجمع جميع أنواع المحرمات، والتي منها الربا وغيره.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٧/٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٩/٦) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٧٧/٢)

ثم بين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم منهجية التعامل معهم ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأرشد الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن له الخيار، بأن يحكم بينهم بالحق، أو أن يعرض عنهم، لأنهم ما جاؤوا إليك اتباعاً للحق، بل لما يوافق أهواءهم. ثم بين سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم نتيجة إن أعرض عنهم، فلم يحكم بينهم ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك، لأن الله حافظك وناصرك عليهم، وإن اخترت الحكم فاعدل بينهم ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي: بالعدل الذي أمرك الله عَزَّ وجل به، وأنزله عليك[1] ثم خُتمت الآية الكريمة بمحبة الله سبحانه وتعالى للعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فإن ربكم يحب أهل العدل، البعيدين عن الجور والظلم في أحكامهم وتعاملاتهم مع غيرهم. مما يفيد أن عليكم بما يحبه الله تعالى، فتمسكوا به في تعاملاتكم. مما يبين أن هذا الدين قائم على العدل حتى مع الكافرين.

ثم يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ففي هذه الآية الكريمة بيان واستدلال من الله تعالى على سوء طويتهم ومرادهم، ومجافاتهم للإيمان مع علمهم به حقيقة. فجاء البيان الرباني بصيغة سؤال تعجبي استنكاري لفعل اليهود؛ الذين يأتون للنبي صلى الله عليه وسلم، ويلتمسون منه الحكم بغير الرجم في الزاني المحصن، فيلتمسون ويتلمسون الأيسر والأهون الذي يتوافق مع أهوائهم، وليس البحث عن حكم الله تعالى الذي يريده ويرضاه عَزَّ وجل، إذ لوكان مقصدهم حكم الله تعالى فإنه موجود عندهم في التوراة. وكذلك في الآية الكريمة تعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به؛ ولا بالكتاب الذي أُنزِل عليه. فعجبٌ أمر هؤلاء، فإنه يستثير التعجب، الذي يدل على سوء طويتهم ومقصدهم، إذ أن الحكم موجود في كتابهم التوراة الذي يَدَّعون الايمان به. ثم يلتمسون الحكم عند من لا يؤمنون به، ثم يتولون بالصدود والإعراض عن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذي يتوافق مع ما عندهم من التوراة.

ثم بعد عرض تصرفهم المنافي للإيمان خُتِمَت الآية الكريمة بحكم الله تعالى عليهم ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فنفت عنهم الإيمان، إذ لو كانوا مؤمنين لأقاموا الحد، وآمنوا بك، ولم يتجاهلوا حكم الله

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (٤٢/٢)

تعالى، فإن طلب الحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم يوحي بأنهم يعترفون بنبوته، ولكنهم ينكرونها ظلماً وعدواناً. ففي هذا السياق مناقشة استدلالية على واقعهم من خلال تصرفاتهم، ليكون الحكم وفق واقع حالهم، فإن ظاهر سلوكهم يكشف بواطنهم.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بمضمون كتابه التوراة الذي أنزله على رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وقد افْتُتِحَت الآية الكريمة بنون المتكلم ﴿ إِنَّآ ﴾ والتي تفيد التوكيد، وتفيد تفخيم وتعظيم المتكلم تبارك وتعالى، وكذلك عظمة ما أنزله عَزَّ وجل، فأبلغ جَلَّ شأنه بأنه أنزل التوراة ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ وهو الكتاب الذي نزل على رسوله وكليمه موسى عليه السلام، وبدأ البيان بعظمة المتكلم وهو الله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّآ ﴾ لتفيد عظمة الذي أُنزل؛ وهي التوراة، ثم تلى ذلك بيان مضمونها ﴿ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ فالهدى: دلالة على الطريق الموصل للخير، والمحقق له، والذي يُتَوَصَّل به إلى الهداية والتوفيق. وكذلك هي: نور، والنور هو الجلاء والضياء، فوصف تبارك وتعالى محتواها بأنه النور الذي يبدد ظلام الجهل، ويكشف الشبهات، ويوضح المشكلات، ويبين ما استبهم من الأحكام، ويجلي عن الأفهام ما يغطيها، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فيها جلاء ما أظلم عليهم، وضياء ما التبس من الحكم[١] ويبين هذا أن عدم تطبيقهم لحد الزنى هو أمر نابع من أنفسهم، وليس من سوء الفهم، فالتوراة واضحة المعاني والأحكام.

وهذا يفيد أن ما نزل من الله تعالى من كتب فإنها هدى ونور، وآخرها القرآن الكريم، الذي وصفه الله تعالى في آيات كثيرة بأنه: هدى، ورحمة، وشفاء، ونور، وموعظة، ورحمة للمؤمنين، وأنه لا يزيد الكافرين به إلا خسراناً مبيناً. مما يلزم المسلم أن يتنبه لهذه الدلالات فَيَعُضَّ عليها بالنواجذ. كما هو حال النبيين عليهم الصلاة والسلام.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٤٤٩)

ثم أوضح وبيَّن تبارك وتعالى الغاية من التوراة ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ فيحكم بها النبيون من لدن موسى حتى عيسى عليهم السلام، وهم الذين انقادوا واستسلموا لما فيها من أوامر الله وأحكامه وشريعته، فحكموا بها بين اليهود، ولم يحرفوها. وقد وصفهم الله تعالى بصفة الاستسلام له تبارك وتعالى ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: صفة أُجريت على النبين على سبيل المدح[١] أي: سلموا الحكم لله، ورضوا بقضائه، وانقادوا لحكم الله تعالى، فلم يكتموه كما كتم هؤلاء، فأسلموا أنفسهم لله عَزَّ وجل، وأسلموا لما في التوراة ودانوا بها[٢] وهذا يدل على أمانة الأنبياء في الفهم، والتطبيق، والإذعان لما جاء عن الله تعالى. وأن واجب المسلم هو تمسكه بالقرآن الكريم كما تمسك الأنبياء بما أُنزل عليهم.

ومن لطائف البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ أي أسلموا لما في التوراة ودانوا بها، لأنه قد كان فيهم من لم يعمل بكل ما فيها؛ كعيسى عليه السلام[٣] لأنه أنزل عليه الإنجيل، فيكون مُصَدِّقٌ بالتوراة، من أن الذي فيها مما لم يحرفه اليهود هو من عند الله تعالى. فتلك من غزارة المعاني والدلالات. والأنبياء من لدن موسى إلى عيسى عليهم السلام الف نبي، وقيل: أربعة الاف نبي، ويقال أكثر من ذلك[٤] وقد أفادت دلالة ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾ الجمع والكثرة، مما يبين أن الله تعالى قد أرسل لليهود بعد موسى وقبل عيسى عليهما السلام عدداً من النبيين عليهم الصلاة والسلام.

كما يحكم النبيون بهذه التوراة بين اليهود في قضاياهم ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: يحكم بالتوراة النبيون من بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ أي: انقادوا لله عَزَّ وجل ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: لليهود. ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ أئمة الدين من الربانيين، أي: العلماء العاملين المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن التربية،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٥٠/١)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٠/٢)
(٣) المرجع السابق (٢٨٠/٢)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٣/٦)

ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين. وكذلك الأحبار ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: العلماء الكبار الذين يُقتدى بأقوالهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق هو بسبب ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، فهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: هم شهداء عليه، يرجع الناس إليهم فيه[١] وهم شهداء على أنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى.

ومن دقة القرآن الكريم أن ذكر صنفين من العلماء ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ فالربانيون هم: العلماء الفقهاء، وهم فوق الأحبار[٢] ومن الفوائد أن العالم يلزم فيه أن يكون أمينا حافظاً لكتاب الله تعالى من التحريف والتبديل والكتمان، وكذلك يقوم بواجب الشهادة عليه، وهو تعليم الناس، ومرجع لهم فيما أشكل عليهم.

ثم وجَّه سبحانه وتعالى إلى أن يقصر الْمُخَاطَبون الخوف منه سبحانه وتعالى، وأن لا يخافوا من الناس ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ والخشية: خوف يَشُوبُهُ تعظيم[٣] ومن بلاغة سياق هذا التوجيه أنه حمل معناً عاماً ومعناً خاصاً، فالمعنى الخاص: أنه في حق اليهود، فلا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، فأمضوه عليهم كما أمرت، فإنهم لا يقدرون على ضر ولا نفع إلا بإذني. ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكماً في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحد من خلقي، فإن النفع والضر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفظتم من كتابي[٤] وهو يشمل معناً مخصوصاً آخر، وهو كتمان اليهود لصفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. نقله ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وكذلك نقل القول بأن الخطاب للمسلمين: قيل لهم لا تخشوا الناس، كما خشيت اليهود الناس، فلم يقولوا الحق[٥] فيكون هذا معناً مخصوصاً ثالثاً. وأما المعنى العام فإنه شمولي؛ يستوفي اليهود لكون السياق في شأنهم، كما تم بيانه آنفاً، وكذلك يشمل المسلمين لعموم سياق الخطاب، وللعبرة من حال اليهود، حتى لا يكون فيهم من هو مثلهم، وكذلك لما هو

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٨٧/١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٣/٨)

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٤٩)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٥٥/٨)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨١/٢)

معروف من نصوص الوحيين أن الخشية تكون من الله تعالى، وألا يقدم المؤمن الخشية من الناس على الخشية من الله تعالى. وهذا السياق من كمال وجمال البيان القرآني الكريم، واستيفاؤه لكمال المراد بأقل الألفاظ، وأقصر العبارات، وهو وجه بلاغي وبياني عظيم في تراكيب كلامه سبحانه وتعالى، وكذلك في بنائه بناء تستوفي به أوجه التأويل؛ من غير تعارض ولا تضاد، بل في نسق من التوافق للدلالات.

ومن لطائف الاستدلال فيما يدخل ضمن شمولية الدلالة: ما ذكره الزمخشري رحمه الله تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم، والمداهنة فيها، وامضائها على خلاف ما أُمِرُوا به من العدل، لخشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد[١] فيفيد هذا أهمية القضاء، والحكم، والفتيا، والمعاملات العامة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بأن تكون وفق شريعة الله تعالى، وأن لا يخشى القائم بذلك غير الله تعالى، فلا خشية لأحد من الناس، فإن الله عَزَّ وجل هو النافع، وهو المانع لضر كل ذي ضر. فكيف بمن يداهن لميول النفس، وترقبها للمدح والثناء، أو لمكرمة متوقعة، أو تطلع لمأمول، دون دافع من خوف، وإنما طمعاً وتطمعاً. فنسأل الله الهداية والتوفيق.

ثم نهى الله تعالى عن فعل مشين وأثيم كبير مبين. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا تستبدلوا ولا تستعيضوا عن أحكام الله تعالى وفرائضه بالرشوة والجاه والمناصب، وإرضاء الناس، كما حَرَّف اليهود كتاب الله تعالى رغبة في الدنيا؛ فهلكوا. وقد بين الله تعالى هذا النهي بصورة المعاوضة في عملية البيع والشراء، فيتخلى عن شيء مقابل شيء، وهي أكثر وضوحاً للمعنى في عملية معاوضة البيع والشراء، لتكون صورتها عالقة في ذهن الْمُخَاطَب، فلا تجعل من آيات الله تعالى سلعة تبيع وتشتري بها؛ فإن سلعة الله غالية، وقد سمى تبارك وتعالى ما يُدفع مقابل التحريف ثمناً قليلا ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فمها تحقق به من جاه ومناصب وأموال، فهو قليل وزهيد أمام آيات الله العظيمة الجليلة، وثواب طاعة الله تعالى، وهي الجنة.

وكلمة الشراء ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ تستوعب جميع أصناف الأخذ؛ بمقاديره المتنوعة، في كثيره وقليله، وفي حجمه ونوعه. واستوفت كلمة ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ جميع أحكامه وقضائه وتشريعه سبحانه وتعالى، فلا ينقص منه شيء، واستوفت ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ جميع ما يتحصل عليه المشتري من جميع أنواع المدفوع له؛ مقابل التحريف

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٥١/١)

والتنازل، فحوت دلالة الجملة الكريمة عظيم البيان، مع قلة الألفاظ، وقِصَر السياق، ليكون توجيهاً في قمة البلاغة والبيان.

ثم بين تبارك وتعالى جزاء من استعاض عن أحكام الله تعالى بغيره في التحكيم والحكم ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فمن لم يحكم بما أنزل الله من الحق المبين، وحَكَم بالباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله تعالى هو من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، وقد استحق من فَعَلَهُ العذاب الشديد(١) وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب...وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال: كُفْرٌ دون كفر، وظُلْمٌ دون ظلم، وفِسْقٌ دون فسق(٢)وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن (الكافرين) و(الظالمين) و(الفاسقين) نزلت كلها في الكفار، وثبت هذا في صحيح مسلم...وأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة. فيه إضمار، أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله، رداً للقرآن، وجحداً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر. قاله: ابن عباس ومجاهد. ثم ذكر الإمام القرطبي رحمه الله أقوالاً أخرى، وقال في نهاية ذكرها: والصحيح الأول(٣) أي الذي تم نقله آنفاً.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

هذا بيان من الله تعالى بما أنزل في التوراة من أحكام القصاص، وفي نفس الوقت هو توبيخ لليهود، لمخالفتهم ما أنزل الله تعالى في التوراة عمداً وعناداً منهم، كما خالفوا التوراة في رجم الزاني المحصن. فقال الله تعالى في الآية السابقة لهذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لأنهم

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٨٨/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٣/٢-٦٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٤/٦)

جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله تعالى فيه بالعدل والتسوية بين الجميع، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضا[1] فحققوا الظلم في غيرهم، فتحقق الظلم فيهم بما ظلموا، وبما حكموا، فاستوفت ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جميع أوجه الظلم الذي وقعوا فيه، وكذلك يمتد سلطان حكم النص على كل من سار على نهجهم فيما أنزل الله تعالى من أحكام، وذلك لعموم النص الكريم ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

ومن عدل الله تعالى وحكمته في القصاص، أن ساوى بين الأنفس في القصاص، ليمنع التعدي من كل أحد، وليذوق الظالم مرارة ظلمه، ويشعر بصنيع ما صنع في غيره من التعدي، وليرتدع غيره بتطبيق القصاص في غيره. وقد جمع الله تبارك وتعالى لمن لم يحكم بما أنزل وهو جاحد وقاصد ومتعمد؛ فقد جمع له بين صفة الكفر وصفة الظلم؛ لعدم إقامة العدل على الظالم، وتعطيله لحكم الله تعالى. مما يفيد أهمية العدل وإقامته، والبعد عن تعطيل أحكام الله تعالى بغياً وقصداً وتعمداً.

وجاء مطلع الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم، وهو بمثابة الإقرار عليهم بذلك، فهو يفيد لزوم التنفيذ الذي لا خيار لهم فيه. كما أن دلالة جملة ﴿وَكَتَبۡنَا﴾ تفيد التعظيم والتفخيم والقوة والسلطان والسلطة، بما يبين أن الذي فرض عليهم الأحكام في التوراة ذو شأن وعظمة وقوة وسلطان سبحانه وتعالى. وقد ابتدأ الله تعالى القصاص بأعظمها، وهي النفس ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ ثم تلتها العين ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ ثم عطف عليها ﴿وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ﴾ ثم عطف على ذلك الأذن ﴿وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ﴾ ثم تلاها ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ مما يبين دقة بيان الله تعالى في تخصيص وتدرج هذه الحواس، والآلات العظيمة من الإنسان بحسب أهميتها.

ثم ورد التعميم فيما يخص الجروح باعتبار ما يكون من اختلاف درجاتها ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ ومن دقة وجوب حكم القصاص في منهج الله تعالى أن جعل المقاضاة قصاصاً ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ أي:

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٤)

ذات قصاص، وهو المقاصة، ومعناه ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة. [١] والاقتصاص أن يُفعل به كما فعل، فمن جرح غيره عمداً اقتص من الجارح جرحاً مثل جرحه للمجروح، حداً وموضعاً وطولاً وعرضاً وعمقاً. وليعلم أن شرع قبلنا شرع لنا، ما لم يرد في شرعنا بخلافه[٢]

وقد حث تبارك وتعالى على التنازل من خلال المكافأة ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فمن تصدق بالقصاص فهو كفارة للمجروح، فإذا تصدق بالقصاص كفّر من ذنوبه. وقيل هو إشارة إلى الجارح، إذا عفا عنه المجروح، كفّر عنه ما جنى[٣] وهاذان الفهمان، أو هاتان الدلالتان تتوافقان مع دلالة النص، فلا تناقض بينهما، بل إحداهما تعضد الأخرى، لأن النص القرآني الكريم يستوعب الدلالتين، مما يفيد أن الله تعالى يكفر عن الجارح بما تصدق به المجروح عليه من التنازل، وأن المجروح يكفر الله تعالى عنه من ذنوبه بتنازله عن حقه، فيعوضه خيراً مما ترك.

ومن حيث البلاغة البيانية: يتبين عمق النص الكريم، بأن كلام الله تعالى قد استحوذ على معنيين بلفظ واحد، وهذا من قمة ودرر البلاغة البيانية، أن يستوعب ويستوفي البيان المقاصد المرادة بأقل الألفاظ وأقصر العبارات. وإن كان الأولى كما رجحه الإمام الطبري رحمه الله تعالى هو: المجروح، فالصدقة مكفرة ذنب صاحبها دون الْمُتَصَدَّق عليه في سائر الصدقات، من غير هذه[٤] ولا يمنع من قبول القول الثاني؛ لأن عفو المجروح عن المعتدي يرفع عنه ما جنى. وللعلماء تفصيل فقهي فيما يتعلق بحالات القصاص؛ فيما إذا كان عمداً، أو شبه عمد، أو خطأً، وقد استوفت ذلك كتب الفقه وبعض كتب التفسير.

وفي هذا من الفوائد عناية الإسلام بالحدود، والعدل في القصاص، مع الترغيب في التسامح والتنازل مقابل عظيم الأجر من الله تعالى. وكذلك أسلوب الاستحثاث على التنازل عن الغير بالترغيب في المكافأة العظيمة المجزية، التي لا يعلم قدرها إلا الله تعالى، إذ نوه سبحانه وتعالى عنها بأنها كفارة ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ ولم يذكر مقدارها، لأن الله عظيم، وعطاؤه عظيم، فتكون أكثر تحفيزاً للمتنازل.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٥٢/١)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٨٩/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٣/٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٩/٨)

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم يتدرج البيان الكريم إلى نبوة ورسالة عيسى عليه الصلاة والسلام، بأن رسالته مصدقة لما جاء في التوراة، فلا يعارض الإنجيل التوراة. مما يستلزم طاعته والامتثال لما جاءهم به. وقد استهل مطلع الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ فكان الخطاب بنون المتكلم، والذي يفيد التعظيم والتفخيم، والقوة والسلطة والسلطان، بما يبين أن الذي أتبع الرُّسُل بعيسى عليهم الصلاة والسلام ذو شأن وعظمة وقوة وسلطان سبحانه وتعالى.

فيوضح تبارك وتعالى أنه جعل عيسى ابن مريم يقفوا آثار النبيين الذين أسلموا[1] ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فاتبعناهم بعيسى مصدقاً لكتابنا الذي أنزلناه على موسى من قبله، بأنه حق، وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ ففي الإنجيل ﴿هُدًى﴾ أي يهدي إلى الحق، وهو بيان لِمَا جهله الناس من حكم الله في زمانه. والهدى: دلالة على الطريق الموصل للخير والمحقق له، والذي يُتَوَصَّل به إلى الهداية والتوفيق. ومن صفاته كذلك أنه نور ﴿وَنُورٌ﴾ أي: ضياء من عَمَى الجهالة، فهو نور تزول به الشبهات، وفيه حلول للمشكلات، والنور هو الجلاء والضياء، فوصف تبارك وتعالى محتواها بأنه النور الذي يبدد ظلام الجهل، ويكشف الشبهات، ويوضح المشكلات، ويبين ما استبهم من الأحكام، ويجلي عن الأفهام ما يغطيها.

ومن صفاته أنه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: موافقاً ومتبعاً للتوراة، غير مخالف لها إلا فيما خصهم به في زمن عيسى، كتحليل بعض ما حُرِّم عليهم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: جعلنا في الإنجيل هداية للحق، ومواعظ زاجرة عن ارتكاب الحرام، ومرغباً في الطاعات للمتقين؛ الذين يتقون الله ويخافونه.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١٣٥)

ثم قال تعالى ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ فيجب على أهل الإنجيل في ذلك الوقت الحكم بما تضمنه من أحكام، فأما الآن فهو منسوخ[١] بالقرآن الكريم، فجميع الكتب السابقة قد نسخها القرآن الكريم، وجميع الأديان السماوية منسوخة بدين الإسلام، فلا دين غير الإسلام، ولا كتاباً غير القرآن الكريم يتعبد الله تعالى به، ويُحكم به. قال الإمام الشوكاني رحمه الله: هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه، فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أُمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، فالقرآن ناسخ لكل الكتب المنزلة[٢]

ثم بين تبارك وتعالى حكم من لم يحكم بالإنجيل في ذلك الوقت ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ومن لم يحكم من أهل الإنجيل بما في الإنجيل ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي: الكاذبون[٣] الذين خرجوا عن الحق الواضح المبين. مما يفيد أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى هو فسوق، والفسوق يعني الخروج عن الحق إلى الباطل، فتكون الأحكام بغيره هو من الكذب في الحكم، لأنه لم يأت بالصواب في الحكم، بل حكم بالكذب المخالف للحقيقة الواجبة.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) المرجع السابق (١٣٧/٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٧/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٥/٨)

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى التوراة التي أنزلها على كليمه موسى عليه السلام، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها، حيث كانت سائغة الاتباع، وكذلك ذكر الإنجيل الذي أُنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام، ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، شرع سبحانه وتعالى في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم[١] واستفتحت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ ﴾ فجاء الخطاب بنون المتكلم الذي يفيد التعظيم والتفخيم، مع القوة والسلطة، بما يبين أن الذي أَنْزَلَ الكتاب ذو شأن وعظمة وقوة وسلطان سبحانه وتعالى، وكذلك يفيد عظيم ما أُنْزِل، ومكانة مَنْ أُنْزِلَ عليه، لأن الذي أنزله عظيم، والمنزول به عظيم، فيكون الذي أُنْزِل عليه ذو شأن ومكانة ومنزلة عظيمة، فهو فخر لمن أُنْزِلَ عليه، ومن أُنْزِل عليهم، ولمن أخذ به.

وقد تَوَجَّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب ولا شك فيه ولا كذب بأنه من عند الله تعالى، كما أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فالقرآن الكريم مصدق لما قبله من كُتب الله تعالى التي أنزلها إلى أنبيائه، ومن خصائصه أنه شاهد ومهيمن عليها ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فهو كتاب مؤتمن، وأمين، وشهيد، وحاكم على ما سبقه من كتب الله تعالى[٢] واسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله[٣] وهذا دليل على فضل القرآن الكريم على سائر الكتب، وأنه هو المهيمن عليها.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمنهجية الحكم بين الناس عموماً، مؤمنهم، وكافرهم، ومشركهم ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فاحكم بالحكم الذي أنزله الله تعالى في القرآن العظيم، ثم أمر سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ فلا تتبع أصحاب الأهواء الذين يرغبون فيما يناسبهم من الأحكام المخالفة لكتاب الله تعالى، كما أراد اليهود في احتكامهم للنبي صلى الله عليه وسلم فيما سبق بيانه، حيث قالوا في أمر الزاني المحصن: إن حَكَم بالرجم فاتركوه، وإن حكم بما دونه فاقبلوه. ويفيد هذا النهي في حق الأمة بأن لا تتبع الهوى في أحكامها، بأن تترك أحكام الله تعالى تبعاً للأهواء التي تنحرف بالإنسان عن مراد الله تعالى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٨/٢)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٦/٨)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٨/٢)

كما تبين الآية أن هناك هوى وهناك حقاً، فيلزم المؤمن بأن لا يغتر بهواه أو بهوى غيره، فيجامله في هواه، بل يصدع بالحق، ويجعله ركيزته، وكذلك يفيد أن المؤمن إذا نازعه هواه في شأن أو أمر فعليه أن يتغلب عليه بالحق، ويسلكه. ويسأل الله تعالى أن يجعل هواه تبعاً لما جاء عن الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سنة وسبيلا، فجعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، وذلك كل في زمانه، والقرآن لأهله. ثم هيمن القرآن الكريم بعد نزوله على كل ما سبقه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وكلمة ﴿شِرْعَةً﴾ تعني: الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة. والشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ أي: الطريق المستمر[١] ومن المعاني السابقة لجملة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ما يفيد أن الإنسان يتوصل بتمسكه بهذه الشريعة إلى النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأن دلالة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ تفيد استمرارية منهج الشريعة في تحقيق الفوز والنجاح، فلا يتوقف بتغير الزمان ولا المكان؛ لأنه منهج رباني. والمنهج الحقيقي هو الذي يتصف بالاستمرارية مع ثبوت أهدافه، وتحقيق المنافع في كل زمان ومكان.

ثم قال الله تعالى في بيان عظمته وقدرته وحكمته ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فهذا إخبار لجميع الأمم، بأنه سبحانه وتعالى لو أراد أن يجمع الناس كلهم على دين واحد، وشريعة واحدة، لجمعهم كما يريد، وألزمهم بذلك ولكن اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل رسول شريعة على حده، ثم ينسخ منها ما يشاء بما بعدها، حتى نسخ الله تعالى جميع ما سبق برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين. فهذه هي الحكمة مما قضى به تبارك وتعالى، فهو العليم الحكيم، إذ جعل هذا الاختلاف ابتلاءً واختباراً، ليتبين ويتضح المطيع من العاصي، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي بما يشاء سبحانه وتعالى. ويفيد هذا أن في بيان الحكمة ما يزيل قصور الأفهام، كما أنه أدعى إلى الفهم والاتباع، كما يفيد ويبين ذلك أن لله تعالى حكمة عظيمة فيما يحكم به، وفيما يشرعه لعباده، كما يبين أن من حكمة الله تعالى الابتلاء والفحص ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مما يتطلب من المؤمن الإذعان والطاعة، سواء عرف أو لم يعرف الحكمة.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٧/٦)

ثم حث سبحانه وتعالى عباده إلى المسابقة والمسارعة في طلب الخيرات ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ فابْتَدِرُوها وتسابقوا نحوها، والخيرات هي أوامر الله تعالى ونواهيه، فابتدروا شريعته بالطاعة، لأنها هي الخير المحض، الذي يفضي إلى خير الدنيا والآخرة. ثم أوضح وبين عَزَّ وجل ما يحفزهم إلى الامتثال، وهو أن مرجعهم ومآلهم إليه سبحانه وتعالى ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا ﴾ فمرجع المطيع والعاصي والمسلم والكافر إلى الله تعالى، ثم بعد الرجوع إليه يُخبرِكُم بأعمالكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ فَيُخْبِرُكُم بما كنتم تتفاوتون وتختلفون فيه، ليتأكد دقة الإحصاء عليهم. ثم ليحصل المكافأة والجزاء.

وفي هذا الأسلوب البياني من الله تعالى ما يُعيد الإنسان إلى غايته التي سيؤول إليها، وما سيكون أمامه من مقاصة عادلة، ليكون ذلك محفزاً ودافعاً للامتثال. فأوضح المنهج الرباني أهمية بيان العواقب، لتكون محفزة للاتباع، لِمَا فيها من بيان الصورة الواضحة، والحقيقة المقبلة، والعاقبة الآتية. ومن مزيد الفوائد: تسمية أوامر الله تعالى بالخيرات ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ لتفيد أن أوامر الله تعالى ونواهيه وتشريعه كله خير، وجاءت بصيغة الجمع، لتبين أنها خير كثير لا حصر له، كما أن دلالة ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ﴾ تفيد قوة المسارعة في تحصيل تلك الخيرات، لأن التسابق يدل على الرغبة الشديدة، مع الخوف على المطلوب والمرغوب من الفوات، فهي مسابقة الخائف على المسبوق إليه من أن يفوته الأخذ به، ليبادر نحو اغتنامه وإدراكه. بما يوجب مدافعة النفس بأقصى ما تستطيع من التسابق عليها، كما جاءت بصيغة فعل الأمر الذي يفيد في هذا المقام الحرص على التسابق في مضمار تحصيل خيرات الله تعالى. فما أعظمه من توجيه رباني من عزيز كريم.

ودلالة كلمة ﴿ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ جمع مفرد خير، فاستوفت بذلك جميع أنواع الخير من غير تخصيص، فأحكام الله تعالى وآياته خير، ومفضية إلى خير الدنيا والآخرة، ففي الدنيا جمعت ما بين الامتثال لله عَزَّ وجل، وما يحققه شرعه من الخير، وفي الآخرة ما يؤدي إليه الامتثال من دخول جنات النعيم.

ثم يوجّه الله تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما يلزم تجاه الْحُكم بينهم ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فهذا تأكيد لما تقدم من النهي عن خلاف الحكم بينهم بغير ما أنزل الله تعالى إليك من القرآن الكريم ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ كما أن في هذا مزيد من التأكيد على ما سبق، ليتبين شدة التحذير من أن يتبع أهواء اليهود الذين يحتكمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض قضاياهم، رغبة في الحصول على ما تهوى أنفسهم، لا بما عندهم من التوراة، ولا بما نَزَلَ من القرآن الكريم إلا إذا كان فيه مبتغاهم المتناسب مع أهواءهم. وهذا يفيد مكر اليهود، وقوة معصيتهم، وأنهم يحادون الله تعال ورسوله صلى الله عليه وسلم، مما

يجب على المؤمنين أن لا ينساقوا وراء الكافرين؛ ولا وراء أهوائهم، بل يجب الامتثال في الاتباع، وأن يكون منهجهم قائم على طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي هو عصمتهم.

ثم أكد سبحانه التحذير من الغرور بهم ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ ليتأكد قوة محاولتهم للحصول على مرادهم. وفي هذا تحذير للأمة من الغرور بمفاتن الدنيا عن أحكام كتاب الله تعالى، سواء كان بتغرير شهوة المال، أو حصول الجاه، أو بالأماني وزينة الكلام، أو بأي منفعة متوهمة كانت.

وكلمة ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ تفيد التوقي الاستباقي، كما أن النهي جاء بصيغة الأمر ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ فاشتمل على النهي والأمر الذي يفيد شدة الحذر المشمول بالتوقي الاستباقي. وكذلك أوضح وبَيَّن سبحانه وتعالى علة التوقي، وهي ﴿ أَن يَفۡتِنُوكَ ﴾ ليكون ذلك أكثر شدة والتزاماً بما حذَّر منه عَزَّ وجل. والمتضمن للصد، والوقوع في الانصراف عمَّا أوحي وأنزل إليك ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ وإذا كان هذا النهي للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه في حق المؤمنين أشد، لما قد يعتريهم من الطبيعة البشرية، فيكون هذا السياق أشد تحذيراً للأمة، وإلا فإنه عليه الصلاة والسلام محفوظ بحفظ الله تعالى له. وهذا أسلوب بياني قوي في شدة التحذير والوقاية الاستباقية من ذلك. فالأمة مقصودة بعينها من هذا التوجيه الذي جاء إلى أعلى مقام فيهم؛ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان هذا التوجيه جاء للمعصوم فإنه في حق غير المعصوم أشد وألزم، وأكثر حذراً.

ثم بين الله سبحانه وتعالى حال ما يمكن أن يكونوا عليه من التولي ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ ﴾ فجاء البيان هنا على ما سيغلب منهم، وهو عدم الاتباع. فاستغنى البيان عن بيان حال الاتباع والانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه في حال الاتباع والانقياد فإنه يشملهم ما يشمل المؤمنين، وهو عزيز منهم الاتباع؛ إلا من آمن منهم، وهم قليل، فجاء البيان على الغالب، وهو ما سيغلب منهم. فإن هم لم يتبعوك وتولوا عن الحق فلتعلم أن تلك عقوبة عليهم ببعض ذنوبهم، فكيف لو كانت العقوبة على جميع ذنوبهم. مما يبين أن بعض الذنوب قد تكون عاقبتها عدم التوفيق لخير الآخرة. وفي هذا تحذير من تبعات الذنوب والمعاصي ومحادة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم أوضح سبحانه وتعالى ما يكون من غالبية البشر من التعالي والصدود عن الحق. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ فأكثر الناس متمردون عن قبول الحق، فيخرجون عن طاعة الله تعالى،

وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد بأن لا يغتر المسلم بالكثرة الفاسقة المتمردة، وإنما يلتزم الحق وإن كان أهله قليل.

ثم جاء توبيخ أولئك اليهود بصيغة الاستفهام الاستنكاري ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ ذلك أن الجاهلية يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع، وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء، فضارعوا الجاهلية في هذا الفعل(١) فقرر جَلَّ شأنه حالهم بصيغة الاستفهام التقريري، الذي ينكر عليهم مسلكهم الباطل، ويقررهم بما هم عليهم، وليفيد تحذير المؤمنين منهم، ومن أن يسلكوا مسلكهم.

ثم بين سبحانه وتعالى صفة أحكامه عَزَّ وجل؛ بصيغة السؤال التعجبي، الذي يحمل الاستفهام الاستنكاري لمن يصد ويتعالى على حُسن أحكامه، وتشريعه سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فليس هناك أفضل وأحسن من أحكام الله عند أهل اليقين، الذين أيقنوا بالله وبكتابه وآياته وأحكامه بأنها هي الأحسن، وفي هذا مدح وثناء لأهل اليقين، وتوبيخ لمن تعالى على أحكامه سبحانه وتعالى. وكلمة ﴿ أَحْسَنُ ﴾ تفيد التفضيل على كل حسن، وتفيد معاني الحسن في عدلها، وفي ردعها، وفي عاقبتها، وأثرها على الفرد والمجتمع، وعلى الجاني والمجني عليه، فقد احتوت الحسن من كل جانب وباب.

وهي قاعدة عملية، وبنائية للنفس، ومهذبة لها، فإذا غفلت أو زاغت بصيرة المسلم عن حُسن أحكام الله تعالى، رَدَّها بقوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وإن مَجَّدَ غَيْرُهُ أحكام غير الله تعالى، قال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وإن تمعن في حُسن أحكام الله تعالى أثنى عليها بقوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وإن رأى من يستحق الموعظة في حُسن أحكام الله تعالى، وعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فإنها قاعدة فاعلة في النفس أثراً مستطاباً محمودا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١٣٩)

﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

افْتُتِحَت الآية الكريمة بالنداء للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع واصغائه، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، مما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أكمل درجات الوصف، فاستلزم هذا الوصف الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له، وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، ثم أعقب هذا النداء توجيهاً كريماً ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فيا أيها المؤمنون لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، فتنصرونهم وتُؤاخُونَهم وتُصَافُونَهُم وتُعاشِرُونهم معاشرة المؤمنين.

ومن جميل الدلالات أن النهي جاء مع بيان فوارق الدين، حيث خاطب المؤمنين بالإيمان، وذكر المنهي عنهم باليهود والنصارى. ومعنى كلمة ﴿ أَوۡلِيَآءَ ﴾ من التوالي، والقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة، والنصرة والاعتقاد[١] فالموالاة لهم تكون من حيث مصادقتهم بالمحبة والمودة، ونصرة دينهم، وأما من حيث المكان والمعاملات فلا يكون مقصوداً، لأنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي. مما يفيد أهمية تحديد دائرة الدلالة المقصودة. وربطها بغيرها من الدلالات الأخرى.

ثم بين سبحانه وتعالى مساحة ولايتهم من أنها منحصرة فيما بينهم ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ وبالتالي حتى لو أظهروا لكم شيئاً من الموالاة فإنها غير صحيحة، وغير صادقة، لأن ولايتهم منحصرة في بعضهم لبعض. مما يفيد تأكيد التحذير بعد النهي ببيان العلة.

ثم أوضح سبحانه وتعالى جزاء من يواليهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ فمن تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض[٢] فمن تولاهم ونصرهم على المؤمنين أن حكمه كحكمهم[٣] وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٥٣٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٨/٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤١/٦)

الدين واعتزاله[١] وهذا يفيد الزجر وتغليظ النهي عن موالاتهم. مما يفيد الحذر من موالاة الكفار والمشركين، فما نهى الله تعالى عنه بهذا التغليظ إلا فيه وقاية مما قد يصيب المؤمن من مغبته. فولاء المؤمن لا يكون إلا للمؤمنين. ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان علة تحذيرية أخرى من موالاتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهذه قاعدة من أن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، فهدايته وتوفيقه لهم ممتنعة منه سبحانه وتعالى، وبالتالي لا تُوالوا قوماً هذا موقف الله تعالى منهم، فمدلوله بياني وتحذيري؛ فاحذروا أن تتولوهم فيصبكم ما أصابهم من حكم الله تعالى عليهم. وإذا كانت هداية الله تعالى ممتنعة للقوم الظالمين؛ فإنها تكون للقوم المؤمنين، بما يفيد أن هداية الله تعالى معكم ولكم إن كنتم مؤمنين.

ومن جليل الفوائد في الأسلوب: أنه تضمن نهياً، ثم بياناً لواقع المنهي عنه، ثم حكماً لمن خالف النهي، ثم قاعدة بيانية حكمية. فالنهي هو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ ثم بياناً لواقع المنهي عنهم ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ ثم الحكم على من خالف النهي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ ثم القاعدة البيانية الحكمية الجزائية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذه الدقة في التسلسل البياني؛ تبين عظمة القرآن الكريم في أسلوبه وترتيب كلامه، بما يعجز عنه الجن والإنس، فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ثم يبين سبحانه وتعالى حال المنافقين وواقعهم مع اليهود والنصارى ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ وكلمة ﴿ فَتَرَى ﴾ تبين المشاهدة الحسية العملية للمنافقين ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ ﴾ وأن موالاة هؤلاء المنافقين ومعاونتهم ومعاضدتهم لليهود والنصارى قد اتصفت بالسرعة ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ ﴾ بما يدل على قوة الموالاة لهم، وقوة البعد عن الإيمان والمؤمنين، وعن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعللين فعلهم هذا بما يخدعون به أنفسهم ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ ﴾ نخاف أن يدور الدهر علينا بمكروه؛ بما يجعلنا نحتاج إليهم. واستخدام كلمة ﴿دَآئِرَةٞ﴾ لتفيد ما يحيط بالإنسان؛ حتى يتمنع ويتعذَّر ويجعل سبيل الانفكاك عنهم متعذر. فيتحجج بما صَوَّرَهُ لنفسه، فَقد صَوَّر منه سياجاً على ذاته من الاعتقاد والوهم الفاسد المتلائم مع نفاقه. مما يكشف حقيقة ما لديهم من إيمان، إذ أن

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٥٦/١)

المؤمن يدرك أن المعين والْمُنْجِّي والناصر هو الله تعالى، فيتوكل عليه، ولا يخاف إلا الله تعالى، وقد سبق في هذه السورة قوله تعالى ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ فيقول تعالى ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ فلعل الله تعالى يفتح على المؤمنين بما ينصرهم، وقد يكون مخصوص بفتح مكة، فيتحقق النصر المبين، أو أن يحدث الله تعالى أمراً من عنده لم يدركه أحد. فتتحقق لهؤلاء المنافقين الندامة والأسى على تخليهم عن المؤمنين، ومسارعتهم للكافرين.

وجملة ﴿ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ تفيد الإسرار المتكتم في النفس، مما يدل على أن هناك إسراراً خفياً في النفوس، لم يُظهروه بتكتمهم عليه، ولكن الله تعالى يعلمه، وسينقلب هذا الإسرار إلى حسرة في نفوسهم حين يفتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ﴿ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ فيكون الجزاء من جنس العمل.

وكلمة ﴿ فَعَسَى ﴾ تفيد الطمع والترجي في الأمر المحبوب والمطلوب، وتفيد الإشفاق في الأمر المكروه. فهي تفيد الإشفاق والأمل في دفع شر المنافقين وشر اليهود، والطمع في تحقيق المرجو من النصرة والتمكين والعزة، فتفيد الرجاء الذي يحمل الأمل، وفي حق الله تعالى تفيد التحقق. فالإطماع من الله تعالى مُؤَكَّد تحققه، فإنه واجب التحقق، لأن الله تعالى لا يمتنع عليه شيء، فإن ما وعد به في هذه الآية الكريمة سيتحقق، فجمعت الآية الكريمة ما يدفع المؤمنين لترقب النصر والخير، والفصل لأمر هذه الأمة، وفي حق الله تعالى أنه سيتحقق مراده عَزَّ وجل في نصرة رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وعلو شأن هذا الدين على الدين كله.

وجملة ﴿ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ تفيد ترقب النصر، لأن الفتح نصرة ومخرج، وجاء معرفاً بأل، فلعله فتح مكة، كما قال به بعض أهل العلم، وسواء كان فتح مكة أو غيره، فهو يحمل دلالات النصرة العظيمة، والقوة والاستقواء للمسلمين، مع فرض دلالات الانتصار كدفع الجزية. ثم أعقبه خيار آخر ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ وجملة ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ تفيد أمراً يقدره الله تبارك وتعالى، فيقطع به شأفة اليهود ومن والاهم، وتفيد أنه قد يكون نصراً ليس للإنسان يد فيه. وفي كونه نكرة ﴿ أَمْرٍ ﴾ ما يفيد عدم معرفة نوعه، فيكون في ذلك تقوية للمؤمنين، حتى يترقبوا ما عند الله تعالى، فيكون محفزاً لهم نحو الأمل والتطلع والانتظار، مما يفيد أن على المؤمن أن يصبر ويعمل ويتوكل على الله تعالى، منتظراً لمفاتيح الله تعالى، ولا يركن للمعصية من أجل الخروج من دائرة أحاطت به.

ثم بين سبحانه وتعالى قول المؤمنين في المنافقين، وتحليلهم وتفسيرهم وتقويمهم للمنافقين الذين كانوا يقولون للمؤمنين: إنما نحن معكم، وإنما نواليهم خوفاً واتقاء لدوائر الأيام بما نكره ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فيقول المؤمنون حال ما يرون واقع المنافقين؛ من نصرتهم ومعيتهم للكافرين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ إنه التعجب من أمرهم، بإعلانهم الأيمان المغلظة أنهم معكم، فينكثون أيمانهم بهذه السرعة. فكان سؤالاً من المؤمنين يحمل الاستنكار والتعجب من حالهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الذين كان منهم الأيمان المغلظة بأنهم مع المؤمنين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ وكذلك يحمل الاغتباط من أنَّ الله تعالى قد مَنَّ عليهم بالثبات والتوفيق، فلم يجعلهم معهم. وفي قولهم عن المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ ما يدل على مبالغة المنافقين في تأكيد وتشديد الأيمان، بانهم مع المؤمنين معاضدة وولاء، ثم ينكصون على أعقابهم، فيتضامنون مع الكافرين من اليهود.

ومن دقائق البيان القرآني الكريم في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أن كلمة ﴿وَيَقُولُ ﴾ تفيد من خلال سياق الآية الكريمة أنها للاستقبال، بأنه حينئذ سيقول المؤمنون ذلك القول ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ فيتذكرون ما كان من المنافقين من تشديد وتأكيد الأيمان المغلظة، فهو بيان من الله تبارك وتعالى لأمر غيبي سيتحقق، وقد تحقق بأن نصر الله تعالى دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وخذل الكافرين والمنافقين. وهذا إعجاز بما سيكون قبل أن يكون، وكيف يكون حاله عندما سيكون، فكان كما قضى الله تعالى به. كما يدل هذا على أن أيمان المنافقين كانت كاذبة، فلم تتجاوز حناجرهم، ونستنتج من هذا السلوك النفاقي أن صفات النفاق هي صفة مستمرة في كل وقت وحين للمنافقين.

ومن جليل البيان في قوله تعالى ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ أنه حديث المؤمنين فيما بينهم، فكان حديث بعضهم لبعض، بنوع من الاستغراب عما حدث من هؤلاء المنافقين، إذ لم يكونوا متوقعين منهم ذلك الغدر، بسبب أيمانهم المغلظة، فسياق البيان جاء بصيغة حديث بعضهم لبعض ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ ليفيد هول ما حدث منهم. وليفيد غيرهم من المؤمنين عبر الأزمان: بأن يأخذوا حذرهم من المنافقين، مهما كان منهم من الأيمان والعهود، فإنهم لا عهد لهم.

فقد سقط عن أهل النفاق حظهم ﴿ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فقد فاتهم حظهم مع المؤمنين من علو الشأن، والفوز برضا الله تعالى، حيث تبين وانكشف ما أسروا في أنفسهم، وصار ظنهم سراب لا حقيقة له، وذلك بما فتح الله تعالى على المؤمنين من الظفر والنصر على الكافرين، فتحققت للمنافقين الخسارة، حيث جاء الأمر على خلاف ما اعتقدوا وأضمروا، فكان حسرة عليهم؛ إذ فاتهم حظهم مع المؤمنين من علو الشأن، ومن الغنائم، ومن الفوز برضا الله تعالى. وأما من حيث جلال السياق وبديع البيان أن جاءت كلمة ﴿ خَٰسِرِينَ ﴾ عامة، لتشمل أنواعا عديدة من الخسائر، خسارة مع الله تعالى، وخسارة المؤمنين، وخسارة الغنائم، وخسارة العلو والرفعة والقوة والسلطة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ويتكرر النداء للمؤمنين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهم الذين صَدَّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاء به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا نداء بياني وتحذيري، يبين ويوضح قدرة الله تعالى، واستغنائه عن خلقه، وحاجة خلقه إليه ﴿ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ فمن يرجع عن دين الله تعالى ﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ ﴾ فإن الله العزيز الحكيم بقدرته العظيمة الجليلة سيأتي بقوم خير ممن ارتد ورجع عن دين الله تعالى، وتخاذل عن نصرته وإقامة شريعته، وأن من جليل صفاتهم: المحبة، أنهم ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ يحبهم الله تعالى، ويحبون الله عَزَّ وجل، ومحبة الله تعالى لهم بتوفيقه لهم، وإثابتهم بأحسن الثواب، ومحبة العباد لله تعالى بطاعته، ومحبة طاعته، وابتغاء مرضاته، وبغضهم لِمَا يُبغضه اللهُ تعالى. والصفة الثانية: سمة العلاقة التبادلية مع إخوانهم المؤمنين ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ متواضعين لبعضهم البعض، فيتراحمون ويتلاينون فيما بينهم.

ودلالة معنى ﴿أَذِلَّةٍ﴾ تفيد سهولة الانقياد، وخفض الجناح لبعضهم البعض نتيجة المحبة، ونتيجة أخوة الإسلام، لتفيد هذه الصفة أن على المؤمن أن ينظرها في نفسه مع إخوانه. والصفة الثالثة: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ تَرَفُّعُهُم وشُمُوخُهُم بأنفسهم عن الكافرين، فتحمل كلمة ﴿أَعِزَّةٍ﴾ جميع الصفات المناوئة للذل التي يتعاملون بها فيما بينهم مع إخوانهم المؤمنين، فمعاملتهم للكافرين نقيض معاملتهم للمؤمنين، فيرون في دين ومسلك الكافرين ما يُوجب الترفع عنهم، وتحقيق الذل لهم. والصفة الرابعة ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجاهدون في قتال أعداء الله تعالى على نحو ما أمر الله تعالى به، وعلى الوجه الذي أذن الله تعالى به. والصفة الخامسة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فلا يخافون في ذات الله أحداً، فلا يصدهم عذل عاذل، ولا لوم لائم، بما يفيد عدم الالتفات لكلام أحد يريد أن يهون عليهم أمر دينهم، ويُبعدهم عن طاعة الله عَزَّ وجل. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن المنافقين يراقبون الكفار، ويظاهرونهم، ويخافون لومهم، فأعلم الله عَزَّ وجل أن صحيح الإيمان لا يخاف في الله لومة لائم، ثم أعلم أن ذلك يكون بتوفيقه[١] فالمؤمن يلتمس الثبات من الله تعالى على دينه وطاعته.

وقد أنزل الله تعالى هذه الآية لتكون إعجازاً لعلم الله تعالى بما سيحصل ممن يرتد، وممن سيأتي، ويعقبهم بما هو خير منهم، حيث حصل ارتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه المرتدين. إذ جاء في كتب التفسير عند أهل التأويل عن المقصود بأولئك المجاهدين: أنه أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم[٢] فكانوا خيراً ممن ارتدوا. ومن الفوائد: أن في ذلك تزكية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم. فمن أَبْغَضَ واحداً منهم فقد خالف محبة الله تعالى لهم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن هذا النعت، وتلك الصفات هي فضل منه عَزَّ وجل على من يشاء من عباده ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من محبتهم لله تعالى، وملاينتهم للمؤمنين، وشدتهم على الكافرين. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الله جواد كريم بفضله، وواسع في عطائه وكرمه، فلا تنفد خزائنه سبحانه وتعالى، وعليم بمواطن جوده وكريم عطائه. ومن الفوائد أن في ختام هذه الآية الكريمة ما يفيد الاستحثاث للمؤمن بأن يطلب ويسأل الله تعالى من فضله وكرمه وجوده، ويلتمسه بالطاعة والدعاء.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٩٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٥١٩-٥٢١)

ثم يبين الله تبارك وتعالى للمؤمنين حقيقة من يجب عليهم أن يتولونه ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بحصر الولاية على ذاته العظيمة، ثم عطف على ولايته ولاية رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم المؤمنين، كما تدل أداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم[١] فليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون المتصفون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وهم خاضعون لله ذليلون. قال الإمام الشوكاني عن الركوع في قوله تعالى ﴿ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ أن المراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أي يقيموا الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون[٢]

ثم ذكر سبحانه وتعالى عوائد وفوائد هذه الولاية ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فمن وَثِقَ بالله تعالى، وتولى الله ورسوله والمؤمنين فإن الغلبة لهم، وأن الدائرة على من عاداهم، وعلة هذه الغلبة أن حزب الله تعالى هم المنصورون المنتصرون. وغيرهم هم المغلوبين، وهم حزب الشيطان المخذول من الله تعالى. ولا يمنع أن ينتصر الباطل على الحق أحياناً؛ وذلك لحكمة يعلمها الله تعالى، ولكن مآل النصر والانتصار هو لحزب الله تعالى، وذلك أن الله عَزَّ وجل قد قضى وحكم بذلك ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ مما يفيد أن على المؤمن أن يصبر أمام الباطل ويواجهه بالثقة فيما قاله الله عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فيتصدى للخذلان بقوله ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وينتصر على وسوسة النفس والشيطان بقوله ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وينتصر على من يخذله، بقوله تعالى ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وينتصر بتشجيعه لأعوانه ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ويصبر حين يُدال عليه عدوه، بقوله ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فلا يخاف الدّولة، ولا الدائرة، ليقينه بأن حزب الله هو المنصور المنتصر.

والحزب: هم الأنصار، وحزب الله: هم أنصار الله. فلن يخذل الله تعالى أنصاره أبداً، كما قال تعالى في سورة محمد ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ومن الفوائد أن الله تعالى أطلق

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٩٧/١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥١/٢)

اسم ﴿ حِزْبَ ٱللَّهِ ﴾ على من والى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ونسبهم إليه، ليفيد التشريف والتعظيم والمعية والنصرة، حيث أثبت لهم العزة والنصرة بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وكلمة ﴿ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ تفيد القهر والعلو والنصر، لأن الغلبة تعني القهر، وكذلك تعني: الاستيلاء. فكان اختيار اللفظة معبرة عن قوة تحقق الانتصار المعزز بالقهر والاستيلاء والسيادة.

وفي هذا ما يفيد أن من يتولى الله ورسوله والمؤمنين، فعليه أن يثق بالتوفيق والسداد والنصرة على الباطل، ولا يخاف من الدّولة، ولا الدائرة إن دارة، فإن العاقبة لحزب الله تعالى، لأن لله تعالى حكمة في المداولة بين الناس، فالملك ملكه، والحكمة حكمته جَلَّ جلاله، ولكن العاقبة لأولياء الله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ويتكرر مناداة المؤمنين من الله تبارك وتعالى بخصيصة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهذا من كريم لطفه سبحانه وتعالى، وهو الغني عنهم، فمناداته لهم بالإيمان هو من عظيم النداء، لأجل أن يحذرهم وينهاهم عن موالاة الكافرين، الذين قد بين موجبات نهيه عنهم، ليزدادوا حذراً وتحصناً منهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ فمن صفات هؤلاء اتخاذ دين الإسلام موطناً للاستهزاء والسخرية، وذلك بإظهار الاحتقار والاستخفاف. وكذلك أضافوا إلى الاستهزاء للعب ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ قال ابن

كثير يعتقدون أنه نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد[١] واللعب يفيد التلهي، فكانوا يتلهون به، استهزاء وسخرية به، فيدخلون فيه، ويخرجون منه، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن أحدهم كان يُظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كفره مقيم، ثم يراجع الكفر، ويعود إليه بعد اليسير من الوقت، فيظهر كفره قولاً بعد أن كان يُبْدِي بلسانه الإيمان قولاً، وهو للكفر مستبطن، تلعباً بالدين، واستهزاء به[٢] فاللعب هو جزء من الاستهزاء، والاستهزاء أعم من اللعب، لأن اللعب وسيلة للهو، كما أن منبع اللعب من الاستهزاء، فيشتمل الاستهزاء على: الاستخفاف والاحتقار والسخرية، فيظهر منه اللعب. فالاستهزاء يؤدي إلى اللعب بالفعل والممارسة، كما هو حال مَنْ ذَكَرَ وصفهم الطبري رحمه الله تعالى. وفي تخصيص اللعب بالذكر من بين مفردات اللهو هو لإظهاره، لشدة أثره.

ثم بين سبحانه وتعالى أن أولئك الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً أنهم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ فالذين أُوتوا الكتاب من قبل، أي: اليهود والنصارى، والمقصود بالكفار هم المشركون، فلا تتخذوا الفريقين: لا هؤلاء؛ ولا هؤلاء أولياء، فمنع الله سبحانه وتعالى تأييدهم ومناصرتهم، والانتصار بهم، واتخاذهم حلفاء. وفي هذا كشف لحقيقتهم، وإثباتها عليهم، كما أن فيه نهي مع التعليل ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ليكون أقوى وأقنع، وهذا يفيد أهمية التعليل للمخاطب إذا كان أدْعَى في الحذر، أو في التمسك والأخذ بالأمر. وأيضاً يفيد هذا المزيد من الحذر والتوقي من أساليبهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾

ثم أمر تبارك وتعالى بتقواه المتضمنة لمخافته ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن دليل إيمانكم تقواه؛ بلزوم أمره، وعدم اتخاذهم أولياء؛ وقد بان وظهر لكم استهزاءهم، ولعبهم بدين الله تعالى الذي تُدينون به. وهذا يفيد أن التقوى دليل على الإيمان، وأن التقوى ثمرة الإيمان العظمى.

ومن صفاتهم كذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وقد جاء في التفسير: أنه إذا أذن المؤذن للصلاة سخر هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين[٣]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٤/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٣/٨)

(٣) المرجع السابق (٥٣٦/٨)

وكان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة؛ قالت اليهود: قد قاموا؛ لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا[١] فهؤلاء الكفار المستهزئون ﴿قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ فهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح. فذلك فعلهم الذي يفعلونه من الاستهزاء واللعب بالدين، فهو يبين أن ليس لهم عقل رشد، يرشدون به إلى الحق. وقد تكرر النهي، ليفيد التأكيد، وذلك بتعليل عملي؛ لأحد سلوكهم وأساليبهم، وهو سخريتهم بالضحك والتنقص من عبادة المسلمين.

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم آمراً له بأن يوجه لأهل الكتاب من اليهود والنصارى سؤالاً ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فهو سؤال استفهام؛ يحمل استنكاراً لما يبدر ويظهر منهم من الاستهزاء بدين الله تعالى وبالمؤمنين، واللعب بدين الله تعالى. وكذلك هو سؤال يحمل توبيخاً على تناقض ذمهم لدين الله تعالى وللمؤمنين الطائعين، مع نقيض فعلهم؛ بفسوقهم وتمردهم على دين الله تعالى، وعدم توقير واحترام ما جاء عن الله عَزَّ وجل.

فما الذي تستنكرونه علينا؟ ماذا تُعيبون علينا؟ ماذا تكرهون منا؟ ماذا تجدون علينا؟ فجميعها استفهامات؛ قد استوعبتها دلالة ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ لأن كلمة ﴿تَنقِمُونَ﴾ تدل على الاستنكار، والعتب، على الكراهية، وعلى المبالغة في كراهية الشيء. فاشتملت على جميع أوجه نظرتهم وحالهم تجاه دين الله تعالى والمؤمنين. فهل تكرهون منا إلا إيماننا، مقابل فسقكم، وقد علمتم أننا على حق، وأنكم على فسق من أمركم. فقد حكمتم لنا بالعيب والكراهية في مكان المدح، فالأولى مدحكم لنا، لأن الإيمان بالله وبكتبه محل مدح لا ذم، فالأولى والأليق بكم المدح أو السكوت. وقد ذكر الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى أوجه من دلالة النص الكريم: وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان، كأنه قيل: وما تنكرون منا إلا مخالفتكم، حيث دخلنا في الإسلام وأنتم خارجون منه. ودلالة أخرى: وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون. وكذلك من الدلالات: وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم، وفسقكم واتباعكم الشهوات [٢]

وقد وصف الله تعالى أكثرهم بالفسق ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ وهذا من عدله سبحانه وتعالى بأن وصف أكثرهم بالفسق، واستثنى القليل منهم، ووصفهم بنعت الفسق لما يحمله من الاستحقاق الوصفي لهم، ولأعمالهم، ولعبهم واستهزائهم بدين الله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وكتابه، والمؤمنين. والفسق كما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٦/٦)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٦٥/١)

ذكر الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: خروج عن الشرع، وهو أعم من الكفر، ويقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه [١] مما يبين أنهم عرفوا الحق وخرجوا عنه، اتباعاً لشهواتهم واستكبارهم.

ثم يتكرر نداء الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، ليخاطب بخطابه أهل الكتاب ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنون بنا؟ وهم أنتم المتصفون بهذه الصفات التي أولها ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ بالمسخ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ أي: الشيطان، وذلك بطاعتهم له، فإن كل ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت، فهؤلاء المذكورين بهذه الصفات القبيحة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات القبيحة التي هي صفاتهم؛ هم شر مكاناً، لأن مكانهم النار، وأما المؤمنين الذين نقمتم منهم فلا شر في مكانهم. وكذلك سيكون هؤلاء الناقمون في شر مكان من الشر الذي هم فيه، من شر الكفر في الدنيا، ومن ألم الحسد، والخوف، وما يعلمونه من الحقيقة التي يكابرون فيها، إلى ما هو أشر، وهو ما أعده الله تعالى لهم في الآخرة من العذاب الأليم المهين.

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أوجهاً لدلالة النص: أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً في الآخرة من مكانكم في الدنيا، لما لحقكم من الشر. وقيل أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً من الذين نقموا عليكم، وقيل: أولئك الذين نقموا عليكم شر مكاناً من الذين لعنهم الله[٢] وهذه الأوجه تفيد سعة النص القرآني الكريم وغزارة أوجهه التي تشمل وتستوعب جميع ما يمكن أن يعطيه النص من الدلالات المتضافرة، التي تتعاضد عن هؤلاء الناقمون الكافرون. فهذه غاية في البلاغة البيانية، أن يعطي النص دلالات متضافرة ومتعاضدة ومتناسقة، فهم في شر مكان يوم القيامة مما لحق بالمؤمنين من شرهم، وهم كذلك سيكونون في أشر من الشر الذي هم فيه من الكفر. ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وأنتم يا أصحاب هذه الصفات القبيحة أشد انحرافاً عن الطريق القويم، وأكثر جوراً وبعداً عن سبيل الرشاد والاستقامة. فهل هؤلاء الذين عبتم عليهم إيمانهم شرٌ أم من لعنهم الله وغضب عليهم ومسخهم، واتبعوا الشياطين ولم يتبعوا ما جاءهم عن الله من الحق.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٨٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٦)

فهذا البيان الرباني عظيم في بيان حقيقة موقفهم إزاء المؤمنين، وذلك من خلال مواجهتهم بسؤال توبيخي وبياني؛ عن عمق الحقيقة التي تضمنت المقارنة التي لا يستطيعون الفكاك من حقيقتها، والملجمة لهم بما يعرفون ويفهمون من الحق؛ والذي ما صدهم عنه إلا الكبر والحسد. فقل لهم يا محمد: أهؤلاء المؤمنون بالله وبكتبه، الذين تستهزئون وتنقمون منهم شرٌ أم من لعنه الله، وهم المقول لهم، الموصفون بما يعرفون عن حالهم من كثرة ذنوبهم، حتى مُسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، واتبعوا الشياطين في غوايتهم.

ثم بين الله تعالى سلوكهم وأسلوبهم في التعامل مع المؤمنين ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ فهم إذا دخلوا على المؤمنين قالوا كذباً وبهتاناً: أننا مؤمنون مثلكم، وهم يكذبون، وإذا خرجوا من عند المؤمنين، خرجوا بكفرهم كما دخلوا، فلم يتغير من حالهم شيء، فيدخلون كافرين ويخرجون كافرين، مما يبين إصرارهم على الكفر، إذ لم يتأثروا بالمؤمنين وقد جالسوهم. وهم يعتقدون أن المؤمنين قد صَدَّقُوهم، وتحقق مرادهم، فيكشف الله تبارك وتعالى حقيقة ما كانوا يبطنون ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى عالم ببواطنهم، وما كانوا يخفونه من الكفر، إذ هتك سترهم وأفشى بواطنهم سبحانه وتعالى، عالم الغيب والشهادة، ليفيد أنه مهما أخفى الإنسان من خير أو شر عن الناس، فإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، مما يفيد في المسلك الإيمان والأخلاق أهمية مراقبة الله تعالى، وأنه لا تخفى عليه ما يخفى على المخلوقين.

ثم أوضح الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم المزيد عن حال المنافقين منهم، حيث يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، فيقول تبارك وتعالى عن منهجهم السلوكي ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ فهذه ثلاث صفات تدل على جرأتهم في مواقعة المعصية ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ فأغلبهم وأكثرهم أصحاب جرأة على تعمد اقتراف هذه الثلاث المعاصي، بما يفيد أن القليل منهم ليسوا كذلك، وهذا من عدل الله تعالى في حكمه عَزَّ وجل، فالصفة الأولى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ ﴾ فيبادرون ويُسابقون في ارتكاب الإثم، وكلمة ﴿ يُسَٰرِعُونَ ﴾ تدل على المبادرة المتصفة بالسرعة، مع التسابق السريع في تحصيل المعاصي، والتي أولها ﴿ ٱلْإِثْمِ ﴾ وهي تدل على الكفر، وقيل المعاصي. وأما الصفة الثانية: ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وهو الظلم، ومجاوزة الحد فيما حدَّه الله تعالى لهم؛ بالتحليل أو التحريم.

مما يبين أن تحقق الظلم يكون في مجاوزة حدود الله تعالى، بظلم غيره وظلمه لنفسه، بتأثيمها التأثيم الذي يتحقق به العقاب لها. والصفة الثالثة: ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ ﴾ وهو الحرام، وكلمة السحت تفيد: كل كسب لا يحل، فاستجمعت دلالة ﴿ٱلسُّحۡتَ ﴾ مجموعة من المحرمات، كالرشوة والربا. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن فيها ثلاثة أقوال: الرشوة في الحكم، والرشوة في الدين، والربا[١] والسحت هو كل مال حرام. وجاء الوصف في أخذ المال الحرام بدلالتين من التوبيخ، الأولى: وصف الأخذ بصفة الأَكل ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ ﴾ ليزداد شناعة في التصوير، لأن الأموال تتعاطى بالأيدي، وتصريفها يكون في الأَكل وفي غيره، ولكن تخصيصها بالأَكل إظهار لقوة شناعتها، مما يدل على تحريم جميع أوجه التعاملات الباطلة، حيث يتحقق بها أَكل أموال الناس بالباطل، إذ ليس المقصود الأَكل الذي هو استطعام الطعام إلى الجوف، وإنما الاستباحة بأي طريقة محرمة، فهو أبلغ في الذم في هذا المقام، ليفيد التشنيع والتهويل، لأن الأَكل يفيد الاستطعام ودخول المطعوم إلى الجوف، وتغذية الجسم بهذا المطعوم المحرم.

والدلالة الثانية: للفظة ﴿ٱلسُّحۡتَ ﴾ الذي هو الحرام، بأنهم يُدخِلُون في أجوافهم ما حرمه الله تعالى، فيقتاتون بالمحرم من المعاملات، فيأكلون أموال الناس بالباطل، وإذا حصل التَّمَعُن في دلالة كلمة ﴿ٱلسُّحۡتَ ﴾ من حيث اللغة: ظهر وتبين أنها تعني الإزالة، فهو يسحت ويزيل مرؤة ودين متعاطيه، ويلحق ويلزم صاحبه العار، لأنه أزال مرؤته، فيدل ذلك على أن الحرام يوقع فيما يُسحت دين مقترفه، ولذلك سُمّيت الرشوة سحتاً[٢]

ثم قال تعالى عن فعلهم هذا ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فهذا توبيخ لفعلهم بأقصى معاني التوبيخ، لأن دلالة كلمة **(بئس)** تجمع جميع صفات الذم كلها، فهي أبلغ وصفاً عند إرادة عظيم الذم وأبلغه. مما يفيد أن معناها: بئس العمل عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم، وبئس أَكل الحرام أَكلهم، فاستوفت أعمالهم غضب الله تعالى، وسخطه وبغضه لهذه الأعمال، مما يُوجب على المؤمن الحذر من تلك المسالك اليهودية من النفاق والكفر واستحلال الحرام، وعموم فسقهم، والحذر من معصية الله تعالى جميعها.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٢٩٧)

(٢) انظر دلالة لفظة السحت في كتب اللغة، ومنها، الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٢٢٥)

ثم يعاتب الله تعالى مَنْ لهم حق النصح والنهي عن ارتكاب المحرمات ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أفلا ينهاهم ويعاتبونهم ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ وهم علماؤهم من العمال والساسة والقادة، وكذلك ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الذين هم العلماء فقط، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى[١]

ثم يُقْسِمُ اللهُ تبارك وتعالى على هذا الصنيع بأنه استوفى كمال الذم ﴿لَبِئْسَ مَا يَصْنَعُونَ ﴾ فهذا قسم من الله تعالى: لبئس الصنيع الذي كان يصنعه الربانيون والأحبار؛ بتركهم النهي عن الذي كان يسارعون فيه من الإثم والعدوان وأكل السحت. وكان العلماء يقولون عن هذا النص من كلام الله تعالى: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية[٢] وفي هذا التوبيخ للعلماء ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ ما يفيد أهمية أداء أمانة النصح والنهي عن الباطل، لئلا يقع الساكت عنه في مثل هذا التوبيخ. فكان العلماء الساكتون عن تلك المعاصي في التوبيخ مثل الذين وبخهم الله تعالى في مسارعتهم في معاصي الإثم والعدوان وأكل السحت، فقال تعالى فيهم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ومن الفوائد البيانية أن الله تعالى وصف ما قام به المتسارعون في ارتكاب معاصي الإثم والعدوان وأكل السحت؛ حينما ذمهم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بينما وصف سكوت الربانيون والأحبار حينما ذمهم بالصنع ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ وذلك أن ما قام به المتسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، هو عمل قاموا به، فَسُمِّيَ عملاً، بينما العلماء امتنعوا عن النهي؛ فلم يعملوا شيئاً من النهي، فلم يسم امتناعهم عملاً، بل صناعة، فجعل المذموم منهم صناعة، لأنهم تصنعوا السكوت. وهذه من الدقائق البيانية في القرآن الكريم التي تُظهر عظمة دقته المتناهية التي تُثبت أنه كلام الله تعالى.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٢٢٥) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٧/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٠/٨-٥٥١)

أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى ويبين ما وصف به اليهود ذات الله تعالى العظيمة؛ من النقص والضعف، سبحانه وتعالى عَمَّا يقولون علواً كبيراً ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فهذا وصف بالبخل منهم لله سبحانه وتعالى، مما يفيد عظيم جرأتهم، وقلة حيائهم من الله تعالى، وهم يعنون بهذا الوصف أنه بخيل. فتعالى الله عَمَّا يقولون علواً كبيراً، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم لا يعنون بذلك أن يد الله موثوقة، ولكن يقولون: بخيل، يعني: أمسك ما عنده بخلاً، فتعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[١] فقد وصفوه بما ليس من صفاته، بل وصفوه بما هو ضد صفاته الكريمة، فإن الله يعطي بلا طلب، ويوسع العطاء بما يرى، مع إضفاء الحكمة في كل عطاء له سبحانه وتعالى، فجود عطائه على كافر ومؤمن. وإيراد ما قالوا هو توبيخ لهم، إذ كيف يقولون ذلك عن ربهم تبارك وتعالى؟ كما أن وصفهم له عَزَّ وجل بذلك دليل على أنهم يعترفون به رباً، فكيف يصفون من يعلمون أنه هو الذي أوجدهم وأعطاهم ويميتهم ويحيهم، وهو الذي نجاهم من فرعون وجنوده، مع عفوه عنهم فيما كان منهم مع نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، فكيف يقولون ذلك لمن يعترفون بربوبيته؟ بما يبين أنهم أهل افتراء وكذب وعناد، فإذا كان هذا مع ربهم عَزَّ في علاه، فكيف تعاملهم ونظرتهم لأنبيائهم، ولرسوله صلى الله، وللعباد؟

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله جَلَّ جلاله ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ فحكم الله تعالى عليهم بما يستحقون، فحكم عليهم من جنس قولهم ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بخلت أيديهم، وامتنع الكرم والبذل والجود منهم، فهم أبخل وأنكد الناس وأجبنهم، بل ولعنهم الله تعالى على قولهم وافترائهم ﴿ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ وطُردوا من رحمته تبارك وتعالى لقولهم ووصفهم هذا الوصف لربهم تبارك وتعالى، وتنزه عَمَّا يقولون علواً عظيما. ثم بين الحق سبحانه وتعالى حقيقة صفاته فيما قالوا ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ بل كريم جواد، إلى درجة البسط والسعة والتوسعة، مع القدرة والمشيئة الكاملة في سعة العطاء وفيما يعطي وكيف يعطي ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وقد ابتدأ الرد عليهم بلفظة ﴿ بَلْ ﴾ التي أفادت في هذا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٧٨)

السياق النفي لما قالوا، فليس الأمر كما ذكرتم، بل عكس وضد وصفكم ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ فأفادت التصحيح المبطل لما كان قبله، وإثبات ما بعده.

ودلالة ﴿مَبۡسُوطَتَانِ﴾ تدل في معناها على الوسع، وعلى العطاء الذي لا يتناهى، وقد ذكر اليهود، يد الله بالمفرد ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ وذكر الله تعالى يده بالتثنية ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ ليكون أكثر دلالة على كمال العطاء وغاية السخاء، خاصة وقد أُضيف إليها البسط ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ ثم أضيف إليها الإنفاق، ليبين المزيد من الإمعان، والتأكيد على صفة انبساط العطاء، وهو السعة، وإذا أُضيفت لها ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ جاء البيان بما يبين القدرة المطلقة في مشيئة الإنفاق، والمتناهية في الاختيار والاختصاص، والاستثناء بما يريد لمن يريد؛ من غير مانع له سبحانه وتعالى، العظيم والكريم في عطائه ورحمته وجوده وكرمه.

ودلالة جملة ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ أفادت وأكدت كمال المشيئة لله تعالى، مع كمال الجود والعطاء، وأفادت أن إنفاقه عَزَّ وجل ليس كما يشاء غيره من خلقه، بل كيف يشاء هو، فإن شاء وسَّع، وإن شاء ضَيَّق، فهو الحكيم في توسعته وفي قبضه. فأعطت جملة ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ كمال الحكمة، وكمال المشيئة، وكمال الملك، وعظيم الملك، وكمال العزة، وكمال الغنى، وكمال الجود والكرم، في أي وقت، ومن أي شيء شاء، ومتى يشاء، وكيف يشاء، فسبحانه هو العظيم الغني المتعال.

ومن الفوائد الإعجازية: أن الله تعالى أظهر لنبيه صلى الله عليه وسلم ما كان منهم؛ مما لا يعلمه إلا أحبارهم ورهبانهم، فكيف للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم معرفتها؟ إلا بوحي من الله تعالى، حتى يتأكد لهم ولغيرهم أنه نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بما أخبرهم من خصوصياتهم، ومكنوناتهم التي لا يعرفها إلا خواصهم، بل إن في ذلك آية لكل أحد من الناس بأن هذا نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد الدلالية البيانية: أن ذكر البخل باليد، أو التعبير عن العطاء باليد، لأن عطاء المعروف والبذل غالباً ما يكون باليد، فأضيف العطاء والإنفاق إلى اليد، ليعبر بها عَمَّا يُضاف إليها من صفة المدح أو الذم، بالكرم أو البخل.

ثم بين تبارك وتعالى أثر ما أَنْزَلَه من الدين على اليهود وغيرهم من الكافرين ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ فهذا الدين بما اشتمل عليه من القرآن والسنة والتشريع، فإن أثره على

الكثير من اليهود ومن هم على شاكلتهم اثر بالغ، حتى أنهم يتجاوزون في حسدهم وكفرهم إلى درجة المبالغة في العناد والعصيان. لأن الطغيان: مبالغة في العصيان والتمرد، ثم يتأكد طغيانهم بتأكيد كفرهم بآيات الله تعالى؛ جحودا وتمادياً. إذ تفيد دلالة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ الاضطراد المتزايد والمتتابع في تلاحق ازدياده، فكلما نزل شيء من القرآن الكريم ازدادوا به حنقاً ومبالغة في الحسد والطغيان، فكأنه نتيجة قوة حسدهم يتعذبون بتألمهم مما ينزل من الحق، لشدة عداوتهم، وكفرهم وحسدهم والعياذ بالله تعالى من ذلك. ودلت جملة ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أن هذا في غالبيتهم، وأن القليل منهم ليسوا كذلك، وقليل منهم من دخل في الإسلام، وهذا يدل على عدل الله تعالى في أحكامه عَزَّ وجل، إذ لم يُدخل القليل مع الكثير في حكمه وبيانه عَزَّ وجل، مما يستوجب على المؤمن العدل في حكمه. وكلمة ﴿طُغْيَانًا﴾ تفيد تجاوز الحد في المعصية، بما يفيد الإمعان والمبالغة في مخالفتهم لشريعة الله تعالى. إذ يشمل الطغيان الغلو في الكفر. وكلمة ﴿وَكُفْرًا﴾ تفيد في دلالة معناها التكذيب، وتفيد جحود النعمة وإنكارها، بعدم الاعتراف بها، والاستهانة بها، وعدم الاكتراث بقيمتها وأهميتها نتيجة الطغيان، وقد أنعم الله تعالى عليهم بنعم ومعجزات عظيمة، فقابلوها بالمعصية وعدم الحمد والشكر. كما أن الكفر أعم من إنكار النعمة، إذ يشمل جحود الوحدانية أو الشريعة والنبوة.

ثم عاقبهم الله تعالى على طغيانهم وكفرهم أن جعل فيما بينهم العداوة والبغضاء ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تجتمع قلوبهم على بعضهم البعض، بل في قلوبهم عداوة لبعضهم البعض، لأنهم لا يجتمعون على حق يوحد قلوبهم، فلذلك تكثر فيهم الخصومات والجدال والكراهية.

ثم يبين الله تعالى منهجهم في التعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين، وذلك بإشعال الفتن، ولكن الله تعالى يخمدها بقدرته العظيمة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فكلما أبرموا وعقدوا أمراً وسبباً للمحاربة والمكر، أبطل الله ذلك الكيد والمكيدة، ورد كيدهم عليهم، فحاق مكرُهُم بهم. فيشتت الله تعالى جمعهم كلما أعدوا وجمعوا، مما يبين أن المؤمن إذا كان مع الله تعالى كان الله معه على العدو، بل يُبطل كيد العدو، ويجعل كيده عليه حسرة وألماً، لأن لله جنود السماوات والأرض. كما يفيد هذا أن أهل الكفر في عزيمة على إيقاد نار الفتنة، مما يوجب على المسلمين اليقظة والانتباه لذلك.

ومن الفوائد: أن هذا يدل على عمق وقوة اجتهادهم في إشعال الفتن، وإيقاد الحرب، فهذا مثلٌ ضُرِب لاجتهادهم في إيقاد الحرب، وذلك لتصوير ما كنوا عليه، وسَمَّى الله تعالى مقدمات الحرب بالنار ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ مما يبين أنهم لا يألون جهداً في إشعال أسباب الحرب، بل يعملون بجد واجتهاد في خلق الفتن،

وابتكارها، لإثارة دواعي الحرب، حتى تُحرق وتُنَكِّل بالمؤمنين. فكلما أهاجوا شراً، بخلق الفتن وابتكارها، لإثارة دواعي الحرب بهذه النار المحرقة، لتحرق وتُنَكِّل بالمؤمنين أطفأها الله تعالى بقدرته ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ وسَمَّى اللهُ تعالى من يسعى فيها بالموقد ﴿أَوۡقَدُواْ﴾ لتفيد وتبين ما يسبق ذلك من الإيقاد، والتحريك والتهييج، وذلك بجمعهم للعلل والحيثيات التي يريدون بها إشعال نار الحرب، كمن يجمع الحطب من هنا وهناك ليشعل النار. وهي صورة بالغة في الإيضاح والبيان. وسَمَّى الله تعالى تلك المقدمات للحرب بالنار ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ﴾ لإيضاح أن صورة ما يقومون به هو إضرام للنار المحرقة التي تتحقق بها الحرب. وهذا من قوة البيان الكريم في إيضاح الصورة والهيئة لأعمالهم الخبيثة.

ثم من أُسلوبهم وسجاياهم وأخلاقهم السعي بالفساد ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾ والسعي يفيد المشي والانتقال بهذا الفساد بين الناس، لتحقيق مآربهم. وكلمة ﴿فَسَادٗا﴾ تبين هدف السعي ومحتواه، بأنه للإضرار بالأمة، وأن محتواه يشمل جميع أنواع الإضرار، وجميع أنواع المعاصي، فلا حدود لمحتوى الفساد. لأن معنى كلمة ﴿فَسَادٗا﴾ تفيد العموم، أي عموم الفساد، فاستوعبت جميع أنواعه ودرجاته وأساليبه، فاستوفت الكلمة جميع ما كانوا يقومون به من الإفساد. كالغدر، والدسائس، والمعاصي، والكفر، والظلم، والتحريش، وجميع ما يدخل في دائرة الفساد ومساحته الواسعة. فقد كانوا يسعون في إبطال الإسلام، وهو من أعظم الفساد وأشنعه، فيقهرهم الله تعالى ويوهن أمرهم.

ثم بين تبارك وتعالى أنه لا يحب المفسدين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فنفى محبته تبارك وتعالى للمفسدين وللفساد ولفسادهم، بما يفيد بغضه للفساد والمفسدين. مما يبين للمؤمن أن واجبه هو التوخي والحذر، والبعد عن كل ما يتصف بصفة الفساد، فلا يستجلب لنفسه بغض الله تعالى له. فإن الله لا يحب الفساد. وهذه قاعدة عظيمة جليلة في معالجة الإنسان لنفسه، فكلما استهواه الفساد؛ قال لنفسه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وإذا استدعاه أمر، أو أحد للفساد، عالج الأمر بقوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وإذا رأى فساداً، قال لأصحاب الفساد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لتكون هذه الموعظة الربانية موعظة زاجرة، وعلاجاً لمحاربة الفساد، وتطهيراً للنفس منه.

ثم يبين سبحانه وتعالى عظيم مغفرته ورحمته: بأنه على الرغم مما عمل أهل الكتاب من تلك الذنوب العظيمة، إلا أنه يقبل التوبة منهم لو تابوا؛ فآمنوا واتقوا؛ فإن الله تعالى يغفر لهم، ويدخلهم جنات النعيم ﴿وَلَوۡ

﴿أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فلو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فصدقوه واتبعوه، وجمعوا بين الإيمان والتقوى، فقرنوا إيمانهم بتقوى الله تعالى فيما نهاهم عنه، وذلك باجتنابه، لكفر عنهم سيئاتهم. ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: لمحونا عنهم ذنوبهم ،ولم نؤاخذهم بها، وسترناها بتغطيتها، حتى لا نفضحهم بها، وأيضاً ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فبَلَّغْنَاهُم المأمولَ والمطلوب في الآخرة، وهي جناته سبحانه وتعالى، الموصوفة بالنعيم، وصفة ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ تدل على النعمة الكثيرة، التي لا حدود لها، والتي فيها طيب العيش، ولينه وخصبه، الذي لا يزول.

وهذا الوعد من المغفرة وتحصيل جنات النعيم لأولئك الذين تفاقمت ذنوبهم وعداوتهم لله تعالى فيما لوا آمنوا واتقوا، مما يفيد عظيم رحمة الله تعالى، فكيف بالمؤمن إذا تاب واستغفر من ذنوبه وعاد إلى ربه، بالتقوى والطاعة. فإن في هذا لبشرى لكل من تاب ورجع إلى الله تعالى. ومن مزيد الفوائد أن بينت الآية الكريمة العلاقة الترابطية بين الإيمان والتقوى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ فالإيمان إقرار، والتقوى تطبيق، فالتقوى خوف من الله تعالى، ورجاء وطمع في الله تعالى، فتستلزم التقوى والإيمان: العمل بأركان الإيمان وبشريعة الله تعالى.

ثم قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ فلو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وكذلك ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[١] قال ابن عباس وغيره: هو القرآن، أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه؛ من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعلم بمقتضى ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم. فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه حتماً؛ لا محالة[٢] وهذا يفيد أن كتبهم من التوراة والإنجيل مبشرة وهادية إلى ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، فلو أقاموا ما فيها كما أُنْزِلت لآمنوا بالقرآن الكريم، وآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد بين الحق تبارك وتعالى معرفة أهل الكتاب

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٤/٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٩/٢)

بنبي الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أولادهم، حيث قال الله تعالى في سورة البقرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بما يفيد انتفاء وامتناع العذر والجهل عنهم.

فلو فعلوا ذلك من الإيمان والاتباع والطاعة؛ لأغدق عليهم ربنا تبارك وتعالى الرزق والبركة التي وصفها عَزَّ وجل بقوله الكريم ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ أي: أكلوا من بركات السماء والأرض، ومعنى ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ أي: بأن أنزل عليهم المطر الذي هو سبب الإنبات؛ ووفرت المياه، وكذلك أكلوا من نبات الأرض ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ أي: من نبات الأرض، أي فلأنبت الله تعالى لهم من الأرض ما يغنيهم ويكفيهم من المطاعم. وهذا يفيد أن الطاعة تجلب الأرزاق والتوفيق من الله تعالى لعباده.

ومن الفوائد البيانية ما قاله الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ أن ذكر فوق وتحت، للمبالغة فيما يفتح عليهم من الدنيا[١] وهي كناية عن كمال النعمة وإحاطتها بهم إحاطة متعاظمة من كثرة فيض وعطاء الله تعالى، وهذه كناية عن المبالغة في عطاء الله تعالى وكرمه لهم، وسعة عطائه، وفيها اطماع وترغيب وتأليف، فإذا كان هذا في حق أهل الكتاب الذين تمادوا في المعصية والكفر إن آمنوا واتقوى، فكيف بالمؤمنين إذا التزموا شريعة الله تعالى، وفي هذا دليل على عظيم رحمة الله تعالى، ومحبته لتوبة عباده، فسبحان الله العظيم الرحمن الرحيم.

ثم بين تبارك وتعالى حالهم ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ فمنهم جماعة متصفة بالاقتصاد، وهو العدل، وهو الوسط الذي لا مبالغة وغلوا ولا تقصير فيه، بل على الاستقامة يسيرون، فهم أهل اعتدال في القول والعمل، من غير غلو ولا تقصير. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: المقتصدون منهم؛ هم المؤمنون، كعبد الله بن سلام ومن تبعه. ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ وهم المصرون على الكفر، المتمردون عن إجابة محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بما جاء به[٢] وهذا يفيد ويبين أن أكثر أعمال أهل الكتاب هي السيئات، إذ لم يقيموا أحكام وحدود التوراة والإنجيل، وما فيهما من نعت رسول الله صلى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٦/٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٨/٢)

الله عليه وسلم. فكثير منهم قد اتصفت أعمالهم بالسوء. إذ بلغت مبلغاً ذميما من الإساءة، فهي أعمال سوء محض. وهذا من عدل الله تعالى في الحكم، مما يتعلم به المؤمن أن يكون عادلاً في أحكامه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ابتدأ هذه الآيات العظيمات بمخاطبة الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، بأن يُبَلِّغ ما أُنْزِل عليه من القرآن الكريم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يا من كلفناك بالرسالة، فإنه يلزمك ويجب عليك أن تُبلغ جميع ما أرسلك ربك به إلى الناس. وقد بدأ الأمر الكريم بياء النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ثم تخصيص الْمُخَاطَب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ فهو نداء خطابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيغة النداء. وكذلك هو مناداة للرسول صلى الله عليه وسلم بصفة الرسالة. وفي هذا تعظيم لما أُرسل به، وتعظيم لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كان هذا النداء من الله تبارك وتعالى نداء تكليف للنبي صلى الله عليه وسلم على شدة ما يُدرك مما سيواجه من قومه. مما يكشف ويبين أنه قد تحمل أمراً عظيماً. ويفيد قوله عَزَّ وجل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أن دين الله تعالى كُلٌ لا يتجزأ، ولا يتفكك عن بعضه البعض، وأن الواجب في إبلاغه؛ هو إبلاغه كله، وواجب على من أخذه أن يأخذه كله، فمن قبل شيئاً منه، وترك شيئاً منه فما أخذ برسالة الله تعالى، وكذلك من بَلَّغ جزءاً من رسالة الله تعالى وأخفى شيئاً فما بلغ الرسالة.

ومن الفوائد البيانية أن دلالة التبليغ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تعني: جعل شأن تبليغ الرسالة بالغاً ظاهراً، بإيصاله لشأنه المطلوب والمأمور به، بما يكفل وصوله للناس. وفي هذا تقوية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتجاسر على المعاندين وعلى ما يواجه من شدة قومه، وغيرهم. مما يفيد أهمية مجاهدة النفس على القيام بما كُلِّفت به. وقد كان صلى الله عليه وسلم في قوة وشجاعة في تبليغ الرسالة، كما أوضحته سيرته صلى الله عليه وسلم. فقد جمع الناس في مكة وأبلغهم، وذهب إلى الطائف، وهاجر إلى المدينة من أجل وصول الرسالة للناس أجمعين.

ومن دقائق البيان كذلك تأكيد الرسالة بأنها من ربك ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ تعظيماً لها، وتعظيماً لمن اختاره الله تعالى رسولاً لإبلاغها صلى الله عليه وسلم. كما ورد وصفها بالنزول ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لإفادة أن تلقيها هو من العلو، من الله تعالى ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ كما تضمن الإيراد بأنها ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ الذي أفاد وأظهر الربوبية، بأن الله تعالى ربك، وبالتالي سيكون لك الحفظ من الناس، لأنه ربك المتولي أمرك وأمر الخلق أجمعين.

ثم عضد الله تعالى هذا الأمر التكليفي العظيم بالتحذير من عاقبة عدم القيام به. فيقول له جَلَّ جلاله ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وحال أنك لم تقم بتبليغ ما أنزل إليك، فإنك لم تؤد ما كُلِّفت به. وهذا شرط، مفاده أن هذا الشأن من عدم التبليغ لا يمكن أن يكون من هذا الرسول الأمين. وليتبين للناس أنه عليه الصلاة والسلام لن يتوقف عن إبلاغ الرسالة مهما كان منكم من محاربته، والوقوف ضده. فهو مأمور ومكلف من ربه عَزَّ وجل. وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم الرسالة على أكمل وجه عليه الصلاة والسلام، كما استشهد على الناس في حجة الوداع بقوله صلى الله عليه وسلم (ألا هل بلغت)[١] كما أن في هذا شحذ لهمة المؤمنين بالاستمرار فيما بُعث به صلى الله عليه وسلم. وأن عليهم مساندة رسوله عليه الصلاة حتى يتم إبلاغ رسالة الله تعالى للناس. وليستمر غيرهم من بعدهم على هذا النهج إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى معجزة ربانية لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى يعصمك من الناس أن يلحقوا بك أذى، وقد عصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم كما وعده، فتقدم الصفوف، وحارب وقاتل، وجهر بالدعوة، وتجرأ البعض على أن يقتله، بل ودُسَّ السم في طعامه، ولم يتحقق لأحد من الخلق مراده بقتله صلى الله عليه وسلم، حتى توفاه الله عَزَّ وجل.

ثم بين الله تعالى حكمه في توفيق وهداية الكافرين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فمن كفر وصد عن سبيل الله تعالى فلن يوفقه الله تعالى للرشد، ولن يسدده، قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: ومعناه أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك[٢] ويُستفاد من ذلك أن من لم يهده الله تعالى فلن تكون له على المؤمنين قوة ونصرة، لأن ليس له حظ من توفيق الله تعالى ونصرته، وليس له نصيب من الهداية، لتكون العزة والهداية والتوفيق للمؤمنين الذين آمنوا به سبحانه وتعالى وأطاعوه، وهذه معجزة باقية ما بقيت

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٠٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٦٧٤)

الدنيا. وإن حصل للكافرين نصر ودولة فبحكمة من الله تعالى، ولعلة قد تكون بسبب من تقصير ومعصية المؤمنين، أو لحكمة أرادها الله تعالى، لا يعرفها العباد. وهذا باعتبار الارتباط ما بين نهاية الآية وبين أوائلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلن نمكنهم مما يريدون بك من الهلاك يا أيها الرسول. وبالاعتبار العام فإن الله تعالى لا يهديهم إلى الجنة، ولا تعارض بين الدلالتين، بل إنه يتحقق من دلالة النص كلا المعنين، وهذا من غزارة البيان القرآني الكريم، وعمق بلاغته في تحقق مجموعة من المقاصد والدلالات بأقل الألفاظ وأوجزها.

ثم يتكرر الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بمناداة أهل الكتاب ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وفي الأمر بمناداتهم بصفة أهل الكتاب، ما يفيد بقاء الاعتبار الذي هو حجة عليهم بالرغم من مخالفتهم للكتاب، وبما يفيد ملاطفتهم عند دعوتهم، ومناداتهم بما يحبون من الفضل، وإن كان مسلكهم مخالف ومضاد لحقيقة ما يحبون أن يكونوا عليه من الفضل، وذلك من باب الترغيب في الدخول في طاعة الله تعالى، مما يفيد أن المنهج الإسلامي منهج لطف في دعوته، وفي ترغيبه، وتعامله، وأنه منهج تكريم في المخاطبة والمناداة. مما يعطي المنهجية الراقية للداعي والمربي والناصح والموجه بأن يستخدم مكارم الألفاظ، لأنها أدعى للاستماع والإنصات.

ثم يعقب هذا النداء بيان للحقيقة التي يستوجب أن يقوم بها أهل الكتاب ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فلستم على الحقيقة من الدين حتى تستوفوا العمل بما في التوراة والإنجيل، ومن ذلك الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أُنْزِل عليه، والذي نص عليه ما أُنزل عليكم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وفي قوله تعالى ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ نفي لصحة ما هم عليه، وتحقير لما يعتقدون من أنهم أهل كتاب؛ قائمون به. فنفى سبحانه وتعالى أنهم على الحقيقة، حتى يستوفوا شرط العمل الكلي ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وفي ذكر التوراة ثم الإنجيل، ثم ما أُنزل إليهم، ليدل على أنه القرآن العظيم. فهو دليل على أن التوراة والإنجيل توجب عليهم الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما أُنْزِل عليه، وهو القرآن الكريم.

ثم أبان تبارك وتعالى أن ما أُنزِل من القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم سيزيد كثيراً من أهل الكتاب طغياناً وكفرا ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًا﴾ ستكون ردة فعلهم عارمة، إلى درجة أنهم سيتجاوزون الحد من التكذيب لك، وجحود نبوتك، والكفر والإنكار لما جئت

به. وهذا نتيجة الحسد الذي تملَّك قلوبهم، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فلا تحزن من تكذيبهم وجحودهم لنبوتك، وكفرهم وطغيانهم.

ثم بين سبحانه وتعالى فصل الخطاب في أحوال المؤمنين من الطوائف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فكل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وعملت عملا صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد ارسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون[1] وأما المقصود بالذين آمنوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هم أهل الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ هم المؤمنون من اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ فرقة منهم، وقيل إنهم قوم أو فرقة مستقلة ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ هم أهل الإنجيل، فهؤلاء منهم من كان قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فالمؤمنون منهم بالله تعالى وبما جاء عن الله تعالى، فعملوا؛ فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. وأما بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم، فلا دين إلا دين الله تعالى الذي أنزله على خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ذكر الله تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل العهود والمواثيق على السمع والطاعة لله ولرسله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا أهواءهم وأراءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافق أهواءهم قبلوه؛ وما خالفها تركوه وردوه، وكان من أسلوبهم مع أنبيائهم ما قاله سبحانه وتعالى ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٣/٢)

﴿أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ فإذا جاءهم أولئك الرسل بما لا يشتهون كذبوا فريقاً من أولئك الرسل، وقتلوا فريقاً آخر. ويؤكد هذا البيان من الله تعالى خطورة هوى النفس، وأن هذا الهوى إذا تابعه الإنسان ضل عن الطريق المستقيم، بل ورأى الباطل حقاً؛ والحق باطلاً، إلى درجة الثقة في النفس، واستبعاد مخاطر وتبعات الضلال، ولهذا قال تعالى ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع عليهم من الله عزَّ وجل ابتلاء واختبار بالشدائد، وذلك أنهم مغرورون ومخدوعون كما ورد عنهم في سورة البقرة بقولهم كذباً وبهتاناً ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فقد تجاهلوا الحق وصدوا عنه بأقوى وسيلتين ونعمتين عظيمتين من الله تعالى؛ وهما البصر والسمع ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ فحالهم تجاه الحق هو حال من لا يبصر ولا يسمع، إمعاناً منهم في الصدود عن الهدى والبينات من الله تعالى، فلا يسمعون حقاً، ولا يهتدون إليه، وهذا يدل على أن الإنسان قد يسمع ويرى الحق ولكنه لا يتبعه، ولا يهتدي إليه؛ وذلك لتغليب هوى النفس على الحق، وتعطيل أثر السمع والبصر في سماع ورؤية الحقيقة،

كما يبين هذا خطورة اتباع الهوى، والتمادي في المعصية، فلا يأمن الإنسان العقوبة من الله تعالى.

ولكن من رحمة الله تعالى عليهم أن تاب عليهم لَمَّا تابوا مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي تابوا فتاب الله عليهم، بكشف القحط، أو بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم يخبرهم بأن الله يتوب عليهم إن آمنوا، فهذا بيان ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [1] ولكن كثيراً منهم معاندون بعد أن تاب الله تعالى عليهم، فانقلبوا على أعقابهم، بالعودة إلى معصيتهم وقبحهم ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فأكدت ﴿ثُمَّ﴾ تكرار ترتيب العودة إلى تجاهل الحق، بالصدود عنه، من خلال مخالفتهم لما رأوا وسمعوا من الحق، فحالهم هو تعطيل السمع والبصر عن رؤية الحق وسماعه ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ ومن عظيم حكم الله تعالى أن خص بعضهم بالفعل، وليس كلهم ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنهم لم يجتمعوا كلهم على المعصية. ثم ختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة ببيان كمال وتمام علمه بهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء، فيجازيهم بما يستحقون على أعمالهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١٦٠-١٦١)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

استهلت الآية الكريمة بتقرير كفر الذين تجرؤا على الله تعالى؛ فادَّعوا أن الله تعالى هو المسيح عيسى ابن مريم، تنزه الله تعالى وتقدس عما قالوا علواً كبيراً ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فهذه بعض مخازي طوائف من النصارى، في حين أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لهم كما بين تبارك وتعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فبين لهم أنه عبد مربوب لله تعالى، مثله مثلهم؛ الجميع عبيد لله تعالى، فإذا كان المسيح ينفي عن نفسه الربوبية، ويثبت لنفسه أنه عبد مربوب لله تعالى، بل وجههم لهذه الحقيقة من خلال الأمر لهم بصرف العبادة له سبحانه وتعالى، فكيف يَكْذِبُون عليه، ويَدَّعُون له ما لم يذكره لنفسه، بل أثبت أنه عبد لله تعالى، فقال لهم ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فإذا كان المسيح ينفي عن نفسه ذلك، بإثبات العبودية والربوبية لله تعالى، فكيف تقولون بضده.

بل ومن دقة البيان لهم؛ أنه عليه الصلاة والسلام لم يأمرهم بالعبادة فقط بل جمع معها توحيد الربوبية، لتتحقق العبودية ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فاشتمل على أمر وبيان، أمر بالعبودية وصَرّفِهَا لله تعالى ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ وبيان للربوبية ﴿ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ أنها حق لله تعالى. وفي هذا إجلاء وتوضيح بأن

عيسى لم يدَّعِ ذلك، ولم يتلفظ به، بل إن الذي تلفظ به عليه السلام، وأمرهم به هو تحقيق العبودية والربوبية لله وحده لا شريك له، فما قالوه هو محض افتراء، مما يبين ويحذر من مغبة الهوى والشيطان، واجترارِه للإنسان نحو الكذب المخرج من الملة، حيث حكم الله تعالى على من قال ذلك القول بالكفر ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فمن قال بذلك فقد كفر.

ثم بين لهم عزَّ وجل عاقبة الشرك ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ فإن عاقبة الشرك في هذه الآية الكريمة ثلاث عقوبات عظيمة: الأولى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ الحرمان من دخول الجنة في الآخرة. والعقوبة الثانية: ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ فقد وجبت له النار، التي أصبحت مستقراً له ومقاما. والعقوبة الثالثة: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ فما لهؤلاء من ناصر ينصرهم عند الله تعالى، ولا معين ولا مُنقذ يمكن أن ينقذهم من عذاب الله تعالى. وسمى الله تبارك وتعالى المشركين ظالمين ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك؛ اختياراً منهم، وتفضيلاً للشرك منهم على التوحيد، وظلموا من جعلوه إلها، كما ادعت بعض طوائف النصارى بأن الله تعالى هو المسيح ابن مريم، فتعالى الله وتقدس عما قالوا علوا كبيرا. وظلموا من اقتدى بهم. ومن الفوائد أن هذه قاعدة عامة في كل من أشرك بالله تعالى في عبوديته أو ألوهيته أو ربوبيته، فشملت من قال من النصارى ذلك القول، وغيرهم ممن أشرك بتأليه غير الله تعالى.

ثم كرر سبحانه وتعالى نوعاً آخر من بهتان بعض بني إسرائيل ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ فقد استهلت الآية الكريمة الحكم بالكفر على من قال من بني إسرائيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ فقد حكم الله تعالى عليهم بالكفر ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فإن هؤلاء الذين قالوا ذلك: قد كفروا بهذا الافتراء، حيث جعلوا المسيح وأمه إلهين مع الله تعالى، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم[١] ثم قرر تبارك وتعالى قاعدة: بأن الإله لا يتعدد ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فكيف تخالفون الحقيقة، وفي هذا اثبات بوحدانية الله تعالى، فليس في الوجود إله إلا الله سبحانه وتعالى. ففي هذا النص الكريم نفي وإثبات،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٤/٢)

نفي لتعدد الاله الحق وإثبات وحدانية الاله الحق، وهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد. وقد ورد البيان الكريم بأسلوب الحصر ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ حيث ورد النفي ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ثم أعقبه الحصر والقصر ﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فما هو إلا إله واحد. وهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد.

وفي هذا الأسلوب محاجة عظيمة، إذ ابتدأت الآية الكريمة بالحكم على قول القائلين بالتثليث: أن هذا القول كفر، وفي هذا الابتداء ما يدل على تعظيم واستعظام هذا القول المنكر، ثم تفنيد القولين بحكمين مكررين، لتأكيده، ولتزداد في النفوس شناعته، وللإمعان في تفصيله وبيانه، بما يؤكد عظيم هذا القول وفحشه، فالقول الأول هو ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ والقول الثاني هو: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ ثم بعد هذا التفنيد جاء بيان الحقيقة في كلا القولين، فعن قولهم الأول: قال الله تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ وعن قولهم الثاني: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾

ثم تكررت العقوبة بصيغتين مختلفتين، فعن القول الأولى: قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وعن القول الثاني: قوله عزَّ وجل ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فصفة هذا العذاب أنه أليم، شديد الألم من قوة العذاب، فمن بقي على كفره فذاك هو الجزاء، ولكن من لطف الله تعالى أنه قال ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بمعنى: أنهم إن تابوا وانتهوا عما يقولون فلن يمسهم هذا العذاب، وفي هذا ترغيب لهم في العدول عن قولهم، وأن يرجعوا للحق، وهذا دليل على كرم الله تعالى ولطفه ورحمته حتى بمن تجرأ على ربوبيته وألوهيته، فسبحان الله أرحم الراحمين.

ثم يوبخهم الله تعالى بسؤال استنكاري، متضمناً دعوتهم للتوبة والاستغفار ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ ويحمل هذا السؤال الاستنكاري توبيخاً وتقريعاً لهم، إذ كيف يقولون هذا الادعاء الباطل تجاه ربهم تبارك وتعالى. ومع هذا فهو يحمل دعوة لهم نحو التوبة والاستغفار مما قالوا ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ أفلا يرتدعون عن قولهم، ويقبلون دعوتهم إلى التوبة والاستغفار، والرجوع عن كفرهم؟

وفي الجمع ما بين التوبة والاستغفار؛ ما يدل على أن التوبة تعني العهد والوعد بعدم الرجوع إلى الذنب، مع الإقلاع عنه بأحسن الوجوه، وهي أبلغ معاني الاعتذار. ويحمل الاستغفار معاني الرجاء بمغفرة الذنوب، ومحو آثارها؛ وما يترتب عليها من عقوبة، فمن لطفه ورحمته تبارك وتعالى أن دلهم على أحسن ما يمكن أن يفعلوه للتخلص مما حصل منهم من تلك العظائم من الذنوب، مما يبين ويفيد أن الله تعالى رحيم وغفور لمن تاب وأناب إليه، مهما تعاظمت الذنوب.

ثم يبين الله تعالى حقيقة المسيح ابن مريم ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فمثل المسيح عيسى ابن مريم كمثل الرسل الذين من قبله، فحكمه هو حكم من جاء قبله من المرسلين، لينتفي عنه كل ما ألصقوه به من الربوبية والعبودية، والتثليث. ثم بين تبارك وتعالى شأن أمه مريم عليها السلام ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ أي: أن مريم عليها السلام موصوفة بالصدق، بل بالغة في تحري الصدق، لأن دلالة ﴿صِدِّيقَةٞ﴾ تفيد المبالغة في صفة الصدق، وبالتالي فإن هذا رد على من اتهمها بالزنا، وهذا تزكية عامة لها. فالصادقة البالغة الصدق لا تكذب في قولها ولا فعلها، فينتفي عنها جميع أنواع البهتان، ومن صفاتها وابنها عيسى أكل الطعام، مثل غيرهما من الناس ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ومن يحتاج إلى غيره للبقاء، فليس بإله، فهما يحتاجان الطعام حتى يعيشا، ويقاوما أمور الحياة، فلو كانا إلهين لما حصل لهما حاجة لمخلوق. وفي هذا التفنيد من الله تعالى في البيان والتعليم وإقامة الحجة ما يعلم الداعية والموجه والناصح كيف يدير بيانه لغيره، وكيف يقيم الحجة.

ثم قال الله تعالى ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: تأمل كيف بينا لهم الأدلة، البالغة الحجة. ودلالة ﴿ٱنظُرۡ﴾ تفيد الأمر بالتأمل والتدبر، وتقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء، وكذلك التعرف على منهجية بيان الآيات، كما أن جملة ﴿كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ هي التي وقع عليها التأمل والنظر، المتضمنة لمنهجية بيان الله تعالى لهم الأدلة التي تحقق وتبين لهم حقيقة المسيح وأمه، وأنهما بشرين، ليس فيهما شيء من خصائص الإله. والتي سبق بيانها في الآيات السابقات، فكان أسلوب بيانه سبحانه وتعالى آية من آياته عَزَّ وجل، فضلاً عن مضمون الحجج الدامغة المبينة لكذبهم، والمستوجبة أن يتوبوا ويستغفروا الله تعالى، ويعودوا إليه. ولكن مع هذا كله لا يستجيبون ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

ثم تفكر وتأمل مع كل هذا البيان العظيم كيف ينصرفون عنه. وقد تكرر الأمر بالنظر مرتين، ليفيد المبالغة من عجب التعظيم للبيان من الله تعالى في إقامة الحجة عليهم، والمبالغة في التعجب من حالهم. وكذلك عجب الاستنكار لإعراضهم؛ مع قوة ما جاءهم من تلك الحجج والبراهين. فسبحان الله في قوة بلاغة بيانه؛ وجزالة كلامه، وسبحان الله تعالى في رحمته، وسبحان الله في أدلته وحججه وآياته، فما أعظم كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وما أعظم هدايته ورحمته بخلقه جَلَّ جلاله.

وقد نوه التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ٱنظُرۡ﴾ والذي يشد الانتباه، وتلتفت حواس التلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في الأدلة وفي تماديهم في الكفر، لينكشف ما هم فيه من الباطل. وتفيد دلالة ﴿كَيۡفَ﴾ استثارة الذهن ليتصور الْمُخَاطَب شأنهم مع الحجج والبراهين، ودعوتهم للتوبة، وما يتبين وتنكشف به حقائق نفوسهم، وما انطوت عليه من الظلم والحسد والبغض. ودلالة ﴿كَيۡفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالفاسد من القول والبهتان، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، لينتفع به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ٱنظُرۡ﴾ أنها تَلفِت الانتباه، كما أن كلمة ﴿كَيۡفَ﴾ زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. وأن كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويُمْعِن النظر في التطاول والتمادي، ودواعي الغرور والبهتان، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يكذبون كذباً لا لبس في بهتانه، وظلمهم وتجرؤهم على الحق، وعلى من أُنزل الحق، وعلى الرسول الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعوهم إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿كَيۡفَ﴾ بعد الأمر بكلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه.

ثم يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين من النصارى ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: كيف تعبدون من دون ربكم من ليس له القدرة على دفع الضر عنكم، وجلب النفع لكم. فإن المسيح لا يملك لكم ضرا يصيبكم بهً، ولا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا يملك حبس ضر عنكم.

فابتدأت الآية الكريمة بفعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ الذي يعطي دلالة على عظيم الأمر وعظيم المأمور به، وما وُجّه به إليه، وهو النهي لهم عن الكفر والشرك، وتصحيح الفكر والمعتقد بأقوى الحجج والبراهين. فيوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوجه لهم سؤالاً استفهامياً واستنكارياً عن عبادتهم لغير الله تعالى ﴿أَتَعْبُدُونَ ﴾ غير الله تعالى؟ أتعبدون غير الذي خلقكم ورزقكم؟ والذي أوجدكم ثم يميتكم ثم يحيكم، أتعبدون من دونه غيره؟ ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وهذه زيادة في البيان، وإقامة الحجة عليهم، فالمسيح لا يملك لكم ضراً يصيبكم بهً، ولا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا يملك حبس ضر عنكم، أو يصيبكم به، أو يرفعه عنكم؛ إن حل بكم من الله تعالى، ولا يملك لكم نفعاً يوصله ويجلبه لكم إن منعه الله تعالى عنكم، فكيف إذاً يكون رباً وإلهاً وقد انتفت عنه ملكية القدرة في دفع الضر وتحقيق النفع لكم، بل إنه عاجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك، فضلاً عن أن يملكه لغيره. بينما الله تبارك وتعالى هو الذي يسمعكم ويعلم حالكم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو السميع لدعائكم لو طلبتموه وسألتموه، وهو السميع لدعائكم لو دعوتموه، وهو السميع لتوبتكم واستغفاركم لو تبتم إليه واستغفرتموه، وهو العليم بحالكم وبما تقولون وما تعملون. مما يفيد أن ربكم العزيز العظيم هو الذي ينفعكم ويدفع عنكم الضر.

ومن البلاغة البيانية أن بيان تلك الصفات وردت على العموم ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فجاء على العموم وأيضاً جاء على الخصوص، فجاء على الخصوص حال ربطه بالسياق فيما يخصهم، وأما حال العموم ففي النظر إليه كنص مستقل فإنه يفيد العموم. فربكم هو السميع لكل أحد، وفي كل زمان، وفي كل مكان، وهو العليم بكل شيء، فلا يخفى عنه شيء سبحانه وتعالى. كما أعطت دلالة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ كمال السمع والعلم إلى درجة التمام والكمال الذي لا يغيب عن علمه وسمعه شيء. وأن ما تعبدونه ليس له تلك الصفات، فلا يسمعون ولا يعلمون ما غاب عنهم، فكيف تعبدونهم من دون الله تعالى. وكذلك من الفوائد البيانية أن الآية الكريمة أبانت الأسلوب الاستدلالي في إقامة الحجة بأقوى الحجج والبراهين الدالة على ألوهيته سبحانه وتعالى، وحصره له عَزَّ وجل، وكُفْرَ من أشرك بالله شيئاً، فكانت في قوتها الاستدلالية كما قال تعالى فيما سبق ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو لا غيره الذي يسمع كل شيء، ويعلم بكل شيء، فلا يفوته شيء. بما يفيد شمول كمال السمع والعلم لربنا تبارك وتعالى، بحيث لا تخفى على الله عَزَّ وجل خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو يسمع كلام عباده، وكلام كل متكلم، وحركة كل متحرك، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وإثباته.

وقد وردت الصفتين الكريمتين لله تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأكمل وجه، وأتم بيان، بل جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منكم ومن غيركم. بل وحصرت

وقصرت كمال السمع والعلم عليه سبحانه وتعالى، فلا يشاركه أحد في كمال السمع والعلم. فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مطلع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى صارف عنه ما يمنعه ويدافعه من لشر، وما يمتنع عنه المؤمن من المعصية، فيكتب له ثواب جهده ومجاهدته لنفسه.

وإذا علم وأيقن الإنسان أن الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ جعل منه ذلك العلم العظيم شخصاً ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يعينه هذا العلم والفهم على استحضار مراقبة الله تعالى له ولغيره في جميع تصرفاته وأحواله، وأن الله تعالى يراه على كل حال يكون عليه، مما يدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له إن حاد عن الطريق. وأيضاً هو به عليم بما يعمل من الصالحات والطاعات. فهو مُوقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلمٌ يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

ومن بلاغة البيان القرآني أن قوله تعالى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فإنه يفيد شمولية النص لكل معبود من دون الله تعالى؛ سواء كان عيسى عليه الصلاة والسلام أو غيره، فكل معبود غير الله تعالى هو من دونه، وكذلك لا يملك أن يضر أو يدفع ضراً، أو يقدم نفعاً أو يتسبب في نفع إلا بإرادة الله تعالى، وأما إذا رُبط بالسياق فإن المقصود به عيسى عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مطلقاً أعطى عموم المعبودات، وهذا من عظيم بيان القرآن الكريم، الذي يعطي من خلال بناء سياق كلامه غزارة الأوجه المتعاضدة في الدلالات والمعاني.

فبعد أن أبطل الْشُّبَه بالحجج الباهرة القاطعة، يتدرج الأسلوب القرآني الكريم في توجيهه إلى النهي عن الغلو الذي هو سبب في بناء الشُّبَه وإيجادها. فيأتي التوجيه من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، ليخاطب بني إسرائيل، وذلك بتكرار الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ ﴾ وهذا أمر يشتد به الانتباه للمأمور به، ثم يليه النداء لأهل الكتاب ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وفي هذا مزيد من شد الانتباه للقول الذي سيؤمر به ﴿ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ لا تتجاوزا وتفرطوا في القول، فتبالغوا مبالغة تتجاوزون فيها حد الحق إلى الباطل، فلا تقولوا وتغالوا في دينكم، بل كونوا على الحق، دون مجاوزة في ذلك. ثم ينهاهم تبارك وتعالى عن أن يكونوا على شاكلة من سبقهم من الضالين ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فهؤلاء المنهي عن الاقتداء بهم

ومماثلتهم، قد اتصفوا بعدد من الصفات القبيحة، أولها: اتباعهم لأهوائهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ﴾ فهؤلاء الضالين المضلين اتبعوا أهواءهم، فلا تتبعوا ما استهووه، فتتخذونه لكم منهجاً وشرعة، والصفة الثانية لهم: وقوعهم في الضلالة ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ وذلك نتيجة اتباعهم الأهواء، فقادتهم الصفة الأولى إلى الوقوع في الصفة الثانية. وقيل أنهم رؤساء الضلالة من اليهود، وقيل: رؤساء اليهود والنصارى، قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى، والآية خطاب للذين كانوا في عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فنُهوا أن يتبعوا أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم[(١)] والصفة الثالثة: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ فأضل هؤلاء الضالين كثيراً من الناس، فحادوا بهم عن دين الله تعالى: الحق المبين، فكانوا سبباً في إضلال غيرهم. مما يبين ويفيد أن الضالين يسعون لإفساد غيرهم، وتكثير سواد فسادهم، وأن منطلق هذا الفساد والإفساد هو اتباع الهوى. والصفة الرابعة: هي النتيجة التي وقعوا فيها، وهي ضلالهم طريق الحق وطريق النجاة ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فضلوا وانحرفوا بكفرهم عن الإيمان والنجاة والفوز بالجنة، وبالتالي دخلوا في طريق وسبيل الضالين التائهين عن الحق.

وفي هذا بيان وموعظة لكل أحد بأن يحذر الغلو في الدين، وأن يبتعد عن الهوى، ويحذر من الضالين، فإنهم ساعون في التأثير على غيرهم، بل إن من قوة تأثيرهم أن وصف الله تعالى أثر تأثيرهم بالكثرة ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ فقد أضلوا الكثير من الناس. وقد بينت الآية الكريمة الترابط بين حلقات سلسلة الضلال، وترابطها مع بعضها البعض. فاليحذر المؤمن من ذلك أشد الحذر.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾

يبين الله تبارك وتعالى: ما حل لبني إسرائيل من الإبعاد والطرد من رحمة الله تعالى، والتشنيع بذكرهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٨/٢)

عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ لُعِنُوا في الزبور على عهد داود عليه السلام، وكذلك في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام بما فعلوا من المعاصي. وذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أنهم لُعِنُوا بكل لسان، لُعنوا على عهد موسى في التوراة، ولُعنوا على عهد داود في الزبور، ولُعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولُعنوا على عهد محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن[١] واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، وعلة هذا الحكم باللعن لأسباب عظيمة فعلوها، أولها: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ﴾ فذلك اللعن بمعصيتهم لله تعالى في مخالفتهم أمره ونهيه. والثاني: ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي: باعتدائهم في مجاوزة ما حدَّه الله تعالى لهم من الشرع. والثالث: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر. وقال العلماء في هذا المنكر ثلاثة أقوال: صيد السمك يوم السبت، وقيل: أخذ الرشوة، وقيل أكل الربا، وأثمان الشحوم. والمنكر في الآية الكريمة مطلق، فيدل على الإطلاق، ويمنع هذا الحصر[٢] فيشمل الأقوال الثلاثة، وغيرها مما يشمله معنى المنكر، فاستوعبت دلالة النص الأقوال المخصوصة بفعلهم ذلك، وغيرها من الأفعال.

ثم قال تعالى عن أفعالهم هذه ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وهذا غاية الذم لفعلهم، وهو قسم من الله تعالى، فلبئس الفعل كانوا يفعلون بتركهم الانتهاء عن معصية الله تعالى، وركوب محارمه، وقتل انبياء الله ورُسُلِهِ[٣] وهذا يفيد التعجب من سوء فعلهم، مؤكداً لذلك بالقسم[٤] وهذا يفيد ويدل على عظيم شعيرة النهي عن المنكر، وعدم السكوت عنه، وأن تركها سبب للعقوبة الزاجرة، وفي هذا كذلك تنويه وتحذير لأهل الإسلام؛ باعتبار مما حصل لغيرهم، وبذلك يكون هذا توجيه لكل مسلم بالتزام حدود الله تعالى، وحفظها، وعدم تجاوزها، والقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب استطاعته، وبحسب ما يحقق من مصلحة للدين، وذلك بحكمة وعلم بما ينهى عنه ويأمر به.

ثم يبين تبارك وتعالى مزيداً من صفاتهم ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فمن عمق دلالة هذه الآية الكريم،ة أن سياقها يكون في حق المنافقين بتوليهم الكافرين، ويكون في حق اليهود الكافرين، وذلك لانتظام السياق مع انتظام الآيات. قال ابن الجوزي: عن المشار إليهم في قوله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٦/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٨/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٢/٨)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٦٨١/١)

تعالى ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ قولان: أحدهما: أنهم المنافقون: روي عن ابن عباس والحسن ومجاهد. والثاني: أنهم اليهود، قاله مقاتل، فعلى هذا القول انتظام الآيات ظاهر، وعلى الأول يرجع الكلام إلى قوله تعالى ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾[١] ولا تعارض بين الوجهين، فهي صفة في الكافرين وفي المنافقين، فاجتمع في السياق دلالتان بيانيتان لقاسم مشترك بين المنافقين والكافرين، وهذا من عظيم الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وبالتالي فإن الكافرين في قوله تعالى ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هم مشركو العرب، والذين يتولونهم هم اليهود ليتحدوا معهم ضد الإسلام، ويكون كذلك هم اليهود، والذين يتولونهم هم المنافقين، فيتحدون معهم ضد الإسلام، وكلا الوجهين صحيح، وبهذا يجتمع كلام أهل التفسير من خلال عموم النص الذي استوعب الحقيقتين، من موالاة المنافقين لليهود، وموالاة اليهود لمشركي العرب، وهذا من عظيم نظم القرآن الكريم وتعاضد دلالاته.

ثم ذمهم وسخط الله تبارك وتعالى عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ لبئس ما زودتهم به أنفسهم من الأعمال الكفرية التي استوجبت لهم سخط الله تعالى عليهم، فأصبح مصيرهم الخلود الأبدي في العذاب المقيم. وقد اشتملت هذه الآية على بيان تَحَمُّل الإنسان مسؤولية نفسه، وما ينتج عنها ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ فنفس الإنسان هي التي تقوده للشر أو الخير، كما أن جاء وقع التوبيخ لهم بأسوأ دلالاته ﴿لَبِئْسَ ﴾ مما يفيد التوبيخ لفعلهم بأقصى معانيه، لأن دلالة كلمة **(بئس)** تجمع أوصاف الذم كلها، فهي أبلغ وصف عند إرادة تمام الذم وأكمله.

كما أن لفظة ﴿سَخِطَ ﴾ من ﴿سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أفادت الغضب الشديد المستوجب للعقوبة، بما يفيد أن ما قاموا به أمراً عظيماً في حق الله تعالى؛ الذي خلقهم وأرسل لهم الرُّسُل. وفي هذا إنذار وبيان تحذيري. ثم قال تعالى عن الأمر الذي كان يجب عليهم أن يأخذوا به ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فلو التزموا الإيمان الحق بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى عليه؛ ما اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، مما يفيد أن الإيمان الحق يمنع المؤمن من موالاة الكافرين على المؤمنين، ولكن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٣٠٨-٣٠٩)

نتيجة فسق أكثرهم بالخروج عن دين الله تعالى وشريعته جعلهم يوالون الكافرين على المؤمنين. مما يفيد أن الفسوق يقود الفاسق إلى معاداة الحق والإيمان والمؤمنين.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

تقرر هذه الآيات الكريمات ما جاء قبلها من وصف وبيان لمساوئ اليهود، وزادها تأكيداً وتقريراً دخول لام القسم عليها ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ وكذلك نون التوكيد المُلحَقة بالفعل. فيخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة واسلام في الخطاب. فيبين خطاب الله تعالى شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، وأن النصارى هم الأقرب مودة للمسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ فجمع الله تعالى بين اليهود والمشركين في شدة العداوة للمؤمنين، وذلك لوجود القاسم المشترك بينهم، وهو العناد والجحود، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أن كفرهم هو كفر عناد وجحود، ومباهتة للحق، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة، ووضعوا له السم، وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعنة الله تعالى[1] وعداوة المشركين يمثلها الحسد الذي أشعل عندهم روح الجحود والعناد، فيتفقون مع اليهود في خصلة الحسد ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ وهذا يدل على صلابة اليهود في الكفر، وصعوبة إجابتهم إلى الحق، ويتشابه المشركون معهم في شدة العداوة، وصعوبة الإجابة، ولذلك مكث عليه الصلاة والسلام في مكة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٨/٢)

ثلاث عشرة سنة وهو يدعو المشركين للإسلام، وهم يمنعون عنه، ويصدون عنه، ويحاربونه، ويرمونه بالسحر والكهانة والجنون، حتى ألبوا صبيانهم على النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف.

ولكن النصارى من أتباع المسيح عيسى عليه السلام؛ فإن فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم من الرقة والرأفة ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ وعلَّل تبارك وتعالى تلك المودة بقوله عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهذه عوامل المودة التي منبعها ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ وهم خطباؤهم وعلماؤهم. وكذلك منهم الرهبان ﴿وَرُهْبَانًا﴾ وهم العباد، والراهب: مشتق من الرهبة، وهو الخوف[1] وكذلك صفة ثالثة: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهي صفة التواضع التي اجتمعت فيهم. وكذلك فيهم صفة رابعة: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهي صفة الانقياد للحق، بسبب تواضعهم، وعدم تكبرهم، مما يفيد أن في التواضع قوة في الاستجابة للحق، فإن الإنسان يلين بها للحق، فيَتَّبِعْهُ ويأخذ به، وأن الكبر والحسد قوة يستقوي بها المتكبر على صد الحق، فينصر بكبريائه الباطل على الحق، أجارنا الله من الكبر والحسد، ورزقنا والمسلمين التواضع.

وفي قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ في هذا بيان وشهادة منهم، بأن ما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حق من الله تبارك وتعالى، سواء فيما يتعلق بالبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بما فيه من الحق الذي يتفق الإنجيل مع القرآن فيه ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فيض دموعهم لمعرفتهم بأن الذي يُتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسوله حق. وذكر أن فيض العين من الدمع هو امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، ذلك أن سيلانه عن شدة امتلائه[2] وهذا يدل على كثرة بكائهم من شدة تأثرهم؛ حتى فاضت عيونهم من كثرة دموعهم. قائلين داعين ربهم تبارك وتعالى: أن يكتبهم مع الشاهدين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يناجون ربهم تبارك وتعالى بأنهم آمنوا، ومصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، ومُقِرّين بأنه الحق الذي لا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٩/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠١/٨)

ريب ولا شك فيه. وسائلين الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين أقروا به، وصدقوه، وآمنوا به، وشهدوا له بالرسالة، وأنه بلغ الرسالة، وكذلك شاهدين للرسل بأنهم بلغوا ما أُرسِلُوا به، لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

ثم يقولون تقريراً لإيمانهم ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وفي هذا تقرير لإيمانهم، واستبعاداً منهم لأن يكون منهم الإنكار للحق ودفعه ظلماً وعدواناً وتكبراً ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ فما الذي يمنعنا من الإيمان بما جاءنا من الحق على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. وهو سؤال تقريري، يقررون به المتابعة، ونفيهم لجميع الموانع. وكذلك إثبات شهادتهم لما أُنْزِل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه حق. وبالتالي فإن مُقتضى الحق هو أن يُقبل ولا يُرفض. مؤكدين أنهم يطمعون بإيمانهم هذا؛ وتصديقهم وشهادتهم له بالحق، أن يدخلهم اللهُ سبحانه وتعالى مع أهل طاعته الجنة يوم القيامة، وقد وصفوا أهل الإيمان بالقوم الصالحين، لأن الصالحين من الصلاح، وهو ضد الفساد، وبالتالي فهي الصفة التي انتفت منها صفة الفساد، فحلت عليهم صفة الصلاح. وهي صفة كمال وجمال.

ومن الجماليات البيانية أنهم قرروا إيمانهم واستبعدوا إنكارهم ورفضهم للحق بصيغة الاستفهام ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ فهو سؤال تقريري: إذ قرروا إيمانهم باستبعاد رفضهم وإنكارهم للحق الذي فاض بياناً ووضوحاً، بل إنه يستدعي التعجب ممن أنكر الحق الذي فاض وضوحاً، فهو سؤال تعجبي، وفي نفس الوقت سؤال استنكاري، وأيضاً سؤال توبيخي، فهو تعجبي، لأنهم يتعجبون من أن يحصل منهم عدم الإيمان مع مجيء الحق الواضح الذي لا لبس فيه، فكيف يمكن أن يحصل منا هذا؟ فإنه مستبعد عن العقلاء. وهو استنكاري من حيث رد الحق الواضح، فكيف يُرد الحق الواضح، إذ لا يمكن ذلك. فينفون به وجود الموانع التي تمنع من الإيمان، فينفون وجود كل مانع يمكن أن يمنع الإنسان من التصديق بهذا الحق، والدخول في الإيمان والتصديق به، ولزومه لزوم الواثق به، بثقة المتحقق منه تمام التحقق. فيستنكرون أن يحصل رد الحق الواضح، وكذلك يستنكرون على من رده ولم يقبله، ومعززين ذلك بلفظة الطمع، وهي كلمة تدل على نزوع النفس نحو المطلوب شوقاً وأملاً ورجاء ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهو كذلك سؤال استنكاري توبيخي، لمن يظن أو يعتقد في هذا الحق الواضح غير الحق، فيصده، ولا يؤمن به؛ مع هذا الوضوح التام، الذي لا لبس فيه.

فبادرهم الله تعالى بإثبات المثوبة ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ فجازاهم الله سبحانه وتعالى على تصديقهم وإيمانهم بجنات موصوفة بكثرة الأنهار الجارية، وأنهم ماكثون فيها خلوداً مُؤبداً، لا يحولون ولا يزولون، ولا يفنون، وأن هذا هو جزاء المحسنين جميعاً ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فهو ثواب المؤمنين جميعاً. وهذا يدلل على إخلاصهم في الإيمان، مع صدق قولهم، فبادرهم أرحم الراحمين باستجابة مطمعهم لَمَّا قالوا ﴿ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى جزاء الكافرين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فأما الذين جحدوا وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكذبوا بآيات كتاب الله تعالى فإنهم في نار الجحيم لابثون فيها، ولا يخرجون منها، بل ومصاحبون لها. والجحيم: هي النار التي اشتد اشتعالها، وسميت بالجحيم: لعظمتها واشتداد تأججها. أجارنا الله تعالى والمؤمنين منها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩ ﴾

افْتُتِحَت الآيات الكريمات بنداء للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه وشده لإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من وجوب الامتثال بما آمنتم به، وكذلك يحمل هذا النداء في دلالته التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب، مما

يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد الأخلاقية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم؛ وهو خالقهم ومُوجِدُهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في منادَاته ومخاطبته لربه تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته، وكذلك الأدب مع المخلوقين في مخاطبتهم ومناداتهم. خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم ينهاهم تبارك وتعالى عن الاعتداء في الأحكام وذلك بتحريم ما أحل الله عَزَّ وجل ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فينهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يغيروا أحكام الحلال، وذلك منعاً وقطعاً لتدخل الأهواء، والاجتهادات في المنع والامتناع عن ما أباح الله تعالى، بحجج التدين والطاعة، كما يفعل القساوسة والرهبان من أهل الكتاب، إذ حرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم، والمشارب الطيبة، وقد حدث في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح البخاري: أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أمَّا أنا؛ فأنا أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، إني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[١]

فنهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن الحكم على أنفسهم بتحريم ما أباح الله لهم، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تَزَهُدَاً منكم وتقشفاً[٢] ومن دقائق السياق القرآني، أن النهي استوعب أن يقع التحريم على النفس، أي: ذات الإنسان، أو أن يوقعه على غيره، أو يوقع التحريم على الطيبات نفسها. كما أن دلالة الطيبات ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ استوعبت جميع أنواعها، من المطعومات والمشروبات والملبوسات، وغيرها من طيبات الله تعالى الكثيرة في تنوعها، وهذه من الغزارة البيانية في كتاب الله تعالى، إذ يستوفي مقام اللفظة جميع المراد، من غير حاجة إلى حشو السياق بالكلام. ومن جود الله تعالى وكرمه أن أوجد الطيبات وأحلها. وأفادت كذلك بيان فضل الله تعالى في حكمه وتشريعه، ومعالجة قضايا المؤمنين بألطف ما يكون. وافادت أن التحليل والتحريم

(١) البخاري (٣/ ٣٥٤) برقم (٥٠٦٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٦٨٤)

هو لله تعالى وحده لا شريك له، وأن ليس للإنسان حق الحكم بخلاف ما حكم الله تعالى به. ومن فوائد ذلك التنبيه لما قد يطرأ على النفس من مجاوزة الحد، بما يؤكد أهمية الامتثال، وعدم الاجتهاد في التنسك بما لم يشرع الله تعالى، وأنه لا فضل لأحد عن أحد في ترك الطيبات، بل مَن أخذ بها فهو صاحب الفضل. وأفاد النص الكريم: أن الأصل في الطيبات الحل والإباحة، إلا ما خصه الله تعالى بالتحريم، ومن الفوائد أن سَمَّى الله تعالى هذا النوع من التحريم بالاعتداء ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ والاعتداء هو: مجاوزة الحد، فتجاوز حدود شرع الله تعالى اعتدا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الاعتداء: تجاوز المرء ماله إلى ما ليس له في كل شيء[1]

وأكد عَزَّ وجل هذا النهي بنفي محبته لمن اعتدى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ وانتفاء محبة الله تعالى عنه دليل على عظيم شناعة فعل ذلك، وما هو مثله، وأن محبة الله تعالى هي لمن امتثل أحكامه من غير تعدي. فالاعتداء هنا هو تجاوز في الحكم، بتحريم طيبات ما أحل الله تعالى. وكذلك يدخل في الاعتداء على تشريع وأحكام الله تعالى تحليل ما حرم الله تعالى. فمن رحمة الله تعالى أنه نهى عن التضييق على النفس من شيء أباحه الله تعالى. مما يفيد أن من آداب الطاعة وواجباتها ألا يضيق المؤمن على نفسه وعلى غيره مما أباحه الله تعالى. وأن هذا الدين هو دين الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، فيوجهها ويصلحها، ولا يسير بها إلى ما يُضادها.

ثم بعد نهيه تبارك وتعالى لعباده المؤمنين عن تحريمهم طيبات ما أحله لهم؛ أمرهم بأكل ما رزقهم من الطيبات ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وفي هذا تأكيد على النهي بأسلوب الأمر بضده، فالنهي قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وتأكيد النهي عن التحريم قوله تعالى ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ لا تمتنعوا عن الطيبات، بل كلوا منها، وهذه قاعدة عظيمة في تناول الطيبات من المطعومات، وأن الأصل فيها الحل، وقد نسب الله تعالى هذا الحلال الطيب له مرتين: الأولى ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ والثانية: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهو الذي رزق الطيبات إيجاداً وحكماً، كما نسب الرزق والإرزاق إليه سبحانه وتعالى ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالرازق هو الله سبحانه وتعالى، والمرزوق هم عباده، والرزق هو الطيبات، والإرزاق هو العطاء والتسخير. فشملت الجملة الأمر، والآمر، والمأمور، والمأمور به، والحكم ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ وعن سعة دلالة النص ما ذكره الإمام

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٦١٥)

القرطبي رحمه الله تعالى بأن: الأكل في هذه الآية عبارة عن التمتع بالأكل والشرب والركوب ونحو ذلك، وخص الأكل بالذكر لأنه أعظم المقصود، وأخص الانتفاعات بالإنسان(١) ومن الفوائد في قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنها بينت أن التشريع له وحده تبارك وتعالى، فلا يجوز لغيره عَزَّ وجل أن يخالف شرعه وحكمه سبحانه وتعالى.

ومن دقة البيان القرآني الكريم أنه عمم عند النهي ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ﴾ باعتبار أنه حكم عام ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ولم يعمم عند الأمر بتناوله، بل جاء بصيغة التبعيض ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ لمناسبته مع تنوع حاجة الإنسان وقدراته ورغباته ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ لتعذر أكل الكل، أو التمتع بجميعه في وقت واحد، أو في أوقات متفرقة. وهذه من دقة التوجيه في البيان والإيضاح، بما يؤكد عظيم وعظمة إعجاز القرآن الكريم في كل وجه يتأمله المتدبر له.

وبعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم، أمر بتقواه، تأكيداً لما أمر به من تناول الطيبات، والامتناع عن تحريم شيء لم يحرمه عَزَّ وجل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ والتقوى تتطلب الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي الذي أنتم بوحدانيته وربوبيته وألوهيته مُقِرُّون. فإن إيمانكم يُلزمكم تقواه عَزَّ وجل.

ثم بين الله سبحانه سعة شرعه وتشريعه فيما يتعلق بالأيمان أو الحلف الذي لا قصد فيه للحالف، وهو مما يجري على اللسان ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فمن نِعم الله عَزَّ وجل أنه لا يؤاخذ على أيمان اللغو، ولا تجب فيها الكفارة؛ لأنها خالية من تصميم وقصد الحالف من إبرامها. وقد ذهب الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل في كلامه: لا والله، وبلى والله، غير معتقد لليمين، وبه فسر الصحابة الآية، وهم أعرف بمعاني القرآن(٢) وأن يحلف على شيء يعتقد ويخيل إليه أنه كما حلف، وليس الأمر كذلك.

ثم بين تبارك وتعالى نوع وماهية اليمين التي يُؤاخذ عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ وهي اليمين التي اتصفت بانعقاد القلب عليها، علماً وقصداً. فبدأ النص من الآية الكريمة بأداة

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٠/٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٧١/٢)

﴿وَلَٰكِن﴾ التي تفيد الاستدراك، فيُثبت لما بعده حكماً مخالفاً لحكم ما قبله، فالذي قبله حكم لغو اليمين ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وأما هذا الحكم الْمُستثنى فهو حكم نهي وتحذير، وتقرير المؤاخذة ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ فهي اليمين التي اتصف صاحبها بعقد القلب على ما حلف عليه، ففي هذه اليمين قصدٌ وعلمٌ متيقنٌ بها، فسبق القصد على إبرامها، فيكون قد وَثَّق يمينه بالنية والعزم والقصد المبني على العلم، فهذا النوع قد جعل الله تعالى له كفارة لما يترتب عليه، وذلك رحمة بالمؤمنين، لما قد يحدث من الأيمان المقصودة بالنية والعزم، مما قد يكون الخير في عدم إتمامه وإبرامه. فقال الله تبارك وتعالى عن كفارته ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فشملت الكفارة من التخيير والبدائل ما يدل على عظيم رحمة الله تعالى، وأنه دين الفطرة الذي راع فيه حال الْمُكَلَّف، وتفاوت قدراتهم، وما قد يحصل لهم من أحوال عند عقد اليمين، وبعدها.

وكلمة كفارة، من التكفير؛ وهو الستر والتغطية الذي يستر الذنب ويغطيه، بما يفيد أن حالف اليمين إذا عمل الكفارة فإن الله سبحانه وتعالى يستر ذلك عنه ويعفو عنه. وأما كفارته فهي على التخيير، فالخيار الأول هو ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وهذا من جميل العدل الممتلئ بالرحمة، بأن يكون الإطعام على سبيل الوسط، فليس فيه ما يتصف بالإسراف، ولا ما يتصف بالتقتير والبخل، بل بين طرفي الإسراف والتقتير، بل ومن عمق دلالة الحكم ودقته، أن نسب سبحانه وتعالى الوسطية إلى ما يُطعِم الحالف أهله ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وفي هذا مراعة اختلاف الناس، وتباينهم في مأكولاتهم، من حيث النوع والكثرة والقلة، فالوسطية عند أناس قد تكون عند غيرهم أقل أو أفخم، وأكثر وأجود، وذلك لاختلاف وتباين القدرات بين الناس، مكاناً وزماناً، وأحوالاً. فجعل سبحانه وتعالى الحكم يستوعب ذلك التباين بأقل الألفاظ وأدقها وأبينها. وهذه آية من آيات الله تعالى في دقة الأحكام، التي تدل على أن هذا لا يمكن أن يصدر ويكون إلا من عليم حكيم سبحانه وتعالى. وفي هذا إعجاز حكمي رباني عظيم.

والخيار الثاني من الكفارة ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ فيكسو عشرة من المساكين، وفي هذا مراعاة للقدرات وتحقيق عظيم الأهداف، فقد يكون الحالف ميسور الحال، والمساكين أحوج ما يكون للكسوة من الطعام، فخيره عَزَّ وجل بين الإطعام والكسوة. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى عن الكسوة: ما وقع عليه اسم كسوة،

مما يكون ثوباً فصاعداً[١] وفي مساحة دلالة الكسوة مراعاة للعادات والتقاليد، من حيث الزمان والمكان، وما يشتهر كل بلد به عن غيره، في نوع اللباس وشكله ومفهومه. وهذا التقدير رحمة وآية عظيمة. وأما الخيار الثالث: فهو ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٍۖ﴾ أي فك عبد من أسر الرق والعبودية؛ وذلها وهوانها، والتحرير هو: الإخراج من الرق. وجميع تلك الكفارات مُنعشة للتقارب الاجتماعي بين العباد، فهي أداء يتحقق به المصلحة بين العباد، وهذا دليل على عظيم أحكام الله تعالى في نوعها وأهدافها وغاياتها، وفي قدرها ومقدارها، وكذلك في منهجية معالجتها.

ثم يأتي الترتيب بعد أنواع التخيير ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾ فيبدأ الحالف صاحب اليمين بتلك الخيارات الثلاث، فإن لم يجد انتقل إلى صيام ثلاثة أيام ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ فهذه المذكورات هي التي يكفر الله تعالى بها أيمان العباد إذا حلف أحدهم. ثم أمر تعالى عباده بحفظ الأيمان وعدم التسرع فيها ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ وهذا يتطلب إجلال اليمين، ولا يجعلها المؤمن حاله ولغوه مع الناس، بل يحفظها بترك الحلف وتجنبه، فإن وقع في اليمين، حفظها بالكفارة، فيكفر عنها بما بينه سبحانه وتعالى.

ثم يبين الله تعالى امتنانه على عباده، بأن شرع لهم أحكامه، وذلك في بيان مستفيض من الرحمة، والإبلاغ والبلاغة البيانية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فمن الفوائد الدلالية أن في بيان الآيات حجة على المفرط فيما ألزمه الله تعالى به من أحكام الكفارة. ثم حثهم على الشكر ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فجاء الحث على الشكر بأسلوب الترجي والإشفاق منهم لله تعالى على هدايته لهم، وتوفيقه، وعظيم تشريعه الذي تنتظم به الحياة، والذي رفع به الحرج، وأوجد به سُبُل المعالجة لما يصدر من العبد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ
ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا
عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا
ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٦٤٥)

ابتدأت هذه الآيات الكريمات بمناداة المؤمنين بأسلوب النداء، وبصفة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو خطاب لجميع المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَه صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيا أيها الذين آمنوا اتركوا هذه المنهيات، من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. فإنها مما يزينه الشيطان، ولذلك وجب عليكم اجتنابها.

وقد ابتدأ الله تعالى تلك المنهيات بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ والتي تفيد حصر المنهيات في هذا المقام وهذا الخطاب في أربعة ﴿ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وكذلك أفادت ﴿إِنَّمَا﴾ التوكيد، فأعطت فائدتين: الأولى حصر النهي في هذه المذكورات خاصة وأنه قد سبق قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ وقوله تعالى ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ فحصر من العموم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. مما يبين أن هذه المذكورات ليست من الطيبات، بل من الرجس، ومن عمل الشيطان. وهذه من دقائق بيان التحرز الدلالي في السياق عند البيان والتوجيه في القرآن الكريم، وكذلك أفادت ﴿إِنَّمَا﴾ توكيد حرومية هذه المحرمات المذكورات. فيا أيها الذين آمنوا إنما حرم عليكم مما أباح الله تعالى هذه المنهيات، فإنها خارجة عن حكم الحلال إلى حكم التحريم، وأنها خارجة عن حكم الطيبات إلى حكم الخبائث.

وأول هذه المحرمات: ﴿ٱلۡخَمۡرُ﴾ وهو الْمُسكِر، والثانية من المحرمات: ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ وهو القمار، والثالثة من المحرمات: ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾ وهي الأصنام، والرابعة من المحرمات: ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وهي قداح الاستقسام. فهذه الأربعة المذكورات قد وصفها الله تعالى بصفتين: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فالأول من الوصف: أنها ﴿رِجۡسٞ﴾ والرجس هو: النتن، وكل شيء قذر، فحال هذه المنهيات كحال القاذورات، المتصفة بصفة العفنة والنتانة، والتي تستقبحها الفطر السليمة، وفي هذا زجر وتوبيخ، وشدة في النهي عنها. وبالتالي فإنها تُوجب سخط الله تعالى. وأما الوصف الثاني: فهو ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: أنها من أعماله التي يزينها الشيطان لكم. وفي إضافتها إلى عمل الشيطان زيادة في تأكيد شناعتها، لأن الشيطان لا يأتي منه إلا الشر المحض. ولذلك وجب اجتنابه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ فابعدوها عن أنفسكم، وابتعدوا عنها، فإن اجتنابها يحقق الفوز

والفلاح ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ وهذا بيان لعلة وسبب الترك، وذلك حتى يحل عليكم الظفر والفوز الذي يستجمعه لفظ الفلاح، بما يفيد أن هذه المذكورات مبعدة عن الفلاح، وأن الوقوع في ذلك هو وقوع في أضداد الفلاح. ومن لطائف البيان ودقة وشمولية معنى الفلاح، أن دلالة ﴿ تُفۡلِحُونَ ﴾ جاءت عامة، لتشمل فلاح الدنيا وفلاح الآخرة، فاجتناب تلك المحرمات يحقق الظفر والفوز في الدنيا والآخرة. وبما يفيد أن من لم يجتنبها فقد فاته الفلاح.

ولما تقرر في الشريعة تحريم قربان الرجس؛ فضلاً عن جعله شراباً يُشرب، دل ذلك على شدة النهي. قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم: كان تحريم الخمر بالتدرج، وبنوازل كثيرة من القرآن الكريم، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها، وحببها الشيطان إلى قلوبهم. وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعاً لا شك فيه ولا شبهة. وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها، والانتفاع بها، ما دامت خمراً. وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضاً على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام(١)

وفي جمع الخمر والميسر مع الشرك من عبادة الأصنام والاستقسام بالأزلام، دليل على عظيم شدة تحريم الخمر، ولعب الميسر، بل ومن شدة النهي عنهما، أنهما موصوفان بالصفات المشتركة مع المحرمات الشركية، بل زاد الله تعالى عن بيان الخمر والميسر بقوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فهما وسيلتان للشيطان في إيقاع العداوة البغضاء، والصد عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة بهاتين الوسيلتين. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وكأنه لا مباينة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب، وبين من شرب خمراً أو قامر، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر(٢)

وجاء في كُتُب التفسير أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ ﴾ فَدُعي عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٧٤/٢)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٨٩/١)

فنزلت الآية التي في سورة المائدة[١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ وهذا يبين حكمة الله تعالى في الإجابة بتدرج، حتى يقلعوا عما اعتادوه. كما يبين فقه وحرص عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وهذا يفيد بيان فطنة الصحابة لهذين الأمرين: الخمر والميسر من أنهما ليستا من الصالحات، لما في الخمر من غياب العقل، ولما في الميسر من أكل مال الآخر بالظلم. ويفيد التدرج في نزول تحريم الخمر على رحمة الله تعالى بالمؤمنين، في معالجة ما اعتادوا عليه في الجاهلية من الخمر والميسر، فكان عادة من عاداتهم، حتى أصبح الانفكاك منهما ليس بالأمر اليسير على البعض، فجاء التحريم في تدرج. مما يفيد أيضاً مراعاة الله تبارك وتعالى للطبيعة الإنسانية وأحوالها، فيتعامل معها الملك القيوم وفق السُنَن التي جُبِلَت عليها النفوس البشرية. فتبارك الله رب العالمين في كل حال. وهذا يُفيد أهمية مراعاة الخصائص والطبائع البشرية، عند التوجيه والإرشاد والدعوة والتعليم، وخاصة الجبلية، كصعوبة الانفكاك عن بعض الأشياء مرة واحدة، والتعامل معها من خلال مقتضيات ذلك، وعدم التغافل عن تلك الطبائع حتى يؤتي التوجيه ثماره. ومن تلك الطبائع: النسيان، والغفلة، وضعف النفس البشرية، فظهرت حاجتها للتذكير المستمر، وخاصة أن النفس البشرية إذا أَلِفَت شيئاً احتاجت للبديل أحياناً، واحتاجت إلى المجاهدة، التي تتطلب المغالبة على الشهوات. وكذلك يسري هذا في اكتساب الفضائل، فقد تحتاج لمثل ذلك من التدرج، وقد أشارت السنة النبوية إلى ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم)[٢] وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا)[٣] مما يبين عناية المنهج الإسلامي بأدق أساليب المعالجة للطبائع البشرية.

وقد استهلت الآية بما استهلت به الآية التي قبلها بأداة الحصر والتوكيد ﴿ إِنَّمَا ﴾ لتوكيد إرادة الشيطان من أيقاع العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، وخاصة من مدخل وباب: الخمر والميسر. وهذا يدل على أن للشيطان إرادة وقدرة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ وأنه عدو مبين للإنسان، يرغب له الشر، ويكره له الخير، وأنه يزين للإنسان ما يوقعه في معصية الله تعالى، فكلمة ﴿ يُرِيدُ ﴾ تدل على أن للشيطان إرادة، كما أن كلمة ﴿ يُوقِعَ ﴾ تدل على أن لديه قدرة، وفي هذا تعليم وتنبيه وتحذير من الله تعالى للمؤمنين من عدوهم الشيطان الرجيم. وفي التنبيه ما يوجب الحذر والتقوى من العدو المبين. فأهداف

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/١)

(٢) الهيثمي، مجمع الزوائد (١٣٣/١)

(٣) أحمد، المسند (٦/ ٢٧٣) برقم (٣٧٢٧)

الشيطان في هذه الآية الكريمة أربعة أهداف: أولها: ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ والعداوة هي أن يرى كل طرف أن الطرف الآخر عدو له، فيكره له الخير، ويريد أن يوقعه في الشر. وهي التجاوز عما يجب من الالتئام، فتكون العداوة بالقلب، وقد يجتمع معها الفعل، أو القول. والهدف الثاني للشيطان هو: ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ والبغضاء: نفور النفس عن الشيء الذي كان يجب أن تحبه، أو لا تكرهه. فالبغضاء ضد الحب، لأن الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي تميل وترغب إليه. والخمر والميسر يوقعان العداوة والبغضاء بين الأفراد إيقاعاً مفتعلاً، وأما عن ذكر الله تعالى فيكون بالتلهي وانشغال الفكر عنهما، والهدف الثالث هو: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو انصراف القلب وانشغاله، إما بذهول العقل لما أصابه من السكر وأثر الخمر، أو نتيجة اللعب بالميسر الذي أشغل القلب عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، فالانشغال يكون انشغال عقل، أو انشغال قلب، وانشغال العقل بالخمر الذي أشغله عن طاعة الله تعالى، وانشغال القلب بالملهيات التي ألهت عن الطاعة كاللعب بالميسر. فينصرف القلب عن ذكر الله تعالى من الصلاة والتسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وغير ذلك مما يدخل في ذكر الله تعالى، ثم خص سبحانه وتعالى الصلاة بالرغم من أنها داخلة في ذكر الله تعالى ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وذلك لبيان منزلتها من بين منازل ذكر الله تعالى، وهي الهدف الرابع من أهداف الشيطان لعنة الله تعالى عليه، وأبعده الله تعالى عنَّا وعن المسلمين. ولم تُفرد الصلاة بواو العطف فقط، بل أيضاً بعن ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وفي إفرادها دلالة على انفراد منزلتها وخصوصيتها من بين أذكار الله تعالى.

ومن جمال وجميل البيان البلاغي للقرآن الكريم أن فَصَلَ اللهُ تعالى أوضح وأظهر إرادات الشيطان الأربعة السابقة، بجملة ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فذكر الله تعالى إرادتين، وهما: العداوة والبغضاء، ثم ذكر الخمر والميسر، ثم ذكر الإرادتين الأخريين، وهما الصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فيهدف إلى الإيقاع، وإلى الصد. ففي إيقاع العداوة والبغضاء قال تعالى ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فيكون الإيقاع بوسيلة تحبيب وتزيين الخمر والميسر، لأن الإيقاع إحداث وصنع وعمل، فيكون ذلك في العداوة والبغضاء، وأما عن ذكر الله تعالى فيكون بما هو مناسب من الانشغال والتلهي عنها، فقال عَزَّ من قائل ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فالصدود يكون بانشغال القلب عن الشي، وليس

إيقاعاً وإحداثاً، مثل العداوة والبغضاء التي يحصل منها الإيقاع والعمل والإحداث. وهذا من دقة البيان الكريم، وبلوغه درجة الإعجاز في السياق، وفي تحليل الشأن والأمر.

ثم تنتهي الآية بتحذير وزجر من الله تعالى ولكن في صورة سؤال استفهامي؛ يستثير أفئدة المؤمنين ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ بل أفاد هذا الاستفهام التقريع والتوبيخ إن لم ينتهوا، كما أن في هذا السؤال الاستفهامي استيثاق عن مدى تجاوبهم؛ بعد هذه العلل الموجبة لترك الخمر والميسر؛ والذي قورن بالأصنام والاستقسام بالأزلام ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فهل أنتم منتهون ومنزجرون؟ أم أنكم كأن لم توعظون. ففي هذا إبلاغ وبلاغ في غاية الزجر والبيان والتحذير. فموقعها من سياق الآية الكريمة يُبرز بلاغتها وقوة مرادها، مع بلاغة زجرها، وتأثيرها العاطفي والنفسي.

ومن الفوائد الحكمية ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فكل لهو دعا قليله إلى كثير، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصد عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر، وأوجب أن يكون حراماً مثله[١] وهذه قاعدة فقهية حكمية تم استنباطها من دلالة النص وغايته من النهي، مما يفيد قوة أثر القرآن الكريم في بناء القدرة العلمية والقوة والملكة الاستنباطية لمن تولى القرآن الكريم وانشغل بقراءته وتدبره.

ثم أمر سبحانه وتعالى بطاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ ﴾ وهذا تأكيد للتحريم، وتشديد في الوعيد، ووجوب امتثال الأمر، والكف والامتناع عن المنهي عنه، وكذلك فيه حسن عطف ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ لما كان في الكلام المتقدم معنى انتهوا، وكرر ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ عند الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تأكيداً على الطاعة، وإفراداً وبياناً لمكانة طاعته عليه الصلاة والسلام، بالرغم من أن طاعته داخلة في طاعة الله تعالى. ثم حذر من مخالفة الأمر، وتوعد بعذاب الآخرة لمن تولى، فقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ أي: خالفتم ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي البلاغ في تحريم ما أمر بتحريمه سبحانه وتعالى، ولله تعالى هو الذي أمر ونهى، وهو الذي أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُعاقب، أو يُثيب بحسب ما يُعصَى أو يُطاع[٢] أي: بإقامة الحدود على من خالف.

ومن دقائق النص القرآني الكريم أن الله أمر بطاعته، ثم أكده بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم تأكيداً وبياناً على وجوب الطاعة، وكذلك إفراداً وبياناً لمكانة طاعته عليه الصلاة والسلام، بالرغم من أن طاعته

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٨/٦)

(٢) المرجع السابق (١٨٩/٦) بتصرف

داخلة في طاعة الله تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ لأن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام هي من طاعة الله تعالى، ومعصيته هي معصية لله تعالى، وذلك لأنه رسوله الذي يبلغ عنه ما أمر به؛ ونهى عنه، وهذا يوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أمر تبارك وتعالى بالحذر ﴿ وَٱحۡذَرُواْ ﴾ وهو الاحتراز والتوقي من الوقوع في الشيء، فعلاً أو قولاً أو اعتقاداً. وبالتالي يأمر الله تعالى عباده بالاحتراز والتوقي من الوقوع فيما نهى عنه، أو التقصير عَمَّا أمر به. ومن بلاغة البيان الرباني: استيعاب قوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ لوجهين: الوجه الأول: باعتبار موقعها من السياق العام للآيات فتفيد التحذير من الوقوع في معصية الله تعالى في الخمر والميسر، وأما الوجه الثاني: فباعتبارها العام، فتفيد التحذير من الوقوع في جميع ما يؤدي إلى معصية الله تعالى، أو التقصير عَمَّا أمر به، وهذا من عظيم قوة البيان وجزالته.

ثم حذر سبحانه وتعالى عباده من التولي عن طاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بأسلوب التخيير الذي يفيد التحذير ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ وهو من أقوى أساليب العتاب التحذيري لمن هم على المنهج والجادة، فإن حصل التولي منكم بعد العلم والإيمان فلن يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم ضرر بتوليكم، لأن مهمته تنحصر في التبليغ، وليس في تحقيق الهداية وإلزام الناس بها، ودلالة لفظة ﴿ أَنَّمَا ﴾ تفيد الحصر، فمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم تنحصر في تبليغ العباد ما أمر الله تعالى به، ونهى عنه ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فالضرر عائد على من تولى.

ودلالة كلمة ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ تفيد المزيد من التحذير بالنتيجة، كما أفاد النص الكريم أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ، وليست الهداية، فلا يملك عليه الصلاة والسلام أن يهدي غيره إلا بتوفيق الله تعالى. وأن الإنسان مسؤول عن نفسه مسؤولية محاسبة وجزاء. وكلمة التولي في قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ تفيد الإدبار بعد الإقبال، والترك بعد العلم، فلا يكون التولي إلا بعد الإقبال، بما يثبت وصول البلاغ للمخاطب أو المعني به. ومن جليل الفوائد: أن الله تعالى وصف بلاغ نبيه صلى الله عليه وسلم بالمبين ﴿ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ والمبين يفيد: الوضوح البائن الظاهر الذي لا لبس ولا غُمُوض فيه، ولا عتمة، بل خالي من موانع فهمه ومعرفته وقبوله، أو التردد فيه. وكلمة ﴿ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أبلغ في وصف الوضوح من غيرها. مما

يُعطي بياناً شاملاً وكافياً من أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أمر واضح في كلياته وأجزئه.

ومن الفوائد: أن بعض آيات القرآن الكريم تنزل معالجة لوضع قائم، أو سؤال يجول بين المؤمنين عن حال من الأحوال، ومن ذلك أن تساءل المؤمنون عَمَّن شرب الخمر؛ ممن مات قبل تحريمها، أو مات وفي بطنه شيء منه قبل التحريم، فنزل قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] فجاءت الإجابة بأكثر مما سألوا، وهذا من كرم الله تعالى في البيان والإعطاء عموماً. فبينت الآية الكريمة أنه ليس عليهم حرج ﴿ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ من الخمر و ما أكلوا بالميسر قبل التحريم ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ وجاء السياق الكريم لتشتمل دلالته على شأن وأمر من مات، وعلى أمر المؤمنين الأحياء الذين شربوا الخمر قبل تحريمها، من أن ليس عليهم إثم فيما سبق قبل التحريم، إذا اتقوا الله تعالى ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ ﴾ فاجتنبوا معصيته سبحانه وتعالى في الخمر والميسر بعد التحريم، وحققوا الإيمان ﴿ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ وأكدوا إيمانهم بالطاعة وعملوا الأعمال الصالحة ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ والتي تبين وتدل على إيمانهم وتقواهم. ولأهمية الإيمان والتقوى تأكد ذلك بقوله عزَّ وجل ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ تأكيداً لما سبق، ثم أُكد ذلك مرة أخرى بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ وجاء التأكيد هنا بلزوم الإحسان، الذي هو كمال العبودية. فتكون التقوى ملازمة للإحسان.

فاستوعبت الآية الكريمة ما كان متعلقاً بسبب النزول، ممن مات قبل تحريمها، بأنه لا إثم عليه، وكذلك حال المؤمنين الذين كانوا يتناولونها قبل التحريم، أو يباشرون الميسر، بأنه لا إثم عليهم إن هم تركوها، والتزموا بالتقوى، والإيمان، وعمل الصالحات، مؤكدين ذلك بلزوم الإيمان والتقوى التي يتورعون بها عما نُهوا عنه، وملتزمون بالإحسان. ثم عزز تبارك وتعالى ترغيبهم في الطاعة بيان محبته للمحسنين ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والمحسن هو الذي بلغ بطاعته صفة الإحسان، فصار الإحسان صفة له ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يحسنون في عبادة الخالق، لأن في الإحسان زيادة عن الواجب، بالنوافل، والامتناع عن المعاصي، وهو استحثاث للقلوب والعقول إلى التأمل والتفكر، والانقياد للحق والخير بالزيادة والمسارعة فيه. ويشمل الإحسان كذلك ما يكون منهم مع غيرهم. فإن الإحسان في حق المخلوقين: بذل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ومنه العفو عن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٦٤/٨)

المسيء. وفي ارتباط محبة الله تعالى للمحسن ما يستدعي المبادرة إلى تحريه، والعمل به، والاجتهاد في أن يتصف المؤمن بخصية الإحسان.

ومن دقائق البيان القرآني الكريم أن سماهم بالمؤمنين، فلم ينتف عنهم الإيمان، ولا إبطال أعمالهم الصالحة ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ سواء الذين ماتوا قبل التحريم، أو الذين امتنعوا عنها، واتقوا الله تعالى بعد التحريم ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فالشرط الأول هو: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ ﴾ والشرط الثاني: ﴿وَّءَامَنُواْ ﴾ والشرط الثالث: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإذا تحققت فلا إثم عليهم فيما سبق. وهذا من عظيم كرم الله تعالى ولطفه ورحمته.

قال العلامة السعدي رحمه الله تعال: ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله تعالى ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا قد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، ويدخل في هذه الآية الكريمة من طَعِمَ الْمُحَرَّم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه، وتاب إلى الله تعالى، واتقى وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك[١]

وقد تكرر لفظ التقوى في الآية الكريمة ثلاث مرات، فأعطت في كل مرة دلالة تأكيدية، وأيضاً نوعية. فتكرارها أفاد توكيداً وتأكيداً لمنزلة وأهمية التقوى في الطاعة؛ والإخلاص لله تعالى، ووجوب لزومها، وكذلك وجوب تجنب ما يضادها من المعاصي. وكذلك أفادت التقوى في سياق هذه الآية الكريمة: النوع. فالتقوى في قوله تعالى ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ ﴾ أعطت ثلاثة أنواع: أحدها: اتقوا بعد التحريم. والثاني: اتقوا المعاصي والشرك. والثالث: اتقوا مخالفة الله تعالى في أمره، وأما التقوى في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ ﴾ فقد قيل فيها أربعة أنواع: الأول: أن المراد هو: خوف الله تعالى، والثاني: أنها تقوى الخمر والميسر بعد التحريم، والثالث: أنها الدوام على التقوى، والرابع: أن التقوى الأولى مخاطبة لمن شربها قبل التحريم، والثانية: لمن شربها بعد التحريم. وأما التقوى في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ فقد قيل فيها أربعة أنواع: الأول: اجتنبوا العودة إلى الخمر بعد تحريمها، والثاني: اتقوا ظلم العباد، والثالث: توقوا الشبهات، والرابع: اتقوا جميع المحرمات [٢] والمتأمل يجد أن

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥١٧/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٧/٢-٣١٨)

النص الكريم قد استوعب جميع تلك الدلالات، فأعطى غزارة دلالية، بسبب اختلاف موقع التقوى من النص القرآني، وأيضاً لارتباطها العام بالسياق، وتنقل موقعها بين كلام العزيز الرحمن. وهذا العطاء من المعاني المتوافقة غير المتعارضة يبين غزارة البلاغة البيانية في القرآن الكريم، فظهرت إحدى معجزاته في غزارة دلالاته، واستيعابه للكثير من الفوائد المتعاضدة في توافقها، من غير تعارض ولا تضاد، فسبحان الله العزيز العظيم الذي أبهر عباده بعظيم بيانه.

وكذلك من غزارة البيان القرآني الكريم أن في تكرار التقوى ثلاث مرات أفاد التدرج في علو مراتب الدين؛ بمراتبه الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان. فالتقوى الأولى جاءت مع الإيمان وعمل الصالحات ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهذا شمل المرتبة الأولى والثانية: التي هي: الإسلام والإيمان، ولا يصح الإسلام إلا بهما معاً. وأما عمل الصالحات ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فتستوفي جميع أركان الإسلام، وبالتالي استوفت المرتبت الأولى. ثم انفردت التقوى الثانية بالإيمان فقط ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ الذي يمثل المرتبة الثانية من مراتب الدين، فارتبطت التقوى بالإيمان كواجب يجب تحققه لإثبات صحة الإيمان. وأما التقوى الثالثة: فقد جاءت مع الإحسان، الذي هو أعلى مراتب الدين ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ فتكرار التقوى مع المراتب الثلاث دليل على شرط تحققها في مراتب الدين الثلاثة، لإثبات صحتها، فالتقوى هي التي تبين فاعلية ورسوخ تلك المراتب. فهي شرط في إثبات قيام العبد بشرائع الإسلام، وشرط في الإيمان، وشرط في الإحسان، كواجب ترتقي به تلك المراتب، التي يرتقي بها المؤمن عند تحقيقه لها، ثم يتفاوت العباد بحسب تحقيقهم لها، وبالتالي فإن السلوك يرتقي كلما حقق مرتبة من تلك المراتب.

ومن دلالات قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن المقصود بهم: من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيكون دلالة المعنى: ليس على الذين آمنوا بالله وبرسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إثم فيما تناولوه قبل التحريم ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ إذا ما استوفوا الإيمان وعملوا الصالحات، وليس على الذين من بعدهم من الأحياء إثم ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إذا تركوا وانتهوا؛ مُتقين لله تعالى، مؤمنون به وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاءهم من تحريم الخمر والميسر، وقائمون بالأعمال الصالحة التي تؤكد حقيقة الإيمان. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعززوا إيمانهم بالتقوى ولزوم الإحسان، الذي هو كمال العبودية.

ومن الدلالات التي ذُكرت في المقصود بالذين آمنوا من قوله تعالى ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قولان: الأول: آمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والقول الثاني: آمنوا بتحريمها. ومن الدلالات التي ذُكرت في المقصود بالذين آمنوا الثانية، من قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ قولان: الأول: صدقوا بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والقول الثاني: آمنوا بما يجيء من الناسخ والمنسوخ(١) وجميع هذه الدلالات هي غزارة في البيان الذي استوعب دلالات متظافرة متعاضدة، لا تضاد بينها، فسبحان من أعجز ببيانه أن يأتي أحد بمثله، ولو اجتمع الجن والإنس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يتكرر الخطاب للمؤمنين في كتاب الله تعالى بأسلوب النداء؛ أمراً ونهياً وتحذيراً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والذي يحمل في دلالته الكثير من المعاني والمقاصد، والتي تم بيانها في سابق ما مر من الآيات الكريمات، فهو نداء يحمل معاني ودلالات عظيمة، خاصة وأن الخطاب من الله تعالى لعباده المؤمنين. يا من آمنتم بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاءكم به عن الله تعالى، حتى اتصفتم بصفة الإيمان الذي يستوجب منكم القيام بما يجب عليكم من أمر خالقكم ونهيه وتوجيهه، والذي أكرمكم بنعمة بالإيمان، وأكرمكم بندائه لكم، وبتسميتكم بالمؤمنين، وزكاكم بهذا النداء، فارعوا إليه سمعكم، واستجيبوا لما يأمركم به أو ينهاكم عنه.

فيقول تعالى لعباده المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فيا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله وبما جاءكم به، فإن الله ربكم مختبركم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٣١٧-٣١٨)

ببعض من الصيد، مما يفيد أن الحكم لله تعالى، وأن الحكمة والهدف والغاية هو أن يختبر عباده بما شاء، وكيف شاء عَزَّ وجل، ليتقرر بذلك المطيع من العاصي، فيختبر طاعة المطيع، ومعصية العاصي. ودلالة ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ تفيد أنه مقصور على بعض الصيد، وليس جميعه، فخرج من ذلك صيد البحر، لأن ﴿مِّنَ﴾ تفيد التبعيض، بدلالة الآية الأخرى من هذه السورة ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما أن دلالة ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ تفيد التقليل، فإنه ليس بكثير، وفي هذا تخفيف وتلطيف من الله تعالى لمقدار النهي وزمنه بأنه وقت تلبسكم بالإحرام، وهذا من رحمته في الجمع بين النهي وبين مقداره، تلطيفاً وتلطفاً منه سبحانه وتعالى، وهو الغني عن أن يتلطف بعبيده، ولكن لأنه رحمن رحيم.

ثم ذكر تبارك وتعالى ما يُبَاشَرُ به الصيد ويقع به ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ فذكر وسيلتين لتعطي دلالتين واسعتين في مدلولهما، فالأولى: ما تناله الأيدي مباشرة، فيقع المدلول على ما لا يستطيع الهرب، كالفراخ، وصغار الصيد وضعيفه، وكذلك يشمل ما يباغت الصائد من الصيد، أو يحتال عليه فيقبضه من كبار الصيد. والثانية: ما تصيبه الرماح من كبار الصيد وصغاره. ومن سعة دلالة الألفاظ أن كلمة الرماح استوعبت أنواعها المعهودة، وما يمكن أن يستجد، من أنواع السهام، وما يُرْمَى به من البنادق وآلات الصيد الحديثة، وكذلك لفظ اليد أعم في الصيد، فيدخل بها ما يصاد بالرماح وما يُرمى بالشباك، ولكن ذكر الخاص مع العام، أي: ذكر اليدين مع الرماح، لبيان ما اشتهر به الصيد من الرماح، لأنه الغالب في المباشرة، وأما ذكر اليدين فقد أعطى مساحة أعم فيما يمكن أن يستنبطه ويستنتجه الفقيه والمفسر، وكذلك يفيد المبالغة في النهي، أي: حتى لو كان ذلك الصيد في متناول اليد، لقربه وسهولته. وهذه من دقة البيان القرآني الكريم في تحرير الحكم بأدق السياق وأبلغه، إذ تستوفي ألفاظه ومواقعها في السياق كافة المقصود، وتعطي الفقيه ما يحتاج إليه حتى يستنبط ويستخرج الحكم، وما قد يستجد مما لم يكن معهوداً، فيستوعب النص في سياقه مستجدات الأزمان، ومساحة المحذور.

والآية الكريمة لم تذكر أن هذا في حق المحرم، لكن الآية التي بعدها نصت على ذلك لفظاً، فقد نصت على أنه حال الإحرام وكذلك عند ربطها بسبب النزول يتبين أن هذا الحكم في حق المحرم. قال مقاتل بن حيان رحمه الله تعالى: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله تعالى عن قتله وهم محرمون[1]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠١/٢)

وقد بين الله تعالى علة وسبب هذا الابتلاء ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ومعنى ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ أي: ليرى، لأن الله يعلم من العبد قبل أن يعمل، فعلمه أعمق وأوسع، ولكن من عدل الله تعالى، أن لا يقيم على العبد جزاء إلا بعمل، قال مقاتل رحمه الله تعالى: ليرى الله من يخافه بالغيب ولم يره(١) وجملة ﴿ يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ تفيد الخوف من الله تعالى في الدنيا، لأنه لا يرى الله تعالى، ولا يعاينه، فيطيع الله تعالى كأنه يراه. قال الإمام القرطبي: فتأويل الكلام: ليعلم أولياء الله، من يخاف الله، فيتقي محارمه التي حرمها عليه من الصيد وغيره، بحيث لا يراه ولا يعاينه(٢)

ثم بين الله تعالى جزاء من خالف نهيه ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فمن نال الصيد عمداً بعد هذا البيان؛ فله من الله تعالى العذاب الموصوف بالأليم الموجع، وهذا يفيد عظيم إثم من تعدى حدود الله تعالى، فقد سماه الله تعالى اعتداء ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ ﴾ وهو التجاوز.

ثم يتكرر النداء للمؤمنين بالنهي عن قتل صيد البر وهم حُرُم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ فتأويله: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة(٣) والنهي عن قتله يشمل مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى أنه من تمام ذلك؛ أنه ينهى المحرم عن أكل ما قُتِلَ أو صِيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم(٤) ومن الفوائد: أن من تعظيم الله تعالى لهذا النسك أن حَرَّمَ على المحرم الصيد.

ثم عين وبين تبارك وتعالى الجزاء لمن قتله متعمداً ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ فإن الجزاء بالمثل، فيتعين عليه أن يتصدق بمثله، بقراً ببقر، وغنماً بغنم، وهكذا. ومن فوائد المعاني أن ﴿ ٱلنَّعَمِ ﴾ في اللغة: الإبل والبقر والغَنَم، فإن انفردت الإبل، قيل لها: نِعم. وإن انفردت البقر والغنم، لم تسم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٣١٩)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٦٧٢)
(٣) المرجع السابق (٨/٦٧٣)
(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٥١٨)

نعماً[١] وفي تخصيص صيد المتعمد، يخرج به غير المتعمد، فأما المخطئ، فليس عليه عقوبة، وإنما عليه الجزاء، وهو قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية، أنه لا جزاء على غير المتعمد، كما لا إثم عليه[٢]

والمماثلة في قوله تعالى ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ تفيد العدل. ثم عَيَّن تبارك وتعالى من يحكم به ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ يعني يحكم بالجزاء في المثل، أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين[٣] فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل[٤] وذكر اثنين، لأن الصيد يختلف في نفسه، فافتقر الحكم بالمثل إلى عدلين[٥] وذكر أن من مهامهما النظر إلى الصيد المقتول، فَيُقَوِّمَانه قيمته دراهم، ثم يأمران القاتل أن يشتري بذلك من النعم هدياً[٦] مما يفيد أهمية توفر شروط العدالة المناسبة لمن يقضي، وهذا الاشتراط من عدل الله تعالى، وعناية شريعته سبحانه وتعالى بالحق، وإحقاقه.

ثم عَيَّن وحدد تبارك وتعالى مكان الهدي ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ أي: واصلا للحرم، فيذبح، ويفرق لحمه على مساكين الحرم، فيفعل به ما يفعل بالهدي، وكونه بالغ الكعبة؛ يفيد أنها مكة، فليس المراد الكعبة بعينها، ولكن باعتبارها أشرف المعالم الدالة على المكان، ثم قال تعالى ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ ﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد من ذوات الأمثال؛ فكفارته أن يجعل مقابل المثل إطعام مساكين، وقيل هي على التخيير ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ أو يصوم مقابل ذلك. ويقدر عدد أيام الصيام بما يقابل مقدار الطعام، والذي يقدره ويحكم به الحكمان. وكلمة ﴿ عَدْلُ ﴾ تفيد المماثلة والمساواة، أي ما يعادل ذلك، وهي بمعنى العدل الذي يدرك بالبصيرة، كالأحكام. وهذه الحالات الثلاث على التخيير، وقيل هي على الترتيب، فلن يخرج حكمه من إحدى الخلال الثلاث. وللفقهاء مسائل فقهية جليلة وكثيرة، وسواء كان ذلك على التخيير أو الترتيب، فينظرها في مكانها من كتب الفقه والتفسير.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٠/٢)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥١٨/١)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٢/٢)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٨٩/٨)
(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٠/٢)
(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩٥/٨)

ثم بين سبحانه وتعالى علة هذا الجزاء ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾ فوجوب وقوع هذا الجزاء ليشعر بذنبه الذي اقترفه. وكلمة ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ أي: ذنبه، وفعله الذي فعل. وذكر الذوق لإدراك المشقة، لأن الذوق أبلغ في الشعور من جميع الحواس، والوبال ثقل الشيء فيما تكرهه النفس. وهذه من بلاغة البيان العقابي، ليجتمع العقاب الحسي والعقاب المعنوي. ثم قال تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي عفا الله أيها المؤمنون عَمَّا سلف منكم في جاهليتكم، من إصابتكم الصيد وأنتم حرم. وهذا من فضل الله تعالى وعدله، إذ لا يعاقب قبل البلاغ ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُ﴾ ومن عاد في الإسلام على قتل الصيد بعد نهي الله تعالى، وهو حُرُم؛ فينتقم الله تعالى منه. والانتقام يفيد المبالغة في العقوبة، وهذا لا يمنع عنه الكفارة إذا عاد للصيد وهو محرم. وهذا قول الجمهور[1] مما يقرر عند تحرير العقوبات من خلال المصالح المرسلة في مستجدات الأنظمة، أنه لا عقوبة قبل إعلانها.

ثم قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والله هو القوي الشديد العقاب، الغالب الذي لا يُغلب، وهو الممتنع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام مانع، لأن الخلق عبيده، وتحت إمرته وسلطانه، فالعزة عزته وحده لا شريك له، فهو المتفرد بالعزة سبحانه وتعالى. بأنه عزيز ومنتقمٌ ممن يكفر به، ويُعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان سبحانه وتعالى. وصفة العزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. وأيضاً ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فينتقم ممن يكذب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم.

والمتأمل في الآيتين السابقتين، والتالية كذلك يجد تناسقاً تدريجيا في البيان، فتناولت الآية الأولى الابتلاء والاختبار، ليظهر من يخاف الله تعالى بالغيب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وتناولت الآية الثانية النهي والتحذير من قتل الصيد لمن هو محرم، ومبينة لكفارة ذلك فيمن قتله عمداً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا

([1]) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٢/٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥١٩/١)

ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ ثم وردت الآية الثالثة: لتفيد التنصيص على استثناء صيد البحر، مع تأكيد تحريم صيد البر لمن كان محرماً ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

فاستهلت الآية الكريمة بإعلان وإظهار إباحة أكل صيد البحر، ومضافاً إليه طعامه، وهو ميتته، مما يلفظه البحر، وكذلك من دلالات طعامه أنه ما يتزود منه، من مالحه، وقيل هو كل ما صيد منه[١] فجميع هذه الدلالات هي لأجزاء ما يمكن أن يأكل الإنسان من البحر، فهي شاملة لما يُصاد وما يلفظه البحر. وفي هذا البيان من الله تعالى، ما يؤكد ويفند للمؤمنين ما يرفع عنهم الحرج. كما أفاد هذا البيان جمال التناسق المتدرج في البلاغ والإبلاغ؛ وذلك في نسق بديع من رب العالمين.

ثم بين الله تبارك وتعالى مزيداً من البيان ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ ﴾ أي: نفعاً لكم من المقيمين، وكذلك للسائرين، أي: المسافرين، وما يتزودون به في أسفارهم، فهو متاع لكم، كما أن كلمة ﴿مَتَٰعٗا ﴾ أفادت الانتفاع عموماً، ويضاف إلى دلالتها الزمن، بأنه انتفاع ممتد الوقت[٢] وهذه اللفظة الكريمة ﴿مَتَٰعٗا ﴾ أفادت الاستخدام والاستعمال في وقته، وما يدخر الإنسان في سفره؛ وغير سفره. كما أفادت عموم الانتفاع، فهي زائدة عن الأكل.

ثم أكد سبحانه وتعالى تحريم صيد البر للمحرم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا ﴾ ليفيد أنه محرم وقت الإحرام، فإذا حللتم من إحرامكم حل لكم ذلك. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فكل معاني الصيد حرام على المحرم ما دام حُرماً، بيعه وشراؤه واصطياده وقتله، وغير ذلك من معانيه، إلا أن يجد مذبوحاً، قد ذبحه حلال لحلال، فيحل له حينئذ أكله[٣] ثم أمر تبارك وتعالى بتقواه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ وهذا تحذير من عقابه سبحانه وتعالى، فاخشوا ربكم، وذلك بامتثال طاعته، واجتناب ما نهاكم عنه، مذكراً لعباده من أن مصيرهم ومرجعهم إليه سبحانه وتعالى، فيعاقبكم على معصيتكم، ويثيبكم على طاعته.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٧٢٨-٧٣٥)

(٢) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٤٦١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨/٧٤٦)

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يبين الله تعالى تعظيمه لبيته الحرام، وتفضله على عباده بما خصه به من الخصائص ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ فَصَيَّر البيت وجعله ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي: جعل البيت مكان عبادة، يعظم به أمر دينهم بالحج إليه، وانتعاشاً وصلاحاً ومعاشاً، آمناً للناس، وذلك أن الله تعالى عَظَّم البيت، وأوقع هيبته، فإن من لجأ إليه معصوماً بحرمة هذا البيت العتيق. والكعبة هي مركز وقلب البيت الحرام ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ فهي لُبَّه وقلبه، وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ عطف بيان على جمة المدح، لا على جمة التوضيح[١] وسُمّيت الكعبة كعبة، لأنها مربعة، وأكثر بيوت العرب مدورة، وقيل: سُمّيت كعبة لنتوئها وبروزها، فكل ناتئ بارز: فهو كعب، سواء كان مستديراً؛ أو غير مستدير[٢]

وكلمة ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ أفادت أن الله تعالى جعل مكة موطناً تقوم فيه حياة الناس، وعبادتهم، وحالهم، من الأمن والاستقرار، فيأمن فيه الإنسان على نفسه، وتجارته، وماله، وعرضه، فلا يعترضه أحد من الناس، وذلك إجلالاً لمقام البيت الحرام، خوفاً من الله تعالى. وتلك آية من آيات الله تعالى، شهدت وتشهد بها الأزمان.

ثم أضاف تبارك وتعالى نوعاً آخراً، وهو الزمان ﴿ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ فقد جعل الله تعالى من الأشهر، أشهراً حرما، يأمن الناس فيها على أنفسهم ومصالحهم، فلا يطلبون فيها دماً، ولا قصاصاً، ولا يطلبون فيها ثأراً. وبالتالي جعل الله تعالى زمناً آمناً، ومكاناً آمناً، فتتحقق بهما مصالح ومنافع الناس،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٩٥/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٩/٦)

فيتبادلون فيها المنافع؛ من غير خوف من أحد، كطالب ثأر، أو هاتك حرمة، أو طالب عدو، فهي حاجز لمظلومهم من ظالمهم. فيحصل بينهم فيها التعارف، والاتفاقات، وتبادل المصالح.

ثم أضاف تبارك وتعالى صنفاً آخراً من المنافع الآمنة وهو ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ والهدي ما يساق لأهل الحرم من الأنعام للتصدق بلحمه. وأما القلائد فهي ما يقلده الحاج من الهدي بالقلائد، فهذه حواجز حقق الله تعالى بها الأمن، فمنها المكان، وهو البيت الحرام، ومنها الزمان: وهي الأشهر الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. ومنها البهائم، وهي: الهدي والقلائد. فتكون جملة ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ شاملة لقيام الدين، ومعالم الحج، وكذلك قياما لمن توجه للبيت الحرام، وكذلك قياماً للمصالح الدنيوية؛ التي يقوم بها معاش الناس ومنافعهم، من التجارة والتعارف وغيرها من مصالح الناس.

ثم بين تبارك وتعالى فائدة نعمة تلك الأحكام، بأن جعلها قياماً لمصالح الناس الدينية والدنيوية ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك لتعلموا عظيم قدرة الله تعالى، وسعة علمه بتفاصيل أمر السموات والأرض، والتي منها مصالحكم الدينية والدنيوية، والتي ظهرت لكم في أن جعل البيت الحرام قياماً للناس، وتعظيم الأشهر الحرم والهدي والقلائد، وجميع ما قدره وشرعه بما ينعشكم، حتى تتيقنوا بأن الله تعالى عليم بكل شيء، فلا يخفى على علمه أمر من الأمور، فهو ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو بيان تأكيد لعلمه العام سبحانه وتعالى، بعد البيان الخاص ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالذي علم مصالحكم، وأحكمها: زماناً ومكاناً، ونسكاً، فإنه يعلم جميع ما في السموات والأرض، وهذا استدلال يدلكم على ما يجب عليكم من العلم بربكم، فاعلموا أنه شديد في عقابه ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالذي لا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم، وما ينصلح به حالكم، فإنه شديد في عقابه لمن عصاه، وهو كذلك غفور لذنوب من تاب وأناب إليه فأطاعه.

وقد جمع سبحانه وتعالى إلى مغفرته رحمته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مما يفيد أن ذلك مزيد اطماع للعبد في التوبة والإقبال على الله تعالى، إذ لولا رحمته لما غفر لمن عصاه، ولما قَبِل توبة من تاب وأناب، ولكنه رحمن رحيم سبحانه وتعالى. وهذا يستوجب الخوف والرجاء، فيستوجب الخوف من عقاب الله تعالى، ورجاء مغفرته ورحمته، مما يستدعي ترك الكفر والنفاق، والمعاصي، والإقبال على الله تعالى، باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم بين سبحانه وتعالى مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنها تنحصر في التبليغ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ فليس على الرسول صلى الله عليه وسلم هداية التوفيق، وإنما هو مكلف بهداية الدلالة، التي يدل بها الناس على لطريق المستقيم. وإذا كان هذا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه من البشر، فليس على الداعية ولا على أحد من الناس هداية التوفيق التي هي حق لله تعالى، وإنما على الداعية هداية الدلالة والإرشاد. وهذا يدل على قيام الحجة على من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا عذر له. ثم أوضح وبين الله تعالى علمه الواسع بالظاهر والباطن ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فالله تعالى يعلم ما يظهر منكم، وما تسرون وتكتمون في قلوبكم. مما يُوجب عليكم الاستجابة، وقبول الحق، وأن ما يخفى على البشر، لا يخفى على رَبِّ البشر، فإن أخفيتم شيئاً فإن الله تعالى به عليم.

ومن الفوائد أن دلالة كلمة ﴿ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ تفيد البيان، وإيصال الرسالة بأحسن ما يكون: لفظاً وأسلوباً، وقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس بلاغاً وإبلاغاً، فقد بَلَّغ الرسالة بأحسن ما يكون لفظاً وأسلوباً، وأداءً، وقدوة وأسوة، ونصحاً، بأحسن الأخلاق وأكملها. فقد جمع الله تعالى له بين حُسن الْخُلُق وبين جوامع الكلم، وحُسن السياسة والتدبير، وخصال الحكمة كلها.

ومن الفوائد البيانية الدعوية أن جمعت تلك الآيات منازل الدعوة، بالبيان، والاستحثاث للنفوس والقلوب والعقول للاستجابة لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فقد بدأت آيات الله تعالى ببيان تحقيق منافع الناس، بما جعل الله تعالى من بيته الحرام قياماً للناس؛ والأشهر الحرم، والهدي والقلائد ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ ثم بين عظيم قدرته تعالى، وسعة علمه بتفاصيل أمر السموات والأرض، والمصالح الدينية والدنيوية ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ثم بين أنه شديد في عقابه لمن عصاه، وغفور لذنوب من تاب إليه وأناب، وفي هذا استحثاث وترغيب لهم في الطاعة والتوبة ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم بين مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بهداية الخلق، فليس عليه صلى الله عليه وسلم هداية التوفيق، وإنما هو مكلف بهداية الدلالة ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ مما يستوجب عليكم أن تتحملوا مسؤوليتكم عن أنفسكم، وأنه لا عذر لكم بعد هذا البيان، وهذه الحجج والبراهين. مؤكداً ذلك بأنه سبحانه وتعالى يعلم بعلمه العميق ما تخفي الصدور

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ فالله تعالى يعلم ما يظهر منكم، وما تسرونه وتكتمونه في قلوبكم، مما يُوجب الاستجابة منكم، وقبول الحق. وأن ما يخفى على الناس، لا يخفى على رَبِّ الناس، فإن أخفيتم شيئاً عن الناس، أو بعضهم، فإن الله تعالى به عليم، فلا يخفى عليه. وهذه حجج بالغة باهرة، وجاءت بأسلوب غاية في البيان الجامع لكل خصال الدعوة الموجبة لقبول الحق. فسبحان من أعجز بكلامه وأسلوبه عباده.

ثم بين الله تعالى قاعدة في الموازنة بين حقائق الأمور ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فيأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب الناس بهذه القاعدة الجليلة ﴿ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى وغيره: أن ﴿ ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ لفظ عام؛ في جميع الأمور: في المكاسب والأعمال، والناس، والمعارف من العلوم وغيرها، فالخبيث لا يفلح ولا ينجب، ولا تَحْسُنُ له عاقبة وإن كَثُر، وأما الطيب، وإن قل فإنه نافع، وجميل العاقبة[1] فلا يستوي ولا يعتدل الحلال والحرام، ولا الرديء والجيد، ولا المطيع لله تعالى ولا العاصي له سبحانه وتعالى، ولا المؤمن والكافر، ولو كثر أهل الباطل والمعاصي والكفر.

فجمعت دلالة ﴿ ٱلۡخَبِيثُ ﴾ جميع أصناف ومفردات الباطل، وصوره وأحواله ودرجاته، وجمعت لفظة ﴿ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ جميع أنواع وصور ومفردات الطيب من الحق، وأحواله، ومجالاته، ودرجاته، وذلك في مقارنة غاية في البيان الاستدلالي، الذي يقابله المستمع والقارئ بالموافقة القطعية، من أنهما لا يستويان، ثم يقرر ويحرر التوجيه ما يتعلق بميل النفس أو جهلها، أو ما يعتريها من اغراءات ﴿ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ ﴾ فحتى لو استثار الخبيث بكثرته الفكر، وأُعْجِب واستهوى الكثير من الناس به، فإنهما لا يستويان ولا يعتدلان، مما يوجب أن يتقي العبد ربه تبارك وتعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وفي الأمر بتقواه سبحانه وتعالى ما يفيد الاستدعاء لهم بإيثار الطيب على الخبيث وتقديمه بما يتناسب مع العقلاء، ونعمة العقل، وذلك في كل أمر وشأن.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢١١)

ثم عزز البيان بوجوب التقوى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فالزموا مخافة الله تعالى لكم. وقد خاطب الله تعالى الناس بما يناسب المقام، وهو العقل، أو القوة العاقلة ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لأن العقل السليم لا يستسيق مماثلة الخبيث بالطيب، ولو كانت الكثرة للخبيث، فأولي الألباب الذين هم أهل العقول السليمة الصحيحة، التي تقبل الحق ووتنتفع به، وأما المستكبرين المتعالين الذين هم ليسوا من أولي الألباب فلن ينتفعوا بما يُقال لهم. مما يفيد أن الذين ينتفعون بالحق، هم الذين يقبلونه، وهم أصحاب العقول الصحيحة، وأن من رفض الحق فليس بصاحب عقل لبيب، لأنه يرى الحق ويعرض عنه مطاوعة لشهواته، واستكباراً منه بنفسه على الحق. مما يفيد أهمية التواضع، وأنه القوة التي تدفع الإنسان لاتباع الحق هو العقل السليم. وفي هذا بلاغ وخطاب بياني عظيم، كما أن في هذا استحثاث للتفكير والتأمل في الحقيقة، وفي المقاسات والمقايسات التي يجب أن تقاس بها الأمور وتُفهم. وألا ينحرف العاقل وينجر خلف الخبيث لكثرته، أو لكثرة المعجبين به.

واستوعبت كلمة الإعجاب ﴿ أَعْجَبَكَ ﴾ جميع دواعيه، التي تكون من شهوة، أو مجاراة للآخرين، أو رغبة في مدحهم وثنائهم، أو لتحصيل شهوة دنيوية، أو غرور بكثرته، أو لغير ذلك من أصناف دواعي الإعجاب. إذ أن مؤثرات ودواعي الإعجاب ودوافعه تختلف بين الناس، لجماله أو لشهوته، أو لما يحصل عليه المستفيد من المنافع، أو لغير ذلك.

وهذه الآية الكريمة قاعدة للمؤمن أمام الخبيث وكثرته، فلا يغتر بكثرته، ولا بزينته، ولا تزيين الناس له، ولا المغريات الدافعة له، أو المحيطة به. فإن رأى كثرة الخبيث واستهواه قال لنفسه ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ وإن رأى قلة الصلاح في شيء عالج شأنه وأمره بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ وإن رأى غيره مغرور بكثرة الخبيث وعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ فهي قاعدة ثمينة، وركيزة عظيمة لمن تقيد بها، وجعلها مساراً لعقله وتحليله واستنتاجه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى

ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾

ابتدأ البيان الكريم بتوجيه الخطاب للمؤمنين بأسلوب النداء؛ أمراً ونهياً وتحذيراً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والذي يحمل في دلالته الكثير من المعاني والمقاصد التي تم بيانها في سابق ما مر من الآيات الكريمات، فهو نداء يحمل معاني سامية وعظيمة، خاصة وهو من الله تعالى لعباده المؤمنين. فيا من آمنتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاءكم به عن الله تعالى، حتى اتصفتم بالإيمان الذي يستوجب منكم ما يجب عليكم القيام به مما أمركم به خالقكم، أو نهاكم عنه، والذي أكرمكم بالإيمان، وأكرمكم بمناداته لكم، وأكرمكم بتسميتكم بالمؤمنين، وزكاكم بهذا النداء، فارعوا إليه سمعكم، واستجيبوا لما يأمركم به أو ينهاكم عنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ فظاهر الآية الكريمة النهي عن السؤال الذي فيه أشياء، إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها(١) وتشمل كذلك معنى: لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها، ولا هي مما يعنيكم(٢) أو كالسؤال الذي يترتب عليه زيادة في التكاليف. وهي كذلك معالجة لواقع قد حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية من أجل معالجة إكثار السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المسائل التي من الأولى عدم السؤال عنها، كمن سأل عن الحج، أكل عام(٣) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال (يا أيها الناس كُتب عليكم الحج) فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال (لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها ـ أو لم تستطيعوا أن تعملوا بها ـ الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع)(٤)

فجمع النص الكريم للآية العظيمة معالجة الواقع، مع هداية أخلاقية وأدبية عن السؤال الذي لا حاجة للإنسان فيه، وكذلك تعليماً للصحابة رضي الله عنهم، لما يجب عليهم أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم معهم،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٩/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٨١/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٩)

(٤) أحمد، المسند (١٥١/٤) برقم (٢٣٠٤)

بأن لا يسألوا عن أشياء لا حاجة لهم بها، أو ربما في السكوت عنها سلامة من أن يُكَلَّفُون بما لا يستطيعون. وإلا فقد سألوا عن أمور عديدة، كسؤالهم عن الخمر، وسؤالهم عن الأهلة، وسؤالهم عن اليتامى. فلم يحدث في ذلك نهي، بل وجههم الله تعالى للسؤال، كما قال تعالى في سورة النحل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (فإنما شفاء العي السؤال) [١] ثم إنه عند ربط النهي بسبب النزول؛ وكذلك جواب النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأل عن الحج، أفي كل عام؟ يتبين ويتضح الهدف من علة النهي. مما يفيد أن هذا الدين هو دين عظيم في تكاليفه وهديه، حتى فيما سكت عنه الشارع الحكيم سبحانه وتعالى، فقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الله افترض عليكم فرائض، فلا تضيعوها، وحد حدوداً، فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء، فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان، فلا تكلفوها، رحمة من ربكم فاقبلوها)[٢]

وهذا يفيد النهي عن التنطع والتكلف في السؤال الذي لا حاجة للإنسان فيه، ولا يتوقع أن تكون له حاجة قادمة فيه. وأن من لطف الله تعالى بعباده أن نهاهم عن السؤال من أجل مصلحتهم ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فلربما يظهر لكم فيما سألتم عنه ما لا تحبون، فتستاؤون مما يُجاب لكم، وبما يُرَدُّ عليكم.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وإن تسألوا عن أشياء حين يُنَزَّل القرآن من تحليل أو تحريم، أو حكم، أو مست حاجتكم إلى التفسير، فإذا سألتم فحينئذٍ تبدا لكم، فقد أباح هذا النوع من السؤال[٣] ومثال ذلك سؤالهم عن الأهلية، وسؤالهم عن اليتامى والخمر ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي حين ينزل القرآن فيها بفرض أو إيجاب، أو نهي أو حكم، وليس في ظاهر ما نزل دليل على شرح ما بكم إليه حاجة، فإذا سألتم حينئذٍ عنها تُبْدَ لكم[٤] فإباحة السؤال عند وجود الحاجة. وهذا أدب عظيم، وتَوَقٍّ لأثر السؤال، وإجلال للعلم، وتأديب عن التنطع والتكلف في الأسئلة.

ومن فيض الدلالات سعة أوجه النص القرآني الكريم: أي لا تسألوا عن أشياء؛ تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق[٥] فلا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه[٦] وجميع تلك المعاني

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (١/٢٣٩-٢٤٠) برقم (٣٣٦)

(٢) الطبراني، المعجم الأوسط (٨٩٣٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢١٥)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٣٢٦)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٠٩)

(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٥)

والدلالات تتظافر فيما بينها، ليعطي فيض الآية المباركة فيضاً من البيان المتظافر الذي يدل على الإعجاز البياني والدلالي للقرآن الكريم.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ عفا الله عَمَّا كان منكم. أي عفا الله لكم عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كره الله لكم مسألتكم إياه عنها؛ أن يؤاخذكم بها، أو يعاقبكم عليها[١] ومما تحتمله دلالة ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي: عفا الله عَمَّا أمسك عن ذكرها، فلم يُوجب فيها حكماً[٢] كما جاء في الحديث السابق أن الله تعالى (سكت عن أشياء من غير نسيان، فلا تكلفوها، رحمة من ربكم فاقبلوها) وفي كلا الوجهين لدلالة النص ما يفيد رحمة الله تعالى بعباده، سواء عن عفوه لمن سأل، أو عَمَّا أمسك من الحكم، أو عن نهيه عن السؤال، وذلك رحمة بعباده من التكاليف، ولتتسع مساحة اجتهاد العبد في الطاعة، كمثل الحج، الذي لم يوجبه كل عام، فسكت عنه، لتتسع مساحة الاجتهاد في الطاعة، ولو أوجبه لشق على المؤمنين ذلك، ولما استطاعوا. فلا تعارض ولا تضاد، بل إن السياق الذي أعطى هذين الوجهين المتوافقين في علة العفو، من غير تضاد ولا تعارض إنما هو بلاغة إعجاز عظيمة، إذ أعطى النص الكريم هذا الفيض من البيان المتظافر في دلالته. ثم قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم مُتَّصِف بالمغفرة والحلم، فيغفر الذنوب، ويسترها لمن استغفر منها، وتاب وأناب، ويحلم على العباد، فلا يستعجل عليهم، ليستغفر العبد ويتوب، فالحمد لله على مغفرته وحلمه على عباده.

ثم بين سبحانه وتعالى حال من كان من الأمم السابقة، بأن سألوا أنبياءهم مسائل، فأجيبوا عنها، ثم لم يلتزموا بها، فأصبحوا بها كافرين ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ فبسبب أنهم لم يأخذوا بما سألوا عنه، ولم يستجيبوا لذلك، فأصبحوا بامتناعهم كافرين، كقوم صالح الذين سألوا الآية، فلما جاءتهم الناقة عقروها، وكالذين سألوا عيسى مائدة تنزل عليهم من السماء، فلما أُعطُوها كفروا بها، فحذر الله تعالى المؤمنين أن يسلكوا مسلك من كان قبلهم[٣] فأفاد البيان بالمثال أن النهي عن السؤال هو المماثل لأسئلة من كان قبلكم، مما يفيد حكمة الله تعالى ورحمته، وأن التنطع والتشدد في السؤال قد يزيد السائل أو السائلين مشقة لا يتحملونها، كمثل بني إسرائيل عندما شددوا في أوصاف البقرة التي أُمروا بذبحها.

---

(١) المرجع السابق (٢٥/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦/٩)

ثم بين تبارك وتعالى حال الذين افتروا الكذب، فشرعوا في الدين ما لم يأمر به سبحانه وتعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فما أوجب ولا سمى الله ذلك ولا أمر به. فإن هؤلاء المفترين قد جعلوا شيئاً من مواشيهم محرماً، افتراء من عند أنفسهم، فعارضوا ما أنزل الله تعالى. ومنها البحيرة ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ وهي: الناقة في الجاهلية إذا ولدت خمس إناث ليس فيها ذكر، شقوا أذن الخامسة، فيبتكون أذنها. وأما السائبة ﴿وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ فهي: التي تُسيَّب من الأنعام للآلهة، فلا يركبون لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً، ولا يأخذون منها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً. وأما الوصيلة ﴿وَلَا وَصِيلَةٖ﴾ هي: الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، فكان السابع أنثى لا ينتفع النساء منها بشيء، وإن كان ذكراً ذبحوه فأكلوا جميعاً. وأما الحام ﴿وَلَا حَامٖ﴾ هو: الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن، فيقولون: قد حمى ظهره، فيتركونه لأصنامهم، ولا يُحمل عليه[1] وقيل أيضا من دلالاتها: أن البحيرة يحرم ركوبه، ولا تُطرد عن الماء ولا عن المرعى. وفي السائبة قد يقول الرجل: إذا قَدِمْتُ من سفري، أو برئت من مرضي، فناقتي سائبة. فتكون كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم[2]

فإن الله تعالى ما شرع ولا أمر بها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فهذا بيان أن هذه ليست من شريعة الله تعالى، فلم يحرمها الله عَزَّ وجل، بل هو محض اختلاق واختراع من الذين كفروا، فجعلوه شرعاً لهم. وكلمة ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ تفيد الاختلاق والاختراع، فهذا كذب مخترع ومقصود، ليس نتيجة خطأً في الفهم، أو في التأويل، بل افتراء مقصود. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى قولين في معنى ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فأكثر الاتباع لا يعقلون أن ذلك كذباً على الله من الرؤساء الذين حرموا، ويكون كذلك بمعنى: لا يعقلون أن هذا التحريم من الشيطان[3] كما جاء في سورة النساء ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٨/٢-٣٢٩)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٩٨/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٩/٢)

عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ وكلا المعنين لهما وجه استدلال، فالأتباع الذين اتبعوا رؤساءهم لا يعقلون، لأنهم اتبعوا على غير هدى ولا دليل، وكذلك يكون بعدم إدراكهم أن هذه الافتراءات هي من تزيين الشيطان لأوليائه من الإنس، فاستحسنوها وصدقوا ما افتروه من تشريع باطل.

وفي قوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يفيد أن الذي عملوه يتنافى مع العقل الصحيح، وأن أكثر هؤلاء لا ينتفعون بعقولهم، فلو كانوا منتفعين بها، لما اخترعوا هذه المخترعات من عند أنفسهم، افتراء على الله تعالى وعلى شريعته. وفي هذا توبيخ وذم لهم، وكذلك ذم لما اخترعوه واقترفوه من العبادة الباطلة الفاسدة، فحرموا ما أحل الله تعالى. مما يفيد أن العقل الصحيح السليم لا يقبل بهذه وأمثالها، ولا يخترع في دين الله تعالى اختراعاً فيستحسنه، بل يقيم الدين كما جاء عن الله تعالى، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تجاوز. بل من شدت انحرافهم أنهم إذا دُعوا إلى الحق استنكروه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فإذا دُعوا إلى دين الله تعالى وشرعه، وترك ما حَرَّم الله تعالى، اعتذروا بما وجدوا عليه أباءهم وأجدادهم من المسالك والطرائق التي ما أنزل الله بها من سلطان. مما يبين أثر الاقتداء مع عدم التعقل والتفكر، فيحاجون الحق بالباطل، ويحاجون الأنبياء بالآباء، فلنقص عقولهم يحاجون بآبائهم رسالة الأنبياء، ويحاجون بجهل الآباء براهين الأنبياء، ويحاجون بضلال الآباء هُدى الأنبياء. فجعلوا مرتكزهم الباطل من كل وجه قوة يحاجون بها لحق الظاهر من كل وجه. فكيف لهؤلاء أن يتابعوا جهل الآباء، فيردون ويصدون به الآيات البينات التي جاء بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد: أن جاء تأكيد تحقق بطلان موقفهم بتقرير حال آبائهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ذلك أن آباءهم منغمسون في جهلهم، الذي أبانه وأظهره ما هو ضده من الحق الذي جاء عن الله تعالى على يدي رسوله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا يُصِرُّون على عنادهم للحق الذي جاء من عند الله تعالى. فهذا تقرير لبطلان حجتهم من أصلها ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فآباؤهم يتصفون بصفتين، الأولى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ والثانية: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فهما صفتان قد تقرر بطلان الاقتداء بهم، وذلك بمقارنتها بما جاء به الأنبياء من العلم والآيات، والأدلة الباهرة، المقابلة والمضادة لجهلهم

وتمنعهم عن الحق الواضح الذي لا لبس فيه، وهتان الصفتان تُوجب عدم الاقتداء بالآباء، أمام الحق الواضح الذي لا شك ولا لبس فيه.

ثم يتكرر نداء المؤمنين في هذه السورة بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيا أيها الذين آمنوا ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أصلحوا وأدركوا أنفسكم ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ فلا يضركم فساد من فسد وضل إذا أصلحتم أنفسكم.

فيأمر الله تعالى المؤمنين بأن يباشروا إصلاح أنفسهم، وحفظها مما يوجب سخط الله تعالى وعقابه، وجملة ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ تبين وتفيد عموم العناية ولزومها في الأقوال والأفعال والنيات، وجميع ما يلزم من بناء النفس وحفظها ووقايتها ومعالجتها مما يفسدها، فهي جملة استوفت جميع ما يتعلق بإصلاح النفس، كما تفيد مسؤولية الإنسان عن نفسه، فلا يقيس نفسه على غيره ممن ضل أو قَصَّر، مما يفيد من وجه آخر وجوب الأخذ بكل وسيلة تبني النفس وتحفظها من الانحراف.

ثم يحدد تبارك وتعالى أثر ومسؤولية ضرر من لم يستجيب للهداية ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ فلا يضركم فساد من فسد وضل إذا أصلحتم أنفسكم، ويفيد سياق البيان، أن انتفاء الضرر سواء كان من قريب أو كان من بعيد، مما يفيد أن الإنسان قد لا يستطيع أن يهدي غيره، سواء كان عزيزاً، أو قريباً، أو بعيدا. وفي هذا ما يفيد تحديد المسؤولية، واقتصارها في الهداية على نفس الإنسان. وأنه لا يؤخذ أحد بذنب غيره. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله تعالى، وأديتم في من ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظلماً لمسلم أو معاهد، ومنعه منه[1]

وفي حال ربطها ووصلها بما قبلها، تفيد التحذير من مسلك الذين رغبوا أن يكونوا على نهج آبائهم وأسلافهم، فإن امتناع أولئك لا يضرهم في شيء، فلا تحملوا هماً لمسؤوليتكم عنهم. وهذا لا ينفي مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف، لأن النفي هنا هو نفي ضرر عدم استجابتهم لله تعالى، فلا يلحقكم ضرر من لم يستجب للحق.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤/٩)

ثم يقرر ويبين تبارك وتعالى مصير ونهاية الفريقين من المؤمنين والضالين ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فعودة الجميع كائنة وصائرة إلى الله ربكم، فيخبركم بما كان منكم، ليجازي كل أحدٍ بما كان منه. ففي هذا بيان لمآل الفريقين، والذي يحمل بشارة للمؤمنين، وتحذيراً ووعيداً وتهديداً للضالين الكافرين، وذلك لما سيجده كل فريق بما يناسبه، وبما وعد به الله تعالى من الجنة والنعيم للمؤمنين، والخزي والعذاب للكافرين. كما أن جملة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيد تحذيري آخر من أن الله تعالى قد أحصى على كل أحد أقواله وأعماله، وسيعرضه للجميع، بما يفيد عدله تبارك وتعالى، وعظيم قدرته، وأن هناك عرض وبيان، فلا ظلم عند الله تعالى.

ومن غزارة البيان أن المقطع الأول أفاد بيان المصير ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ مع الوعد والبشارة للمؤمنين، والتهديد للضالين الكافرين، والمقطع الثاني ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيد لما سبق، مع مزيد من البيان عن الإحصاء لما كانوا يعملون، وكذلك الجزاء المنتظر، فإن للمحسن الحسنى، وللمسيء العذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى أمر الوصية حين وجود أسباب الموت، فبدأ التوجيه الكريم من الله الرحمن الرحيم بتكرار نداء المؤمنين في هذه السورة بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ التي هي من أرقى درجات

الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من وجوب الامتثال بما تؤمرون به، وتُنهون عنه، وتَحْمِلُ كذلك في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر عن عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا له، وأُمِرُوا به. فيا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم به، ووعدهم بالثواب لمن أطاعه، وتوعد بالعقاب لمن عصاه، يلزمكم استيفاء ما يأمركم به.

فابتدأ الخطاب بمناداة المؤمنين إلى أمر الوصية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ فيا أيها المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فليشهد بينكم اثنان على الوصية أذا قَرُب الموت من أحدكم، وظهرت أمارات وعلامات بلوغ الأجل. ودلالة جملة ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ تفيد مشروعية الوصية إذا ظهرت علامات الموت وأسبابه ومقدماته، وهذا من عناية الله تعالى بالمؤمنين، وبمن خلفهم من أصحاب الحقوق والذرية والأزواج، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالموصي أو بالموصى له.

ومن كمال التوثيق للوصية أن يكون هناك شاهدين وقت الوصية ﴿ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ﴾ متصفان بالعدل ﴿ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ ﴾ وهي الأمانة، وهذا من دقة عناية الإسلام بالحقوق وطرق إثباتها، فلا بد فيها من شاهدين. وشرط آخر متعلق بالشاهدين، وهو ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ أي من أهل دينكم، من المسلمين، ويشمل اللفظ ويستوعب أن يكون من أقاربكم، من أهل الموصي، لما في ذلك من المصلحة حين استدعائهما للشهادة، ومن دقة الاستدراك في الآية الكريمة أنه حال تعذر حصول الشهادة منكم، فيكون من غيركم ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ فيكون الشاهدان من غير المسلمين، حال تعذر وجود المسلم، ويكون أيضاً بمعنى من غير أهل الموصي، أو الأقارب حال تعذرهم. وفي هذا توسعة واستدراك للأمر حال التعذر، وهذا من الدقائق في تحري تحقيق المصلحة، وتحقيق آلية تنفيذها، مما يبين أهمية منهجية الاستدراك حال اعداد الأنظمة، وإدارة الأمور، بأن تستوفي ما قد يكون عليه الحال، وهذا من الإعجاز في بيان مسار وسير اتخاذ الإجراء. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنها ليست للتخيير ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ وإنما المعنى: أو آخران من غيركم إن

لم تجدوا منكم، وبه قال ابن عباس وابن جبير، وقيل أنه للتخيير، ذكره الماوردي[١] وغير المسلم ليس عدلاً، إلا أنه موقف ضرورة لا بديل عنه. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب. وروي كذلك عن الحسن البصري: أن المعنى من غير قبيلة الموصي[٢] وهذا يدل على مرونة هذا الدين الحنيف، ومعاملته بواقع الحال، مما يدل على إعجازه في أحكامه، وأنه لا يكون إلا من خالق الخلق ومدبرهم، إنه عزيز حكيم. ويفيد هذا جواز مرافقة المسلم لغير المسلم، وكذلك التعامل معهم. وحدد بعض أهل العلم أنهم أهل الذمة. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى وقال زيد بن أسلم النخعي، ومالك، والشافعي، وغيرهم من الفقهاء أنه منسوخ. وقال أبو حنيفة: تجوز شهادة الكفار على بعضهم البعض، ولا تجوز على المسلمين[٣]

ومن فوائد النص الكريم: أن سياق ﴿ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ قد أعطت فيضاً من الدلالات المتضافرة، وهي: أن كلمة ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ تفيد من دينكم، وبالتالي تكون دلالة ﴿ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ من غير دينكم، وحين تفيد كلمة ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ من عشيرتكم وقبيلتكم من المسلمين، فإن دلالة ﴿ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ تفيد أنه يكون من غير عشيرتكم وقبيلتكم، وهذا النص بهذه الدلالة، يعطي رحابة في ترتيب الأولى للشهادة، بأن يكون الأقرب فالأقرب، فيكونا من الأقارب المسلمين، فإن لم يتيسر فيكونا من غير الأقارب من المسلمين، فإن لم يتيسر من المسلمين فيكون من غيرهم من غير المسلمين. مما يفيد أهمية الشهادة، وأنها تكون باثنين.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أن هذا الشرط متعلق بالشهادة حال السفر، أي: ليشهدكم اثنان إن أنتم ضربتم في الأرض.[٤] إذ أن التعذر يكون متوقع الوقوع حال السفر، واستنتج بعض أهل العلم من قوله تعالى ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ أنهما شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين، أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية[٥] أي إن ضربتم في الأرض، فنزل بكم الموت، وأردتم الوصية، ولم تجدوا شهوداً عليها من المسلمين، فيكون من غيرهم. ومن فوائد المعاني أن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٣٢/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٥/٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٦/٦)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٣/٢)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٥/٢)

الضرب في الأرض بمعنى السفر في التجارة، وطلب المعيشة، وكذلك السير في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصل الضرب في الأرض الإبعاد فيها سيراً[١] وهذا يدل على إباحة السفر والتنقل للحاجة أو لغيرها من الأغراض المباحة. وكذلك يفيد مشروعية التجارة، والسفر من أجلها.

فأخبر الله تعالى أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت، أن تكون شهادة عدلين، فإن كانوا في سفر، وهو الضرب في الأرض، ولم يكن معه أحد من المؤمنين، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر[٢]

وقد سمى الله تبارك وتعالى الموت بالمصيبة ﴿فَأَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ وذلك من وجهين، الأول: ما هو متعلق بأهل الميت ومحبيه، فإنه بالنسبة لما أصابهم مصيبة، لأن النفس تكره موت القريب والحبيب، والثاني: أن الأمر متعلق بمن حل به الموت، فهو يكره الموت، كما جاء في الحديث القدسي (وما ترددت عن شيء أنا أفعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته)[٣] فاستوعبت دلالة النص الكريم الوجهين من غير تعارض ولا تضاد، بما يبين عظمة بناء القرآن في السياق إلى درجة الإعجاز، والذي بدوره فتق عقول العلماء في تحليلهم لدلالات آيات القرآن الكريم، ورفع مستواهم التحليلي إلى أرقى المستويات العلمية.

ثم بين تبارك وتعالى منهجية الأداء حال وجود قرينة الريبة في الشاهد ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٧/٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٥/٦)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (١٩٢/٤) برقم (٦٥٠٢)

يخاطب الله تعالى الورثة حال وجود قرينة تُوجب الشك والريبة في الشهادة، فتكون منهجية التعامل مع الشاهدين وفق ما نصت عليه الآية الكريمة ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: توقفونها بعد صلاة الفريضة؛ ليؤديا الشهادة، ولم يحدد النص الكريم أي من الصلوات المفروضة، وذهب بعض أهل العلم إلى أنها بعد صلاة العصر ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾ وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضرته علامات الموت، أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين، فإن لم يجد شهوداً مسلمين، وكان في سفر، ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئاً، ولا خانا مما تركه الميت شيئاً، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه؛ من خلل في الشهادة، أو ظهور شيء من تركة الميت زعماً أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه، حلفا رجلان من الورثة وعملا بذلك[١]

ووقت أداء الشهادة بعد الصلاة، وهو دلالة قوله تعالى ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: توقفونهما بعد الصلاة لأداء اليمين، وفي القول بأنها بعد صلاة العصر، ذلك أنه وقت اجتماع الناس، وعن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما[٢] وفائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيماً للوقت، وإرهاباً به، لشهود الملائكة ذلك الوقت[٣] الذي هو وقت صلاة العصر. كما أن في هذا تعظيماً للصلاة.

وجملة ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ تتسع لأن يقوم الحاكم بهذا الأمر، وقد يقوم به أهل الموصي، بحسب الحال، وهذا من غزارة البيان وإعجازه في استيعابه للحال الذي يكون عليه المخاطبون به.

وفي قوله تعالى ﴿ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ أنه هو الموجب لأن يحلف الشاهدان، فهو شرط لا يتوجب عليهما إلا حال الارتياب، وهذه من دقائق التفنيد والتقييد في الإجراء، بما يدل على عمق الإعجاز الاجرائي في نصوص كتاب الله تعالى. ومن دقة البيان الاجرائي أن بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى ما يقولان في القسم ﴿ لَا نَشۡتَرِي

(١) الشوكاني، فتح القدير (٨٨/٢)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٧٠٣/١)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/٦)

﴿بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ أي يقولان في يمنها: لا نشتري بيميننا عوضاً نأخذه بدلا مما أوصى به، ولا ندفعه إلى أحد، ولو كان الذي نقسم له ذا قربى منا. ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ ولا نكتم الشهادة التي نشهد بها لله تعالى على ما شهدنا عليه، وفي إضافة الشهادة لله تعالى ﴿شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ تعظيماً لها، وإجلالاً لقدرها، لما يترتب عليها من إثبات الحقوق، ولأن الله عَزَّ وجل أمر بإقامتها سبحانه وتعالى.

ثم عالجت الآية الكريمة احتمال وقوع حنث من الشاهدين في يمينها، فقال تعالى ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن ظهر وتحقق من الشاهدين أنهما خانا، أو أخذا من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك، وهو معنى قوله تعالى ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي: استوجبا ﴿إِثۡمٗا﴾ يعني بالخيانة، وأخذهما ما ليس لهما، أو باليمين الكاذبة، أو بالشهادة الباطلة، والإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه إثم، فسمي إثماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة(١) وهنا تكون المعالجة للأمر ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فمتى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي فيقسمان: لَقَولنا: أنهما خانا، أحق، وأصح، وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ أي: فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما، والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل(٢)

ثم بين سبحانه وتعالى علة هذا الإجراء من الأيمان والشهادة ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: فالذي

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٣١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١١٦)

حكمنا به من رد اليمين، أقرب إلى إتيان أهل الذمة بالشهادة على وجهها، أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن تُرَدَّ أيمانُ أولياء الميت بعد أيمانهم، فيحلفون على خيانتهم، فيفتضحوا، ويغرموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك[١] أي: أن شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي، وقوله ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه، وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إن رُدَّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال تعالى ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ ثم قال عَزَّ وجل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا ربكم أن تحلفوا كاذبين، أو تخونوا أمانة، فاتقوا الله في جميع أموركم ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما وعظتم به، وأطيعوا الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى لا يوفق الخارجين عن طاعته، ومتابعة شريعته.

ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن الله تعالى يقول للمؤمنين الذين آمنوا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم: شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت، أن يشهد اثنان، ذو عدل منكم، إن كان أوصى إليهما، أو آخران من غيركم، إن كنتم في سفر، فحضرتكم المنية، فإذا أنتم أوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال، فأصابتكم مصيبة الموت، فأدى الشاهدان إلى ورثتكم ما أوصى به الموصي، ثم ادَّعوا عليهما الورثة بخيانة خاناها مما ائتُمِنَا عليه، فإن الحكم فيهما حينئذ أن تستوقفونهما بعد الصلاة، فيحلفان بالله لا نشتري بأيماننا بالله ثمناً، ولا نحلف كاذبين على عوض نأخذه عليه، وعلى مال نذهب به، أو لِحَقٍّ نجحده لهؤلاء القوم الذين أوصى إلينا وليهم وميتهم. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فَيُقْسِمَان بالله: لا نطلب بإقسامنا بالله عوضاً، فنكذب فيها لأحد، ولو كان الذي نقسم له به ذا قرابة منَّا. والهاء في قوله ﴿بِهِۦ﴾ تعود للقسم. وإذا كان الرجل بأرض الشرك، فأوصى لرجلين من أهل الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، وكان يقال عندها تصير الأيمان. وأن النبي صلى الله عليه وسلم لاعن بين العجلانيين بعد العصر دون غيرها من الصلوات.[٢]

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢/٣٣٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٧٤-٧٧) ملخص

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ما سيخاطب اللهُ تعالى به المرسلين يوم القيامة، فابتدأت الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بما يشد الذهن والانتباه، لذلك اليوم، من الجمع للأولين والآخرين. وهو جمع رهيب ليوم الحساب والجزاء. وفي هذا تنبيه لذلك اليوم، الذي يجب أن تعدوا له العدة بتقوى الله تعالى، والاستماع إلى مواعظه لكم، والاستجابة له عَزَّ وجل. فإن في هذا اليوم، يجمعُ الله تعالى جميع الرُّسُل، فَيُسألُون ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ بماذا أجابتكم أقوامكم الذين أُرسلتُم إليهم؟ وهو أعلم بهم سبحانه وتعالى، ولكن ليقررهم بالحق والحقائق. فيقول المرسلون ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فأوكلوا العلم لله تعالى، وذلك لذهولهم من هول ذلك اليوم، حيث قالوا: لا علم لنا إلا العلم الذي أنت أعلم به منا. ثم أجابوا بعد أن ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم. إذ نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم[^1] ويحتمل قول الأنبياء ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ بأنه نفي علمهم بجميع أفعالهم، إذ كنا نعلم بعضها وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان بعد وفاتنا[^2] وفي دلالة سؤال الله تعالى للرسُل ما يفيد التوبيخ لأقوامهم التي كذبتهم، إذ أنه يوم توبيخ يومئذ للكافرين، بسؤال الرسل عن إجابة أقوامهم لهم، فإن هذا اليوم، هو يوم الجمع، الذي يجب الحذر منه، والإعداد له.

ثم ذكر الله تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ وهذا عام لجميع النعم، ليأتي بعدها، تفصيل بعضها، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، لمزية هذا الخاص، فأول هذه المنن والنعم هي ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، فقويتك به. وكذلك من النعم المعجزة، تكليم الناس في المهد وكهلا

[^1]: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١١٠-١١١) ملخص
[^2]: ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢/٣٣٧)

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي: تدعوا إلى الله تعالى في صغرك وصباك وكبرك، فتكلمهم بالنبوة، وفي هذا بيان فضل تأييد الله تعالى له بهذا النوع من الإعجاز الرباني الخارق للعادة.

ومن بلاغة البيان أن جمع الله تعالى في السياق بين تكليم عيسى للناس في المهد، وتكليمه لهم في الكهولة، للمقارنة بين ما هو معتاد من الكلام في الكهولة وبين عجز الكلام في المهد، ليكون في ذلك إظهار وبيان للمعجزة بأسلوب المقارنة. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: تكلمهم في هاتين الحالتين؛ من غير أن يتفاوت كلامك حين الطفولة، وحين الكهولة، الذي هو وقت كمال العقل، وبلوغ الأشد، والحد الذي يُستنبأ فيه الأنبياء[1] ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ فالكتاب يدل على الخط والفهم، وأما الحكمة فتدل على الكلام الصواب المحكم، وكذلك علم الكتاب الذي أُنزل من قبل على موسى عليه السلام وهو التوراة، والكتاب الخاص بعيسى وهو الإنجيل ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ فمكنه الله تعالى من الكتابين، وهي منقبة له عليه الصلاة والسلام. وخُص التوراة والإنجيل بالذكر بياناً لمقامهما، بالرغم من أن لفظ الكتاب يشملهما من حيث الجنس، ومن حيث ما احتوياه من الحكمة.

ومن نعم الآيات العظام قوله تعالى ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطير بإذن الله تعالى ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِي﴾ أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك، فتكون طيراً تطير بإذن الله تعالى. وكذلك من نعم المعجزات: الشفاء ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِي﴾ وتشفي الأكمه، وهو الأعمى المطموس البصر، الذي لا يبصر شيئاً، وذلك بإذن الله تعالى وإرادته، وكذلك تشفي الأبرص، فيعود جلده سليماً بإذن الله تعالى وإرادته. ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ أي: تدعوهم من قبورهم؛ فيقومون بإذن الله تعالى وقدرته ومشيئته. ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ واذكر نعمتي عليك في منعي وكفي عنك بني إسرائيل، إذ جئتهم بالبراهين والحجج الباهرة القاطعة، الدالة على نبوتك ورسالتك بأنها من الله تعالى إليهم، فكذبوك، واتهموك بالسحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيناك منهم، ورفعتك إلي، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم، وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله تعالى إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على

(١) الزمخشري، الكشاف (٧٠٤/١)

وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أَطْلَعَ اللهُ عليها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم[١] وقد نسب الله تبارك وتعالى جميع تلك المعجزات إليه عَزَّ وجل، بقوله جَلَّ جلاله ﴿بِإِذْنِي﴾ ليدرك كل أحد أن كل فضل هو بإذن الله تعالى.

وفي ذكر عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وما أنعم الله تعالى عليهما من الخصائص الخارقة للعادة تذكير وبيان لغيرهما بقدرة الله تعالى، وعظمة أمره، وتكوينه وتصريفه، وأنه هو الذي سنن السنن، وهو الذي يُجري الأمور بخلافها متى ما أراد سبحانه وتعالى، ليعلموا أنه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير. وفي ذلك بيان أنه يخص من يشاء بكرامته، وأنه ميز عيسى وأمه بعلوهما في المرتبة، والإعجاز، وأجرى عليهما معجزات من عنده. وفي ذلك نفي الباطل عنهما، وتأكيد حجتهما، وبيان لقوة حجته سبحانه وتعالى فيمن أرسل إليهم رسوله، ويرد به على من جحد.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ومن امتنان الله تعالى على عيسى ما قذفه في قلوب الحواريين ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ فجعل الله تعالى لعيسى أنصاراً وأصحاباً، بأن وفق الحواريين بإلهامهم محبة الإيمان، فآمنوا بالله تعالى وبرسوله عيسى عليه السلام، فالوحي هنا هو وحي الهام[٢] وتوفيق وهداية. مما يفيد أن الله تعالى كما يختص برسالته من يريد ويختار، فيجعلهم أنبياء، فإنه كذلك يختص من يشاء بالهداية والتوفيق، وهي هداية اختصاص وتوفيق. كما يفيد ذلك أن الله تعالى إذا أراد أن يوفق أحداً من عباده هيأ له من الأسباب والأعوان والأصحاب ما يعضده، وهيأ له لسُبُل التي يتحقق بها

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٩/٢)

(٢) المرجع السابق (١١٩/٢)

المراد. مما يستوجب الحمد والشكر على الهداية والتوفيق لها، وسؤال الله تعالى العون والتوفيق، فهو الذي يملك الأسباب والقلوب، وييسرها كما يريد. فتلك هداية اختصاص، وإلا فإن الله تعالى ألهم كل نفس فجورها وتقواها، فمن الناس من يختار مسلك الفجور، ومنهم من يسلك مسلك المتقين، وكل شيء بمشيئة الله تعالى، فلا غنى للمرء عن سؤال الله تعالى وعونه وهدايته وتوفيقه، فهو الله الرب العظيم العزيز، الملك المتصرف كيف يشاء.

وقد بين الله تعالى سرعة تفاعل الحواريين مع ما أوحى الله تعالى به إليهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ فامتثلوا لما أُلهموا له، فاستجابوا لعيسى عليه السلام، وانقادوا في متابعته، وأشهدوا عيسى في استسلامهم لله تعالى، وطاعة رسوله عليه السلام ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ وفي استيثاقهم بطلب شهادة عيسى على اسلامهم ما يدل على حرصهم على الطاعة، ومن باب المبالغة في الحرص، ليتبين بذلك أثر إيحاء الله تعالى لهم بالإيمان.

ثم ذكر الله تعالى قصة المائدة التي سُميت السورة بها، فتناولت الآيات ما دار بين الحواريين وعيسى عليه السلام ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فقال اتباع عيسى عليه السلام: هل تستطيع أن تسأل ربك، وهل تسطيع أن تدعو ربك، وهذا على وجه من القراءة ﴿هل تستطيع﴾ والأولى هل يستجيب لك ربك إن سألته ذلك[١] فهل يطيعك ربك إن سألته ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع [٢] فالحواريون لم يشكوا في ربهم، وذكر بعظهم: إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم، فسألوا المائدة حتى يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة، والمائدة هي الخوان عليه الطعام[٣] والخوان هو ما يوضع عليه الطعام. فأجابهم المسيح عيسى ابن مريم إلى لزوم التقوى ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فنهاهم عن سؤالهم المائدة، فقد تكون فتنة لهم، فعليكم بالتوكل على الله تعالى في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين. فأجابوا بما يؤكد حاجتهم في المائدة لأمور: أولها: سد الجوع ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾ والثاني: طمأنينة القلب ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فنزداد بنزولها إيماناً، فهم مؤمنون، ولكن

(١) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/١١٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٣٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/١٢٠)

ليزدادوا إيمانا، لأنهم لم يقولوا: لنؤمن، وإنما قالوا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ والطمأنينة زيادة على ما تقرر، فيطمئنون بها أن الله تعالى اصطفاهم واختارهم، وأن الله أجابهم لما سألوا. وقد سأل خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام معرفة كيف يحي الله الموتى، من أجل الطمأنينة، كما في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ والثالث: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: ونزداد إيماناً بك، وتصديقاً، والرابع: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: ونشهد أنها آية من عند الله تعالى، وحجة على نبوتك. وفي ترتيب هذه المطالب ما يدل على ترتيب الحاجات، وأن أول ما تستقيم به حال الإنسان هو رفع الجوع وإزالته، لأنه قوام نشاط الإنسان، وأن الحاجة الثانية: بعد الإيمان هي زيادة الطمأنينة الايمانية، وهذا يعني أن للإيمان درجات، وهي متعلقة بالطمأنينة بعد الإيمان، فطلبوا المائدة بما يزيد في إيمانهم، وأن الحاجة الثالثة في الترتيب هي: المزيد من التأكد والاستيثاق الذي تزداد به النفس ثقة وإيماناً، فأصبح المطلب الثاني والثالث متعلق بزيادة الإيمان وثبوته، والحاجة الرابعة: قيام الحجة والبرهان، وهي متعلقة بالإيمان. والمتأمل في جميع هذه المطالب يجد أنها متعلقة بتقرير زيادة الإيمان، وليس في إيجاده، لأنه تَقَرَّر الإيمان بقولهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وبالتالي فإن سؤالهم المائدة ليس شكاً، بل لرفع الجوع وتحصيل زيادة الإيمان.

ثم بين الله تعالى أن عيسى ابن مريم عليه السلام استجاب لطلبهم ودعا الله تعالى ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فاستهل عيسى عليه السلام دعاءه بتمجيد الله تعالى ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ فنادى بقوله ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ وكذلك ﴿رَبَّنَآ﴾ وختم الدعاء بتمجيد الله تعالى ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فدعا وأثنى على الله تبارك وتعالى بما يتناسب مع نوع الطلب ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وفي هذا بيان لأدب الدعاء والمسألة، وكذلك علل الطلب، بأن تكون لأهداف وغايات تتحقق بها العبودية ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ فنتخذ اليوم الذي نزلت فيه المائدة عيداً نعظمه؛ نحن ومن بعدنا ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ والهدف الآخر هو ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي حجة ودلالة، وذلك لما فيها من الإعجاز والحجة البالغة، فتكون حجة منك يا رب على عبادك في ألوهيتك وربوبيتك وقدرتك، وتصديقاً وتأكيداً لرسالة من أرسلت، والهدف الثالث: حصول الرزق بنزولها ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ فاعطنا من عطائك.

ثم ختم عيسى عليه السلام الدعاء بتمجيد الله تعالى ﴿ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فأنت يا الله خير من يعطي، وأجود من يجود. وفي دلالة كلمة ﴿ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ تقرير بأن الله تعالى هو فقط خير من يرزق ويعطي ويجود، وأنه مخصوص بالخيرية سبحانه وتعالى وبالعطاء والكرم والجود. فأجاب الله تعالى بقوله العظيم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: إن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم بهذا الوعيد إن كفروا. ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها، بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك أنه لم يُذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله تعالى، وأنه لا يخلف الميعاد[١] وقد تناولت كتب التفسير هذا الاختلاف بالتفصيل. وذكر ابن الجوزي ذلك التفصيل، وخلاصة القولين، بأن الجمهور على أنها نزلت، والقول الثاني: أنها لم تنزل، لأنه لما قال الله تعالى ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها[٢] وسواء نزلت أو لم تنزل فإن العبرة بالموقف والحدث، وما في ذلك من العبر، وما يحمله البشر من الطبائع، وما يواجهه الرسُل من أقوامهم، وكيف هو حلمهم، وطرائق تعاملهم، وسياستهم لهم، وكذلك حكمة الله تعالى، وقدرته، وحلمه سبحانه وتعالى، ورحمته.

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٥٣١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢/٣٤١-٣٤٢)

وينتقل السياق القرآني الكريم إلى أحد مواقف يوم القيامة، فمما خاطب الله تعالى به عيسى ابن مريم عليه السلام هو شأن يوم القيامة ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ فهذا السؤال يحمل تهديداً وتوبيخاً لمن انحرف من النصارى، وذلك على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فهو سؤال موجه لعيسى عليه السلام استنكاراً لمن اتخذ عيسى وأمه إلهاً من دون الله تعالى، وحرر الإمام القرطبي رحمه الله ذلك بأن **(إذ)** بمعنى **(إذا)** فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ** ﴾ تنبيها على تحقيق وقوعه، وظهور برهانه، وكأنه قد وقع. وفي السؤال قولين: الأول: أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادَّعى ذلك عليه، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع. والثاني: قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده، وادَّعوا عليه ما لم يقله[1] وليس بين القولين تعارض، فلا يمنع أن يكون المعنيان مقصودان: توبيخاً لهم، وبياناً لعيسى عليه السلام بما حصل بعده من قومه، فادّعوا عليه ما لم يقله، فحرفوا وبدلوا.

فيرد عيسى عليه السلام بما ذكره الله تعالى عنه ﴿ **قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ فبدأ بتنزيه الله تعالى ﴿ **قَالَ سُبْحَـٰنَكَ** ﴾ تنزهت يا الله أن اتجرأ عليك بهذا القول، الذي ليس لي الحق أن أقوله ﴿ **مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ فليس لي حق في أن أقول ذلك الأمر الذي ليس لي فيه حق أبداً. بما يفيد قوة المبالغة في نفي أن يكون ذلك منه. ثم أوكل العلم الشامل لله تعالى ﴿ **إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ** ﴾ فاستشهد بقصور علمه على كمال علم الله تعالى، ثم أكده بقوله ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ فزاد على ذلك ببيان مجاوزة ورفعة علم الله تعالى بما في نفس عيسى إلى ما هو أعظم من ذلك وأشمل وأكمل ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ فأنت تعلم الغيب الذي لا أعلم منه شيئاً، وفي هذا جمال وكمال أدب في الخطاب مع الله تعالى من عيسى عليه السلام. ومن دقة التمجيد لعلم الله تعالى أنه لم يفرد الغيب، بل جاء بصيغة الجمع ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ وكذلك أورد علم الله تعالى بأسلوب المبالغة في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤١)

العلم. بل وزاد في ذلك بأسلوب الحصر والقصر على أن علم الغيوب هو لله وحده لا شريك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ﴾ يار ربي ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ وليس ذلك لغيرك من الخلق.

ثم بعد هذا الأدب والبيان من أنه لا يمكن للقاصر في علمه أن يدعي بما ليس له، أوضح ما كان منه مع قومه ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴾ لم أتجاوز ما أمرتني فيما أرسلتني به، فحصر قوله لهم فيما أمره الله تعالى به، وهو ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ فبين أنه مثلهم مربوب لله تعالى ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ وأن يصرفوا العبادة لله تعالى وحده لا شريك له ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ ثم أبان أنه يشهد على أعمالهم حين كان بين أظهرهم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ ﴾ وأما بعد رفعي من الأرض؛ فعلمك يا الله وحدك هو الشاهد عليهم والعالم بهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ثم اعتمد في شهادته على قومه بشهادة الله تعالى، التي تتجاوز زمانه، من قبل ومن بعد ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ فهي شهادة شاملة كاملة، إن كان قد استوفى ما أمر الله تعالى به، أو زاد، أو أنقص. وفي هذا مدح وثناء على لله تعالى بما هو حق لله تعالى، وتفويض الأمر له عَزَّ في علاه. ثم رد المشيئة لله تعالى في مجازاتهم ومعاقبتهم بالعذاب أو المغفرة ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فإنك أنت العزيز القادر، وأنت الحكيم في أفعالك بما تشاء ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ مستشهداً لله تعالى بعزته وحكمته فيما يفعل سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بما قرره عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ فإن المنتفعون في ذلك اليوم هم الذين صدَّقُوا رُسُل الله تعالى، واستقاموا، فهو بيان من الله تعالى لأحوال عباده يوم القيام، فالذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على ملة الله تعالى فإنهم هم المنتفعون باستقامتهم الصادقة، يوم ينجيهم الله تعالى، ويدخلهم برحمته في جناته ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فإنهم ماكثون فيها، لا يحولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهذا الفوز هو الفوز العظيم، فقد وصفه الله تعالى بالعظيم، لأنه متناهي في نعيمه.

ثم اختتمت السورة المباركة ببيان عظمة ملك الله تعالى، وقدرته ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ﴾ فإن ملك السموات والأرض وما فيهن لله تعالى، كما أن قدرة الله تعالى عامة على كل شيء وأمر، فلا شيء يستعصي عليه، فكل ما يريده يتحقق كيف شاء، ومتى شاء سبحانه وتعالى.

فإنه سبحانه وتعالى هو لا غيره الذي له ملك السماوات والأرض. فإنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره شيء فيها أبداً، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه لله عَزَّ في علاه، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما ارتفع وعلا مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الملائكة والأفلاك والأجرام والسحاب، والهواء، والرياح، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد شملت ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما هو عليها، أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. ثم زاد التأكيد بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ أي: وجميع ما هو موجود في السماء، وما هو موجود في الأرض، مما تعرفون وتعلمون، ومما لا تعلمون مما هو غيب عنكم. فاستوعبت ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، لقصور حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته وعبادته وحده لا شريك له. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة مَا خَلَق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله جَلَّ جلاله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرُۢ﴾ فربكم على كل ما يريد قدير، فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه

وقهره، ومن ذلك أرزاقهم، ونصرهم وتمكينهم في كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم مما تريدون من الخير، واطلبوا قوته في دفع ما تهابون وتخشون وتخافون. وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفته سبحانه وتعالى.

وقد أورد تبارك وتعالى كمال القدرة له عَزَّ وجل بصيغة المبالغة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان باسم الإشارة ﴿وَهُوَ﴾ لإفادة: الحصر والقصر على أن ليس لأحد هذه القدرة المطلقة إلا هو العزيز الرحيم، بل إنها له سبحانه وتعالى حصراً وقصراً فقط. وأن أمر وشأن قدرته تبارك وتعالى ممتد لكل شيء، وفي كل زمن، وفي كل مكان، فهي تعطي معنى كمال القدرة على كل شيء، مع اتصال الزمن من غير انقطاع، وذلك لكمال قدرته جَلَّ جلاله، ولتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ التي لا تنقطع ولا تتوقف، لا سابقاً ولاحقاً.

فتم بحمد الله إتمام ما يتعلق بسورة المائدة، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.